الموسوعة الإسلامية العربية 1

الإسلام والعلم المعاصر

بحث تاريخي - حضاري

بقلم
أنور الجندي



دار الكتاب اللبناني - بيروت

الموسوعة الإسلامية العربية

١

الإسلام والعالم المعاصر

بحث تاريخي حضاري

بقلم
أنور الجندي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقيا : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٨٠

آفاق البحث

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

« كان الناس أمة واحــــدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيــــه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لمـا اختلفوا فيه من الحق بإذنه » .

« قرآن كريم »

بسم الله الرحمن الرحيم

١

مدخل الى البحث

علم مقارنة الأديان علم قديم : كان المسلمون اول من تناولوه في انصاف ووضعوا قواعده في أمانة ، وكشفوا به حقائق الأمور في سماحة بالغة . فقد تناول ابو الريحان البيروني . وابن حزم . والشهرستاني وغيرهم مقارنات الأديان وفق منهج علمي قائم على العدل والانصاف ، وعرض أقوال المخالفين بكل حرية ، وعرضوا للنحل على نحو متميز من الوضوح والسماحة ، دون تجاوز الحق . وان أي مراجعة لكتاب الأطباء لابن ابي أصيبعة ـ وطبقات الحكماء لابن القفطي . وطبقات الأدباء لياقوت ـ والوافي بالوفيات للصفدي ـ وتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي . تجد نماذج لهذا التسامح . فقد ترجم المؤلفون المسلمون للنصارى . واليهود والمجوس . وكأنهم ابناء ملة واحدة ـ وكتب البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة . فلم يمس عاطفة أحد من أهلها .

(٢)

وليس ذلك موضع غرابة من أحد ، إنما الغريب هو أن يحدث عكس ذلك ، ذلك ان الاسلام قد أقام عقيدته على اساس الإيمان بالله وكتبه ورسله جميعاً ، وأعطى مضمون التسامح والإنصاف لكل النحل والاجناس والاديان. بل وللمخالفين عن الاديان ما لم يحدثوا في الامة شبهة او شكوكاً . ولقد كانت نزعة التدين من طبائع البشرية ، ومن فطرتها الاصيلة التي لا تخلف إلا في طائفة قليلة من الذين انحرفت فيهم الفطرة ، او أصول العقل والإدراك . غير أن السنوات الاخيرة حملت دراسات جديدة في مقارنات الاديان ، كتب بعضها من وجهة نظر تقوم على التعصب لدين الباحث . او من وجهة نظر مادية بحتة تقوم على النظر الى الاديان نظرة الانتقاص ، وتحاول ان تفسرها تفسيراً يقوم على الهوى والازدراء .

وقد ألبس بعض هذه الأبحاث طوابع زائفة من العلم لتخفي ما وراءها من أهداف وغايات . وهي في الأغلب تخضع لاتجاه الصهيونية التلمودية . التي تحاول ان تهاجم المسيحية والإسلام معاً باعتبارهما متأخرين عنها تاريخياً . ولو كانت اليهودية التي تحاول ان تعرض لتحل محل الاديان التالية لها . هي ما أنزل على موسى عليه السلام لكان الخلاف قليلاً ، او ربما لم يكن هناك خلاف قط ، ذلك أن مصدر الاديان واحد وهو الله ، وأصولها الكبرى واحدة وهي التوحيد والعدل والاخلاق . غير ان الأبحاث العلمية كلها ، وخاصة ما قام بها أصحاب الاديان أنفسهم تؤكد ان هناك تفسيرات قد أولت حقائق ، وأن هناك تفسيرات اخرى قد غيرت حقائق بالإضافة والحذف . وأن النصوص الاولى المنزلة من السماء للتوراة والإنجيل . ليست موجودة قطعاً . ذلك ما يقرره البحث العلمي قبل ان يقرره القرآن الكريم الذي سجل ذلك. والذي جاء خاتماً للكتب . ومهيمناً عليها .

هذا فضلاً عن ان اصحاب البحث المقارن للأديان . انما يصادمون معتقداتهم ، ويختلفون معها حين يبحثون الاسلام فيجدونه إما مشابهاً لما جاء في اليهودية والمسيحية . فعندئذ يقولون ان الاسلام ليس الا تكراراً لهما ، او يجدونه مخالفاً لما عندهم من تفسيرات اليهودية والمسيحية . فيرون ان الاسلام قد صادم مفاهيمهم ومعتقداتهم .

ولقد عجز الباحثون في مقارنات الاديان ان يتخلصوا من مفاهيمهم او أهوائهم . لأنهم يقفون في الجانب الجزئي بينما كتاب مقارنات الأديان المسلمون يقفون في الجانب المتكامل .

ولقد يكون «التوحيد» وهو أس الأساس في الاسلام مجافياً لمفاهيم بعض الباحثين في مقارنات الاديان . ولقد يبدو تكامل الاسلام بين الدين والمجتمع . والعقل القلب . والعلم والدين معارضاً لمفاهيمهم الاساسية التي قامت على أساس الفصل بين القيم والاتجاه بها وجهة واحدة . شاطرة او جزئية . ومن هنا يبدو تكامل الاسلام في نظر الانشطارية نقصاً او تجاوزاً ، فاذا كانت مقارنات الاديان قائمة على اساس الهوى او الغرض . او محاولة اقرار مفهوم خاطىء ، او محاربة دين ، او إثارة الشبهات في أمة من الأمم . فان هذه المقارنات لا تساوي الحبر الذي كتبت به لأنها لن تثبت طويلاً أمام الحقائق . وأمام المناهج العلمية الأصيلة .

والاسلام في مقارنات الاديان يختلف عن الاديان جميعاً : الأرضية والمنزلة بأنه الدين الاخير . والدين الكامل . والدين الذي ظلت أصوله ومصادره ثابتة موثقة لم يتطرق اليها تحريف . او زيف . او تغيير ، وما تزال تهدي البشرية . وستظل تهديها أبد الآبدين .

(٣)

ومفهوم الدين كما يقرره الاسلام انه دين واحد منذ آدم الى محمد ، واحد المصدر ، لأنه من عند الله . وواحد الاصل لأنه قائم على التوحيد . وكل ما اختلفت فيه الاديان . انما كان نتيجة ان هذه الاديان كانت مرتبطة بأمم بعينها. فلم يكن الدين عاماً كما جاء في الاسلام خاتم الأديان، ولأنها كانت تتوخى ارتقاء البشرية حلقة بعد حلقة حتى جاءت الموسوية لبني اسرائيل . وتبع موسى عدد من الرسل أرسلوا لبني اسرائيل ايضاً . كان خاتمهم عيسى عليه السلام . ثم بعث محمد ﷺ في العرب . وأرسل الى العالمين . وكان العرب هم حملة لوائه الى البشرية كلها . وكان بذلك ديناً عاماً خاتماً . ولقد بقيت في الساحة من الاديان السماوية : اليهودية . والمسيحية . والاسلام ، وما تزال الى اليوم . وكلها في الاصل تبدأ من ابراهيم عليه السلام ، وتنتهي الى محمد عليه السلام . وقد بدأت في آل ابراهيم وابنيه اسماعيل واسحاق ، فامتدت بالتوحيد فيها . ثم تحولت بتفسيرات الاحبار من الحنيفية الى العنصرية ، فلما جاءت رسالة عيسى عليه السلام تحولت من دين معدل لشريعة موسى ، ومكمل لرسالته الى دين عالمي يقوم على مفهوم التثليث والخطيئة والصلب . وجاء الاسلام ليرد البشرية الى التوحيد الحق . وإلى الإله الواحد الاحد ، الذي لا شريك له .

(٤)

ولقد تعددت مذاهب تفسير الاديان . بين تفسير سيكولوجي، وفلسفي، وتاريخي ، وتعددت النظريات والمناهج بتعدد الاهواء والغايات . وأصدق تفسير للاسلام ، وفهم له في مجال المقارنة هو أنه من عند الله ، وهو دين التوحيد الذي ثبتت نصوصه ؛ ولم تتطور في اصولها لأنها من منطلق الفطرة .

« **فطرة الله التي فطر الناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلاً**» ولن تجد لسنة الله تغييراً .

جاء الاسلام مطابقاً للاديان السماوية في أصولها . ومكملاً لهـــا ومتمماً « ارتقاءً او تقدماً على ما سبقه من رسالات إلهية . وإن اتفق معها في جوهر الرسالة » .

وأبرز ما أضافه الاسلام الاخوة العالمية وإتمام الاخلاق . وجعل اخوته العالمية قائمة على اساس القانون الاخلاقي العام الواحد .

واذا كانت هناك مقارنة واضحة بين الاسلام والاديان . فانهناك مقارنة بين الاسلام والفكر البشري ، وقد كشف الاسلام عنذاتيته الخاصة المستمدة من القرآن والتي تحمل طابع التوحيد في مواجهة الاديان والفكر البشري . وأكد انه من الصعب العسير انصهار الإسلام وذوبانه في بوتقة أيفكر مستمد من مفاهيم وقيم تختلف اختلافاً واضحاً وعميقاً عن اصوله ومصادره .

وان الاسلام عمد الى بناء شخصية جديدة مختلفة تمام الاختلاف عن الشخصية التي عرفها العالم قبله من خلال مفهوم التفســـيرات المنحرفة الى العنصرية . او التعدد او عزل الاخلاق عن الشريعة او العقيدة عن الاخلاق . وأبرز ما يتسم به الاسلام هو إلغاء الوساطة بين الله والانسان . واحكام الفوارق بين الالوهية والنبوة . وتكريم الانسان في وجه العبودية والوثنية والتبعية . ومن هنا يبدو الاسلام والفكر البشري كله عاجز عن تلقيحه او اخضاعه ، وتنكشف اصالة الاسلام في انه يرفض كل عنصر غريب عليه .

(٥)

ومن الحق ان يقال ان نقطة الالتقاء والاختلاف بين الاسلام والاديان

الاخرى ، انه دين كامل جامع بين شطري الحياة ، وأنه ليس ديناً لاهوتياً خالصاً او تعبدياً فحسب بل هو دين ومنهج حياة ، وعبادة وشريعة وأخلاق.

من خلال هذه النقطة بالذات ينحرف موقف كتاب الغرب عن وجهة النظر الصحيحة في فهم الاديان ، ويختلف موقفنا عن موقف كتاب الغرب .

ذلك أن هذه النظرة المتكاملة للكون والحياة والمجتمع تؤثر تأثيراً بعيداً في مفاهيم الحضارة والنظم والمناهج . وتفترق افتراقاً بعيداً عن نظرة الاديان.

ولكن ما هو الاسلام الذي هو موضع المقارنة مع الاديان الاخرى، وهي موضع التحدي والخطر في كل أوجه الصراع الذي تقوم به الثقافات الغربية، ودعوات التغريب والغزو الثقافي في محاولة قصر الاسلام على أن يكون ديناً لاهوتياً تعبدياً منفصلاً عن جانبه التشريعي والاخلاقي الذي يحتضن نظام المجتمع كله . ويضبطه بقواعد أساسية كاملة .

ولقد تشكل مزاج المسلمين وتشكلت وحدتهم منذ اربعة عشر قرناً على هذا المفهوم وهذه القيم ، وإن اختلفت قومياتهم ووطنياتهم وارتباطاتهم بالارض والامم . ومن العسير إخراجهم من هـــذا المفهوم المتكامل ، وكل المحاولات التي تجري لذلك هي بمثابة تأويل باطل يريد ان يضرب الاسلام بما ضربت به الاديان الاخرى التي انحرفت عن أصولها الربانية المنزلة بالوحي بغية إرضاء هوى النفس البشرية المتطلعة الى التحـــريف بالزيادة او النقص لتحقيق مطامعها ولذاتها . وللخروج عن الضوابط التي قررها الاسلام استكمالاً للشخصية . ورفعاً لها عن الهبوط والانحدار في مهواة التحطم والانهيار .

وهذا الفارق الواضح هو سرّ ما يحاول بعض المتصلين بدراسات مقارنات الاديان إبرازه على أنه من مغامز الاسلام ، والواقع أن الاسلام ، هو صاحب الأفق الرحيب الذي يضم المادة والروح والدنيا والآخرة والدين والعلم والقلب

والعقل . فكيف يوصف بالنقص . بينما تلك الاديان والمذاهب هي التي تقوم على أساس الانشطار .

كذلك يمكن ان يوصف الاسلام في نفس دعاة التجزئة والانشطار القائمين على مفهوم المادة والدين والعلم والعقل في كيان واحد منفصل عن جذور الطبيعة البشرية ، وفطرة الوجود الانساني المتكامل، يمكن أن يوصف الاسلام على اختلافهم بالازدواجية ومن الحق أنها ليست ازدواجية ، لأن شرط الازدواجية هو التعارض والتصادم ولكن هـذا المفهوم المتكامل ، انما يمثل التداخل الطبيعي بين شطري الانسان والالتقاء الصريح بين عنصري التكوين البشري الذي أعطى الغرب أزمة التمزق والقلق والصراع النفسي الاجتماعي الذي يجتاح هذه المجتمعات اليوم ويسحقها بقوة .

ولقد حاولت بعض النظريات الوافدة ان تضرب في جدار الفكر الاسلامي القوي بغية إحداث صدع فيـه تحقيق لأهدافها في تمزيق الوحدة . وإقامة مفهوم الانشطارية الذي يحقق للاستعمار والتغريب والغزو الثقافي غايته من احتواء الاسلام وإذابته في بريق المادية الوثنية العالمية . غير أن الاسلام بطبيعة تركيبه وعمق تجربته ومواجهته للأخطار . والفكر البشري كان قادراً للمقاومة فلم يستسلم أبداً في الماضي . ولن يستسلم أبداً في مستقبله الطويل للنظريات الدخيلة . او الفلسفات الوافدة . وهو قادر على ان يأخذ ويعطي ويرد ما لا يتناسب مع طبيعته وتركيبه ومزاجه .

وقد ظل الفكر الاسلامي انطلاقاً من طبيعته ومضمونه القائم على التوحيد الخالص يواجـه النظريات . ويدلي برأيه فيها ، ولا يتوقف عن النظر المنصف ولا يتقبل كل شيء وهو بسماحه وانفتاحه على الثقافات والفكر العالمي قادر على عملية الأخذ والعطاء على قاعدته ، ودون ان يخرج عن مقوماته .

فالاسلام يلتقي مع الاديان في المعاني العليا الانسانية المشتركة . ويختلف في انفصالية نظام المجتمع عن العبادة ، وفي انفصال الشريعة عن العقيدة ، وفي انفصال الاخلاق عن المنهج الاجتماعي كله ، وهو مع أنه دين الفطرة . فهو دين العقل ، وهو بطبيعته دين واقعي ، يساير تطور الأزمنة ، ويهدف الى تقدم الانسان .

وأبرز معطيات الاسلام هي قدرته على علاج القضايا الكبرى ، والمعضلات البشرية في يسر وبساطة . جامعاً بين الجوانب الروحية والمادية في حياة الانسان ، رابطاً بين العلم والعقيدة في حياة الفكر ، واصلا بين المجتمع والاخلاق في مجال السلوك .

(٦)

إن كلمة الدين نفسها في الفهم الغربي . لا تعني نفس المعنى في الفهم الاسلامي . فإن كلمة (Religon) تعني: نظام كهنوتي فيه الراهب والاعتراف . وسيطرة الانسان على أخيه . وتحكمه في غفران ذنبه ، وقبول توبته و (رليجوزنتي) تعني استسلاماً كاملا بهذا النوع من العبودية ، واشتراكاً في العبادة نفسها بالله عن طريق الامتثال لكل ما يأمر به رئيس الديانة أو ينهى[١] .

وان هذا الفهم الغربي لمدلول الدين . انما جاء طبقاً للمحتويات التي كذبتها الظروف المسيحية الاولى . والتي كان الاسلام ثورة عليها ، وإصلاحاً لها . وقد كان لهذا المفهوم أثر متناقض في نفوس الغربيين . منذ بداية الاصلاح الديني البروتستانتي . ثم أثر خطير منذ أن طغى رجال الدين على أهل الدين ،

---

(١) علال الفاسي : دعوة الحق . يونيه سنة ١٩٦٨ .

وأصبحوا يمنعونهم من الدراسة ومن المعرفة . ونشأ عن ذلك أن أحس المجتمع بضرورة التحرر من الدين بالمعنى الغربي . أي بالثورة على الكنيسة وتحكم الرهبان ، والتحرر من الارستقراطية الاقطاعية .

أما عندنا فقد نسبنا مدلول الدين بالمعنى الاسلامي هو مجـــرد تشريع . وملأنا الكلمة بما تدل عليه الرحمة الغربية . فأصبحنا بطبيعة الحال نفهم معنى الدين بما تحتويه كلمة رليجون . وأصبحنا نفكر في أمر الدين بما يفكر به الغرب . وما نقرأه من آدابه الموجهة قبل كل شيء لنقد مجتمع مبني على تحكم الكنيسة . وصعوبة الطلاق ولو في حالات تلبس أحد الزوجين بالزنا . وقيام ارستقراطية اقطاعية يحميها رجال الكنيسة وتستعبد بها الشعوب . ونشأت من هذا مشكلة فصل الدين عن الدولة .

فالدين بالمعنى الغربي لا وجود له في بلادنا ولا فكرنا ، فالدولة والدين شيء واحد . ولا بد للدولة ان تقوم على عقيدة او خلق ، ولا بد أن تكون حامية لقانون . وهي المسؤولة عن إيجاده ان لم يكن موجوداً .

« والدولة الاسلامية ليست دولة اكليريلكية كهنوتية بالمعنى الذي يفهمه الغرب » ولا ريب أن عدم إدراك هذا الفرق بين مدلول الدين عند المسيحية وعند المسلمين كان عظيم الخطر في تضليل الكثيرين من العرب الذين تعلموا تعليماً غربياً دون أن يحصلوا بجانبه على دراسة صحيحة تمكنهم من معرفة الاسلام على حقيقته ، ولما كانت الكلمات اللغوية التي تلبس في المعاني الحية التي يلبسها الناس لها بالاستعمال كل يوم . فان كلمة الدين لم تعش في ذهن هذه الطبقة من المثقفين إلا بمدلولها الغربي ، وقد ضل الكماليون في فهم الاسلام فسلكوه مسلك الدين المسيحي ، وأصدروا حكماً واحداً عليهما . وان الحملة التي يواجهها الاسلام من أعدائه . انما هي أثر من آثار الهجوم العنيف الذي وجه

ضد الأديان من طرف الماديين . ولقد كانت المسيحية هي السيف المباشر . والهدف الأصيل الذي وجه اليه الهجوم .

ومن هنا وتأسيساً على ذلك يبدو واضحاً خطر الاتجاه الغربي الذي يحاول إخضاع نصوص القرآن والشريعة لانماط الغرب . وتحويل كلمات اللغة العربية ومصطلحاتها من ملابساتها الفكرية التي ترمي اليها أصلاً الى غيرها .

٢

تعريف بالإسلام

الإسلام منهج وليس نظرية : منهج متكامل يستهدف تحقيق بناء المجتمع الرباني في الأرض . ولذلك عني الاسلام بوضع تعاليم جامعـــة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية . أفرغت في صيغة كليـــة . وأصول عامة . وبذلك أتيح لها صفة الخلود والبقاء . وهي تعاليم لها صفة التكامل والشمول والترابط .

وقد عني الاسلام بأن يكون منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك عمد الى:

أولاً : تحرير الفكر من الوثنيات والمادة .

ثانياً : تحرير الانسان من العبودية .

ثالثاً : تحرير البشرية من قيود العنصرية والمادية والاباحية .

والقيم الأساسية للاسلام واسعة الأفق ، مرنة الأبعاد ، قابلة لكل تجديد في سبيل الرقي والتقدم والبناء ، فضلاً عن ذلك . فان الجمود والتعصب ليس من مظاهرها . أو شاراتها . والاسلام نظام يشبع النفس البشرية ، ويعطيها

حاجاتها الروحية والمادية . يلتقي فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وليس الاسلام نظرية فلسفية ، ولا مذهباً صوفياً ، ولكنه نهج في الحياة يلتقي مع نواميس الطبيعة ، وأصول الفطـــرة التي فطر الله الناس عليها . ويلتقي الى ذلك الوجدان والعقل والعلم .

وقد طبع الاسلام حياة معتنقيه . والعرب الذين حملوا لواءه . وما يزال يطبعها . وسيظل يطبعها ، ولذلك فان أي حركة فكرية . أو نهضة اجتماعية لا تستطيع ان تتجاهل هذه الحقيقة ، ولا تخرج عن هذا الواقع . ولا ريب أن الاسلام نهج اجتماعي يشمل الانسانية كلها ، وحركة اجتماعية كان الدين جانباً من جوانبها ، وقد صنع الاسلام المجتمع الاسلامي منذ اللبنة الأولى ، وأقام الحضارة الاسلامية منذ نقطة البداية .

والاسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية ، وليس عقيدة روحية تتصل بالرؤيا والمعجزات والخوارق ، ولا صلة لها بالمادة والحياة . وإنما الاسلام عقيدة ترتكز على الروح والمادة معاً .

وقد أكد الباحثون أن الاسلام لا يسقط أمام الغزو التبشيري الغربي . لأن المسلم لا يمكن ان يكون نصرانياً او يهودياً ، والاسلام نصرانية وزيادة ، وإذا كانت المسيحية ديناً . فالاسلام دين وشرع ، واذا كانت المسيحية تعطي ما لقيصر لقيصر . وما لله فان الاسلام يجعل الأمر كله لله . وفي الاسلام قدرة الامتصاص ومرونة التشكل لتلقي كل منجزات العصر الحديث . ولا يقف عقبة في سبيل حرية الفكر . كما أثبت صلاحيته منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس . فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات ودرجات المدنية ، وهو دين فطرة استطاع أن يمنح أهله تلك القوة التي هزمت كل القوى ، والتي حاولت تحطيمه فصهرها في بوتقة أو سحقها وأفناها . وقد حل الاسلام المشكلتين اللتين تشغلان الفكر الغربي : الاخوة الانسانية والعدل الاجتماعي .

وقد حفظ الاسلام من الانهيار والتفكك ، بقاء القرآن الكريم بعيداً عن كل الأخطار سليماً لم يمسه سوء ، ولقد طبع الاسلام حياة العرب ، وسيظل يطبعها . وان العربي مسلماً كان أو مسيحياً تربطه بالاسلام والعروبة . اللغة والفكر المشترك الجامع والأخلاق ، فقد وحّد الاسـلام الثقافة التي تربط العناصر المختلفة التي استظلت بظله ، ولو كانوا غير مسلمين ديناً . والاسلام جعل من المسلم ذاتية لها كرامتها وعزتها ، فالمسلم لا يندفع مع التيار ، ولا يساير الركب . بل خلق متميزاً بالربانية في الوحي والانسانية في الهدف وقد اتسم الاسلام بالبساطة والوضوح . وأعطى حلولاً لكل مشاكل الانسان والمجتمع وهي حلول ثابتة الجوهر والهدف متغيرة الصورة والوسيلة . والاسلام لم يفرض الحلول والقواعد مسبقاً ولم يطبقها بالقسر والإكراه .

وقد اكتملت أصول الاسلام في حياة الرسول . ولم تجر إضافة أي شيء اليها بعد، وليس في الاسلام سرّ ولا تناقض ولا ما يصدم الفكر أو يتعارض مع العقل .

ومن أبرز مظاهر الاسلام قدرته على التجدد من الداخل ومرونته في إعادة صياغة نفسه . وكشف الأغشية التي تحاول إخفاء جوهره .

•

وكان الاسلام وسيظل حركة تحرر في مواجهة الاستعمار . وحركة عدل اجتماعي في مواجهة الاقطاع، وحركة شورى في مواجهة الاستبداد، وحركة أخوة في مواجهة التفرقة العنصرية ، وجعل من أسسه مرونة التطور بتطور العصور والأزمنة . ومراعاة الملابسات . وظروف الجماعات المتغيرة . وذلك دون أن يخرج على أسسه الثابتة ، ويرد ذلك الى سعة أطره ، ومرونة ابعاده القادرة على الاستيعاب .

وقد فرق الاسلام بين المعرفة والعقيدة ، وفرق بين العلم والفلسفة .

وجمع بين العقل والقلب ، كما جمع بين الدين والعلم ، واعتبر أن المعرفة الانسانية عامة، والعقائد خاصة لكل أمة عقيدتها ، كما فرق بين العلم النافع، والعلم الذي لا ينفع، والعقيدة الاسلامية القائمة على التوحيد . جنبت المعارف الاسلامية الانقسام الى دينية وعقلية . وليس الاسـلام خادماً للمجتمعات والدعوات والمذاهب . بل هو حاكم له مقوماته المستقلة التي لا تخضع ، وهو ليس مبرراً للحضارات وله ذاتيته الخاصة ، ومقاييسه الذاتية ، وهو لا يقر التأويل في الأصول العامة . كالربا والزنا والخمر والقتل .

والاسلام عقيدة تقدمية لا بوصفه مؤيداً للنظريات والأيديولوجيات . بل لأنه أول من دفع الانسان الى الأمام ، وحرره من العبودية والرق والوثنية والمادية والشرك بالله .

ولا ريب أن رابطة المسلمين اليوم هي القرآن . فالمصحف وحـده هو الدلالة الوحيدة الجامعة لوحدة المسلمين ، وأن مرشد المسلمين اليوم وإمامهم هو القرآن وحده .

وصدق (بارتلمي سانهلير) حيث يقول : ما تزال تعاليم القرآن التي رقت عقول الملايين من الناس ترقي كل يوم شعوباً متأخرة باشرابها الحقائق الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية .

•

ولقد كان الاسلام هو الدين الوحيد ـ على حد تعبير برناردشو الذي لديه ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة . والذي يستطيع لذلك أن يجذب اليه كل جيل من الناس .

ويتنبأ رينان بعودة الاسلام فيقول : ما يدرينا أن يعود العقل الاسلامي الولود والكثير المواهب الى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة .

ولا ريب أن في عمق جذور الاسلام في البيئة والحضارة ما يجعله قادراً على التحرك في مجال التقدم دون أن يفقد الصلة بأصوله . ودون ان يفقـــد أصحابه أصول عقيدتهم .

وقد أعطى الاسلام حقاً مزية «الوسطية» حتى أن باحثاً مثل (جب) يؤمن بأن الاسلام ما تزال له رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء حيث يقف وسطاً بين الشرق والغرب . وأنه أثبت اكثر من أي نظام سواه مقدرة على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة ، فاذا لم يكن بد من وسيط يسوي بين الشرق والغرب من نزاع وخصام . فهذا الوسيط هو الإسلام .

ولا ريب أن الدين عند المسلمين عنصر جذري لا سبيـــل لانفصاله عن حياتهم ومجتمعاتهم . وهو حقيقة واقعة ، وجزء متمم لحياتهم اليومية ، وهو على حد تعبير العلامة (تريتون) ليس رداء يرتديه العلماء . ومن ثم فهو يجعل المسلمين اذا وقعت الواقعةوادلهم ليلالخطوب يجعلهم ثابتي الايمان لا تزعزعهم العواصف والأنواء .

ولقد أكد الباحثون أن الفكر الاسلامي أشد إيغالاً في الواقع من الفكر الغربي . وأن الشريعة الاسلامية تتناول شؤون الحياة اليومية ، ولا تقتصر على مسائل العبادات والأخلاق كما في الشرائع الاخرى .

ومن هنا فإن علمية « علم الأديان » لا تستطيع أن تعالج الإسلام كبقية الأديان دون اعتبار أن هذا الدين هو دين الله ، أي فوق الحقائق الطبيعية والاجتماعية والعلمية ، فهو ليس من صنع البشر ، ولا شك أن الإســـلام دين الله ، ولكنه ايضاً دين الفطرة والنظر يتوصل الانسان اليه ارتقاء اذا حكم عقله لا اذا أغفله[1].

●

---

(١) من بحث للدكتور الفاروقي .

ولا ريب أن الاسلام كما وصفه المنصفون يصنع الرجل المثالي الذي لا يقهر ولا يغلب وسرّ قوة هذا الرجل هو أنه يؤمن بالله واحداً لا شريك له ، وأن الأمر كله بيده، ومن شأن هذا الإيمان أن هذا الرجل إذا نودي للقتال لا يهاب الموت لأنه يعتقد أنه يقاتل في سبيل الله . والحق أن الإسلام يربأ بكرامة الانسان من أن تخضع لسلطان غير الخالق ويأنف من أن يكون عبداً لإنسان.

ولقد حرص الاسلام على دعوة المسلم الى التمرد على كل عبودية لغير الله ، وأن يبدأ من الاحساس بأنه أقل مما سواه ، وأن يرتفع عن الخضوع لغير الله حيث لا فرق بين الغني والفقير . والكبير والصغير . والأسود والأبيض إلا بالتقوى .

الباب الأول

العالم والإسلام

الفصل الاول : اليهودية

الفصل الثاني : المجوسية

الفصل الثالث : البرهمية والبوذية

الفصل الرابع : الهلينية

الفصل الخامس : الامبراطورية الرومانية

الفصل السادس : المسيحية والغرب

الفصل السابع : الفرعونية

الفصل الثامن : الوثنية العربية

الفصل الأول

اليهــودية

عندما نزل الاسلام على محمد بن عبد الله في مكة كان ذلك إيذاناً بختام رسالات السماء التي اتصلت منذ خلق « آدم » والتي كانت أرض الشرق مهبطاً لوحيها . وعندما نزل الاسلام كانت رسالة موسى ، ورسالة عيسى . وهما اللتان سبقتا الاسلام لا تزالان قائمتين ولها أتباعها المبثوثون في أجزاء كبيرة من الأرض . ولم يكد شعاع الإسلام أن ينطلق حتى بدأ حوار واسع بينه وبين اتباع الأديان القائمة . ومنها ما هو وضعي أرضي . ومنها ما هو سماوي منزل . وإن كان قد أصاب تفسيره شيئاً من التحريف .

وكانت رسالة موسى قد أطلق أتباعها عليها اسم اليهودية، كما أطلق اتباع رسالة عيسى عليها اسم المسيحية . أما اليهودية فقد كانت ديناً خاصاً مغلقاً على أصحابه . وأما المسيحية فقد انطلقت من موطنها في بيت المقدس فعبرت الى أوروبا واستطاعت ان تغزو عالم الغرب وترتبط بالدولة الرومانية (الغربية والشرقية) وأن تصبغ المجتمع بصبغتها . وتقيم إطاراً دينياً للفكر اليوناني

والقانون الروماني . وكانت الامبراطورية الرومانية قد أقامت خلال ألف عام تلك الدولة الواسعة الضخمة . وسيطرت على الشام ومصر والمغرب كله . وفي الشرق كانت دولة الأكاسرة في فارس تقيم دولتها التي تدين بالمجوسية من بقايا دين زرادشت .

وقد كان الصراع العسكري والفكري بين الامبراطوريتين الرومانية والفارسية كبيراً . وقد اضطرمت الحروب والمنافسات بين الدولة الوثنية في الشرق . والدولة ذات الطابع المسيحي في الغرب . أما الجزيرة العربية . فقد عاشت منطوية على نفسها . لا تتصل بها الأحداث إلا قليلا ، حيث غمرتها وثنية غير عميقة الجذور ، وعايشت في إطارها من اعتنقوا المسيحية واليهودية . بعد أن بعد بها العهد برسالة ابراهيم وإسماعيل من خلال تاريخ طويل بدأ منذ أكثر من ألفي عام حين مستتها رسالة التوحيد وانطلقت فيها صيحة الحنيفية السمحاء حتى جاءت رسالة محمد بن عبد الله مجددة لدين ابراهيم . وخاتمة لكلمة السماء في الارض .

●

التوحيد هو دعوة الدين الحق المنزل من لدن الله سبحانه وتعالى الى جميع أنبيائه ورسله . وهو دعوة ابراهيم الى الأنبياء . وأمانته الى اسماعيل وإسحاق جدي المسلمين والنصارى واليهود أما اسماعيل فقد شارك أباه ابراهيم في إقامة القواعد من البيت في مكة . وبها أقام ومن ذريته العرب العاربة . ومن نسله محمد بن عبد الله خاتم الانبياء والمرسلين . وأما اسحاق فهو جد بني اسرائيل .

وقد أشار القرآن الى أبوة ابراهيم للعرب : « **ما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا** » (سورة الحج) .

كما سجل القرآن أبوة ابراهيم للأنبياء الذين جاءوا بعده : « **ووهبنا له اسحاق ويعقوب وكلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين** » .

ومن هذا النص القرآني يتبين أن ابراهيم هو جدّ اليهـود والنصارى والمسلمين . وأن أنبياء الله الثلاثة يلتقون في النسب . فهم من أرومة واحدة، ويسعون الى غاية واحدة . وأنهم جميعاً ومن آمن معهم هم الذين أورثوا هذه الأرض من بابل الى كنعان الى مصر الى الحجاز . وليس هذا الملك قاصراً على شعب معين له امتياز خاص . وإن وعد الله لابراهيم قد تحقق بتمام رسالة الانبياء (من ابراهيم الى محمد) وتجمع المصادر الصحيحة ويؤيدها مقدمتها القرآن الى أن ابراهيم نشأ في أرض بابل (بلدة أور الكلدانية) بين نهري دجلة والفرات . حيث كانت الهياكل والتماثيل . وعبادة الاصنام والآلهـة المتعددة . وأنه دعا قومه الى التحرر من الوثنية والاساطير وعبـادة الله الواحد . ثم لم يلبث أن تحرك في إطار الدعوة الى حران حيث تزوج ابنة عمه سارة . ثم توجه الى الشام التي كان يطلق عليها أرض كنعان . ثم نزح الى مصر، فتزوج هاجر الجارية، ثم عاد الى فلسطين . ومنها رزق بإسماعيل، ولم يلبث أن هاجر بإسماعيل وزوجه هاجر الى وادي مكة « **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** » .

ولم يقم ابراهيم في مكة ، وإنما ظل يتردد عليها حتى كبر ابنه اسماعيل، فأقاما معاً قواعد البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً « **وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا** » .

وهكذا جمع ابراهيم عليه السلام بين فرعين :

فرع اسحاق في الشام ، ومنه ابنه يعقوب الذي يلقب بإسرائيل ، وإليه ينتسب سائر أسباط بني إسرائيل ، وقد أنزل الله فيهم التوراة على موسى ، وكان منهم أنبياء كثيرون . وكان آخر أنبياء بني اسرائيل السيد المسيح عيسى ابن مريم ، وآخر الرسالات الموجهة اليهم هي دينه وكتابه الإنجيل .

وفرع اسماعيل في مكة حيث أقام مع أمه ، وأقام الى جوارهم قوم من قبيلة جرهم ، ويرجع نسب عرب الحجاز الى ولدي اسماعيل : نابت ، وقيذار[1] وإسماعيل هو جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذبيح الذي قص القرآن قصته .

ويظهر الترابط واضحاً بين ابراهيم عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام في أن الاسلام هو تجديد دعوة ابراهيم الحنيفية السمحاء ، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو دعوة ابراهيم وبشارة عيسى ، بنصّ قول النبي . كما رواه أحمد في مسنده : أنا دعوة ابراهيم ، وبشارة عيسى . وقد أكد القرآن هـــذا الترابط بين أبي الأنبياء وخاتم الأنبياء فيما رواه عن دعوة ابراهيم ، وهو يقيم قواعد الكعبة « **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم** » وقد وقع في هذه الحقائق تغيير كثير ، وخلاف كثير بين نصوص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبين نصوص العهد القديم الذي ليس هو التوراة المنزلة بإجماع آراء الباحثين والمؤرخين من اليهود والغربيين أنفسهم .

وقد وقع الاختلاف في موقف ابراهيم عليه السلام بالذات ، وما يتصل بفرع اسماعيل كله ، وما يتصل برحلته الى مكة ، ووجود اسماعيل ، وبناء الكعبة ،

---

(١) البداية والنهاية جزء ١ ، وتاريخ الطبري جزء ١ .

ويستهدف الاختلاف التركيز على فرع إسحاق وحده ، ومحاولة ربط وعد الله لذرية ابراهيم بالاستخلاف في الارض بعنصر معين، وإعلاء هذا العنصر وحده من دون ذرية ابراهيم في تحريف شديد ، وتجاوز خطير لوقائع التاريخ ، والنصوص الثابتة من رسالات السماء .

وهذا هو أخطر ما أصاب رسالة موسى بإقامة ديانة عنصرية ، زيفت الأصول الاصيلة المنزلة للدين ، والمرتبطة بمفهوم التوحيد الجامع المتصل بين الناس جميعاً ، والقائم على الايمان بالله وحده ، وليس على تمييز جنس معين من الأمم ، والذي يقرر أن وراثة الارض إنما تكون المتقين . هذا التحريف اقتضى تغييراً كبيراً في مفهوم العقيدة ، فأقام الإله يهوه بدلاً من الله الواحد، وزيف التوراة بالنسبة لإبراهيم وأبنائه وبالنسبة لميراث الانبياء من نسل ابراهيم ، كما أنكر الآخرة والبعث ، وعارض كل القيم الاساسية للدين فيما يتعلق بالعدل والإخاء ، وأحل كثيراً مما حرمت رسالة عيسى . كالربا ، والزنا ، وقتل النفس بغير الحق .

وقد أشار القرآن الى أن الله أنزل الى موسى التوراة فيها هدىً ونور، وفيها عقيدة وشريعة ، وفيها البشارة بمحمد ورسالته « **الذين يتبعون النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل** » سورة الأعراف .

وقد انطوت التوراة على الاقرار بوحدانية الله، والاعتراف باليوم الآخر، وما فيه من حساب وثواب وعقاب . وكذلك أشار القرآن الى أن التوراة المتداولة ليست هي التوراة المنزلة ، وأنه قد أصابها التحريف والتعديل .

وترتبط في مفهوم القرآن رسالات الانبياء الى البشرية توصف بأنها رسالة واحدة . هي الاسلام، وتتميز الحلقة الاخيرة فيها من ابراهيم الى محمد بطابع خاص ، وتكامل واضح فقد ألقت على هذه الارض العربية أمانة كبرى ،

وشكلت منهجاً متميزاً يمكن أن يطلق عليه اسم «الحنيفية» التي هي العامل الجامع لكل ما عرف قبل الاسلام من خلق كريم وأريحية ومروءة وصفت حيناً بأنها العروبة ، وليست هي في الحقيقة إلا عصارة دين التوحيد الذي جاء به كل الانبياء منذ ابراهيم الى محمد . والذي وصفه النبي ﷺ في قوله: « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » . فكان النبي بالإسلام تماماً لها ، وتحريراً لقيمها من الانحراف الذي طرأ عليها خلال العصور المختلفة .

ولا ريب أن أي مراجعة سريعة للوثنية العربية قبل بعثة خاتم الانبياء تكشف عن أنها كانت وثنية ساذجة ليست عميقة الجذور ، وأنها لم تكن كمثيلاتها من وثنيات اليونان والفرس والهند ، ذات فلسفة وطقوس عميقة ، وإنما كانت انحرافاً لدعوة التوحيد التي جاء بها ابراهيم واسماعيل ، والتي ظلت ترفع لواءها على يد جميع الانبياء من أبنائه حتى جاء القرآن : مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

(٢)

عجزت اليهودية بالصورة التي تحولت اليها عن أن تعطي البشرية هداها ، وقد توالى الأنبياء لتحريرها وتصحيحها خلال عصـــور طويلة ، حتى كانت رسالة السيد المسيح هي خاتم حلقات الرسالات الموجهة الى بني اسرائيل .

وواجه اليهود خلال ذلك التاريخ الطويل من موسى الى عيسى أهوالاً وأحداثاً ضخاماً وأصاب عنصرهم تغيير كبير ، ودخلت اليهم دماء غريبة حتى أصبحوا لا علاقة لهم بنسب إسحاق، أو دين موسى . وانحرفت اليهودية الى المادية الطاغية ، وكان لاتصالهم بالأمم أثر كبير في تغير أصول الدين ، فقد تأثر اليهود في المنفى في بابل بعــــد عام ٥٨٦ ق ـ م « بالتفكير البابلي القديم، وعلى الأخص في التخطيط لجوانب الدين اليهودي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية » وتحول الدين العبري الى الدين اليهودي ، وأدخــــل السحر والتنجيم والأساطير الغريبة في كتب العبادة (الكابالا) فأصبحوا ينكرون كل ما هو روحي ومعنوي في الحيـــــاة ، وغلبت على مفاهيمهم روح الغلو والتحدي والخيلاء .

ومن هنا فقد عجزت اليهودية لمعارضتها للفطرة أن تجد قبولها عند أحد من الأمم التي اتصلت بها ، وقد حاولت أن تبث دعوتها في أوروبا وآسيا وحتى في إفريقيا . ولكنها وجدت رفضاً كاملاً لما حوته مفاهيمها من أنانية

واستعلاء بالجنس،واتخاذ إله الحرب والجنود لها إلهاً . وإنكار الحياة الآخرة، وتفضيل بني اسرائيل على جميع الخلق ، وأن بينهم وبين الله عقداً مبرماً ، وأن الله خلق لهم هذا الكون وحدهم ، أما بقية الشعوب فهم لهم عبيد يضاف الى ذلك اتجاههم الخطير الى الربا . وإسرافهم في السيطرة على الشعوب بالمال ، وتحويل مختلف مناهج الحياة لتكون في خدمة هذا الهدف ومن هنا عجزت اليهودية أن تعطي البشرية شيئاً يدفعها في طريق الحق والإيمان، وإن أعطتها تلك المفاهيم القائمة على الأساطير والخرافات والسحر ، والتي هي تراثها المتصل على الأجيال .

ومن خلال هذه المفاهيم العنصرية التي عارضت اتجاه الحنيفية الذي جاءت به رسالة ابراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء ، لم تستطع اليهودية أن تستقر في مكان أو تقيم حضارة ، فقد أصابها الاضطهاد في حملات متوالية ، حيث غزاهم بختنصر (٥٨٨) ق.م ودمرهم تدميراً، وساق أهلها أسارى الى بابل . حيث أقاموا في الأسر زهاء خمسين سنة ، وغزاها سرجون ملك أشور (٣٢٢) ق.م وتغلب عليهم وطردهم من سوريا ، وجاء الرومان بقيادة تيطس (٧٠ م) فأحرق معبدهم وأقام هيكلاً وثنياً بديلاً عنه الى أن سيطرت المسيحية بعد ذلك .

وكان إحراق معبد اليهود على يد تيطس وتدميره تحقيقاً لنبوءة السيد المسيح ، ومنذ نكل بهم الرومان ، لم تقم لهم من بعد قائمة .

ولقد ظهر عدد من الأنبياء في بني إسرائيل من بعد موسى ، وكان آخر أنبياء بني اسرائيل : المسيح عيسى بن مريم .

وقد حاول هؤلاء الأنبياء جاهدين تخليص اليهودية من انحرافها وإعادتها الى سيرتها الأولى ، وفق مفاهيم التوراة المنزلة على موسى ، وكان من أبرز أنبيائهم : داود وسليمان .

ولكن أنبياء الله عجزوا عن تحريرهم من الانحراف ، كما لم تلن هـــذه الحادثات الضخام قلوبهم حتى جاء السيد المسيح يحمل آخر رسالات السماء اليهم .

وقد أكد جوستاف لوبون في كتابه عن (اليهود والحضارات الأولى) أن اليهود لم يكن لهم علوم أو فنون ، ولا حق لهم في الأرض التي يحتلونها . فقد كانوا غرباء عن هـــذه الأرض وقد كانت تقاليدهم وعاداتهم ودياناتهم مستعارة ومقتبسة ومسروقة من الدول المجاورة وكانوا الى ذلك وحوشاً قساة . وقد انعكس ذلك على توراتهم حيث تجد فيها جميع أنواع الوحشية والبدائية : وفي سفر يشوع مثال لهم : [أهلكوا جميع ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى الغنم والحمير بحد السيف ، وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها بالنار] بينما نجد العرب كانوا ينفذون وصيـــة أبي بكر : لا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه .

وقد راجع كثير من الباحثين تلك الانحرافات التي جعلتها اليهودية أساساً لها وكشفوا عن زيفها : (يقول الكاتبان الفرنسيان جاك دومال وماري لوروا) بشأن وعد الرب لبني اسرائيل وحدهم بالأرض الموعودة ما يأتي : أنها لو صحت فان هذا الموعد ينصب إذن على ابن ابراهيم الى العرب .

وقد وقف الباحثون في مجال علم الأجناس . فسفهوا أسطورة الشعب المختار . وكشفوا عن هزالها وزيفها في مقياس العلم ، وقالوا ان الشعب الذي ورد ذكره في التوراة على أنه شعب الله المختار لا يمثل الشعب اليهودي ، لا من قريب ولا من بعيد ، وإن وقائع التوراة من سفر الخروج ومروراً بالمزامير والنبوءات تؤكد ذلك ، فالشعب الذي خرج على أنبيائه وكذبهم وتمرد على إلهه ، وجعل من ذلك الإله انساناً يحارب دونه ويكون له ترساً ومحجناً غير خليق أن يكون الشعب المختار .

الفصل الثاني

المجوسية

وبينما كانت اليهودية تضطرب، كانت المجوسية والبوذية والبرهمية في الشرق، وهي ليست من أديان السماء تذهب بعيداً في الخضوع لتراث الوثنية القديم القائم على التعدد والسحر والأساطير والتنجيم والأرقام وعبادة ظواهر الطبيعة، وفي الامبراطورية الفارسية المواجهة للامبراطورية الرومانية. كان يقوم بعد ذلك المجتمع الحافل بالتناقضات القائم على عديد من مذاهب عبادة الشمس والنار والماء، فالشمس هي الإله الأعلى يهبون له الخلع ويقدمون القرابين، والمحافظة على الماء من النجاسة، « فالفرس يقدسون الماء قبل كل شيء الى حدّ أنهم لا يغسلون به وجوههم، ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو ري الزرع »[1].

أما مكانة النار فهي شيء لا حد له، فهي النار المقدسة التي أقيمت لها

---

(١) ايران في عهد الساسانيين : أرثر كريستنس .

المعابد في كل مكان حيث توقد فيها النار ، وتقدم الخدمة المقدسة في الهيكل الذي فيه النار المقدسة، ولبيوت النار أبواب وعدة أبهاء من ثمانية أركان[1] .

وفي مفهوم المجوسية : في المزدية دين الأزديين القديم ، أو في الزردشية المتجددة من المزدية تقوم على عبادة قوى الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية. وقد أضيف الى آلهة الطبيعة آلهة أخرى تمثل قوى أخلاقية وآراء معنوية مجسمـة .

وهناك إله الخير وإله الشر ، وبينهما صراع وتنازع « فهي دين ازدواج تسلم بوجود إلهين ، وبوجود خير وشر ، وطهارة ونجاسة ، والإلهان في تنازع مع بعضهما ، والعناصر يناقض بعضها البعض : «مزدا له الحكم ، ويرمز اليه بالشمس . أما الإله اهريمان غريمه فهو أمير الظلام وموجه الشر[2]» .

« ولما بين الفريقين من الآلهة من تفاوت نمت فكرة الصراع بين الروحين اللذين وجدا منذ خلق العالم الا وهما روح الخير ، وروح الشر ، وهناك ستة آلهة من بين مساعدي مزدا[3]» .

وهناك عبادة ميترا وهي مختلفة عن المزدية ، ومتأثرة كثيراً بعلم النجوم الكلداني الذي ترعرع عند مجوس آسيا الصغرى . وقد حرمت هذه العناصر تلويث العناصر بالدفن وحرق الميت ، هذا من ناحية العقيدة : أما من ناحية نظام المجتمع فهم يبيحون التزوج من أمهاتهم وأخواتهم .

وهناك نظام العبودية وروح القبيلة والهوة التي تفصـل بين الطبقات ،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) العقائد ـ عمر عنايت .

(٣) ارثر كريستنس : ايران في عهد الساسانيين .

فالقوي يظلم الضعيف ، وهم يرتكبون كثيراً من القسوة والوحشية فيما بينهم بالاضافة الى تسلط القواد والحكام .

وقد وصفهم المؤرخون بأنهم « قساة عتاة ، متكبرون بغاة ، يمشون الهوينى بخطى متحيزة ، يدعون لأنفسهم حق الموت والحياة على عبيدهم » هذا بالإضافة الى ترف الولائم ، وإطالة ساعات اللهو ، وقضاء الليالي الطوال في قرع الكؤوس والرقص الفاجر ، هذا بالإضافة الى الصيد واللذات[1] .

وأبرز مظاهر المجتمع الفارسي قبل الاسلام : النظام العبودي ، حيث تقف طبقة الفلاحين والصناع موقف الاحتقار ، وتقوم الارستقراطية الاقطاعية مقصورة على افراد الأسر السبع العظيمة وحيث يورث الأشراف وتورث العبودية .

وقد تطورت المجوسية بعد زرادشت مرتين : بظهور ماني ٢١٦ بعد الميلاد . ومزدك ٤٨٧ بعد الميلاد أيضاً . أما المانوية فقد خلطت بين الزرادشتية والنظرية في مذهب جديد ، وتدعو المانوية الى ترك العمل والزهد والرغبة في ملاذ الحياة ، واستعجال الفناء . أما المزدكية فقد احلت النساء والأموال ، وجعلت الناس شركاء فيها . وأخطر ما في عقائد الفرس أنهم « ينظرون الى ملوكهم ، وكأنهم آلهة اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، وليس للناس معهم حقوق[2] ، ويرى (برون) مؤرخ الأدب الفارسي : أن نظرية الحق الإلهي لم تعتنق بقوة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانيين . فقد كان الأكاسرة

---

(١) ص ٤٩٠ نفس المصدر .

(٢) فجر الاسلام .

يزعمون أن لهم الحق وحدهم. أن يلبسوا تاج الملك بما يجري في عروقهم من دم إلهي . وقد حطم الإسلام حين أقبل نظرية الحق الإلهي ، وحطم نظرية العبودية ، وأطفأ بيوت النار ودمر الدولة الساسانية ، وأزالها من الوجود .

وقد كان لاكتساح الاسكندر الأكبر فارس عام ٣٣١ قبل الميلاد أبعد الأثر في ذلك التزاوج الذي وقع بين الزرادشتية والفلسفة الإغريقية .

وكان لإقامة اليهود في بابل والجزيرة بعد أن طردهم بختنصر أثره البعيد في استشراء علوم التنجيم والسحر والأساطير ، وفي هذه الفترة بدأ اليهود في جمع أحاديثهم وتعاليمهم تحت اسم التلمود .

وقد أشار المؤرخون الى ذلك التزاوج الذي حدث بين الفلسفة الاغريقية والأديان الشرقية حيث التقت آلهة البابلية والإغريق ، وبدأ طابع إغريقي للزرادشتية ، وأقيمت في الشرق تماثيل للآلهة زيوس وأبولون ومترا وهرمس ، وفي نفس الوقت أضيف الى الفلسفة اليونانية عديد من النظريات حول الكيمياء والسحر ، وامتزجت الأساطير الإغريقية والبابلية والإيرانية ، واختفت الصور الأسطورية الشرقية تحت أسماء آلهة يونانية [١] .

---

(١) ارثر كريستنس : ايران في عهد الساسانية .

الفصل الثالث

البرهمية والبوذية

فاذا ذهبنا نلقي نظرة الى الشرق وجدنا البرهمية والبوذية والجينية قائمة في ذلك المنظور المتصل بين الهند وشرق آسيا ، فماذا نجد :

نجد صورة عجيبة مضطربة من الاعتقادات القائمة على تناسخ الأرواح ، ووحدة الوجود والتثليث والتجسد ، نجد البرهمية قديمة تضاهي اليهودية كتبت تعاليمها (الفيدا) قبل المسيح بنحو ألف وخمسمائة سنة ، ونجد البوذية قد ظهرت في الهند مجددة للبرهمية ، فإذا بها تنتشر في سيلان وتصل الى الصين وبورما ، وقد زالت تماماً من الهند .

أما البرهمية : فتقول بثالوث الهنود (برهما ، فشنو ، سيفا) ويعتقد معتنقوها بالتناسخ الذي لا تطهر النفس من آثامها إلا به ،ومن شعارهم الانتحار أي قتل النفس . والخلاف بين البرهمية والبوذية أن الأولى تقوم على اختلاف الطبقات ، وللكهان فيها من الامتيازات ما يعلو بهم عن مرتبة البشر . فجاءت البوذية كاسرة لهذا القيد .

يقول العلامة أبو الحسن الندوي : « أما البرهمية فقد انحرفت انحرافاً شديداً عن جادتها الأولى ، وفقدت بساطتها والاتصال الروحي المباشر بفاطر الكون ، وفقدت قوتها الخلقية ، وتعقدت تعقيداً أفقدها على مر الأيام التوحيد الخالص في العقيدة والعدل في الاجتماع وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بناء ديانة في الباطن وفي واقع الحياة » . وبقيت الديانة البرهمية تفقد قوتها ونفوذها ، وبقي التذمر منها وعدم الثقة بها يزداد ويقوى على مرّ الأيام ، وتجسم هذا التذمر وهذا القلق المتفشي في المجتمع الهندي والتماس العوض عن الديانة الهرمة في شخص (بوذا) ولم يكن ذلك الا في القرن السادس قبل الميلاد . ظهر بوذا بفكرة جديدة أو ديانة جديدة تقوم على تجريد النفس وتهذيبها ، وقمع الشهوات والعطف والمساواة واللهج بالعمل ، وعلى رفض التقليد ، والطقوس ، والتفاوت الطبيعي الذي أصيب به المجتمع الهندي في العهد الأخير ، وانتشرت هذه الفكرة أو الديانة بسرعة ، وشملت الجزء الجنوبي والشرقي من آسيا .

والبوذية ليست ديانة بالمعنى الحرفي لأنها لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون وعن المبدأ والمعاد . ولكن مالبثت هذه الحركة الدينية العظيمة أن انحرفت وهجمت عليها الأوثان والتماثيل والطقوس التي حاربتها البوذية وثارت عليها حتى أصبحت في الزمن القصير ديانة وثنية ، لا تمتاز عن الديانة البرهمية إلا بأسماء الأوثان والتماثيل وعددها ، وأصيبت بالانحطاط في الاخلاق والتعدد في الأخطار والكثرة في المذاهب والفرق .

يقول : ابشورا توبا : لقد قامت في البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط الرباطات الأخوية البوذية ، وظهرت فيها البدع . وتقول (رياس ريفدس) المؤلفة الاوروبية « لقد أظلت الافكار العليلة تعليم بوذا الخلقي حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ـ لقد نشأ مذهب جديد في الديانة ، وازدهر وملك على الناس القلوب . ثم اضمحل ، وخلفه مذهب

آخر وهلم جرّاً . حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة ، وحجبت الجو ، وساد الظلام . وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالبة البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات » « ولم يظهر في العالم البوذي الواسع ، وفي المدة الطويلة التي حكمت فيها البوذية وسادت ، مصلح كبير ينتصر للبوذية الأصلية ، ويحارب البوذية الدخيلة بكل قوته وقدرته ، ويجدد لهذه الديانة العظيمة شبابها الاول ، وبساطتها الضائعة ونقاءها المفقود» .

وهكذا بقيت الديانة البرهمية منكسرة أمام البوذية التي تغلبت عليها حتى جاء (شنكر اجاريه) في القرن المسيحي ، وقام بنشاط عظيم في محاربة البوذية ، ونشر البرهمية حتى تمكن من إجلاء الديانة البوذية عن الهند وتضييق دائرتها ، وإضعاف سلطانها ، حتى ضعفت جداً وبقيت ديانة من الديانات الهندية القديمة الدارسة . استطاع شنكر أن يقصي البوذية عن الحياة ولكنه لم يستطع ، ولعل الأصح انه لم يرد أن يعيد البرهمية الى وضعها الاول ، ويعيد عقيدة التوحيد والاتصال المباشر بفاطر الكون ، ورفض الوسائط بين العبد وربه والعدالة الاجتماعية والمساواة بين الطبقات .

(٢)

وقد صنعت الهندوسية المتجددة من بعد في البرهمية مجتمعاً عجيباً ، يقوم على مفاهيم « الزهادة المفرطة بالصوم ، وأرق الليل وتعذيب النفس » حيث « يعيش الانسان أسير الحرمان ؛ يحمل نفسه ألواناً من البلاء . ويتجنب كثيراً من متاع الحياة » فاذا ارتفع به السن أقام في الغابات لا يقص شعره ، ولا يقلم أظافره[1] ويجلس تحت الشمس المحرقة .

وفي مجمل حياته يقدس البقرة ، ويخضع للنظام الطبقي وسيادة البراهمة ، فالطبقات في الهندوسية ركن أساسي من أركان العقيدة . فالبراهما سادة ، والباقي عبيد ، ولا يصح لطبقات العبيد ان تترقى ليصبح احد فيها برهمياً ، ذلك « أن الطبقة مصدرها العرق وسيادة الجنس أكثر من أي شيء آخر » بل ان البرهمية لم تقنع بأن تضع الجنس والعنصر ركيزة في نظام الطبقات بل أمدته بالنصوص المقدسة التي تقول بأن، الله قد خلق الطبقات على هذا الوضع « ومن ثم يصبح هذا التقسيم أبدياً لا سبيل الى إزالته ولا سبيل لأن يرتفع أي شخص من أي قسم الى قسم أعلى[2] » .

والبرهمي في الفقه الهندوسي اذا ولد وضع في الصف الأول من صفوف

---

(١) برفسور اتربا : ثقافة الهند وحياتها الروحية .
(٢) دكتور احمد شلبي : اديان الهند الكبرى .

الدنيا[١] وكل ما في العـــالم ملك البرهمي ، وللبرهمي حق في كل موجود ، وللبرهمي اذا افتقر أن يملك مال الشورى الذي هو عبد له من غير ان يجازى على ما فعل ، فالعبد وما يملك لسيده ولا يدنس البرهمي بذنب ولو قتل ، ولا يجبى خراج من برهمي . كذلك لا يجوز للشورى أن يجمع ثروات زائدة ، ويجب ان يبقى ابن الطبقة الدنيا ، وتقطع يده اذا علا من هو أعلى منه ، وهي مفاهيم شبيهة بما تقول به اليهودية التلمودية من إعلاء شعب الله المختار . وقد حطم الاسلام حين جاء نظام الطبقات هذا وكان عاملاً منعوامل تغييره في البيئات التي بقي فيها ، وتنكر الهندوسية وربيبتها البرهمية : أي ضوء لسعادة أو لخير في الحياة الدنيا ، وتواجه الحياة في تشاؤم وقلق واحتقار كامل ، يقول الكتاب المقدس (يوجا واستسها) : السعادة لا سبيل لها في هذا العالم ومسرات الحياة ليست إلا خداعاً وأوهاماً ، لا خير في الجسد لأنه محل العاهات ، ولا قيمة للأفراح والثروة والجاه والمُلْك .

وقد جاءت البرهمية منبثقة من الهندوسية في القرن الثامن[٢] قبل الميلاد، وفي نفس إطارها القديم جامعة لعقائد الهند القديمة وعباداتها ، وفي مقدمتها: عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة وعبادة قوى الطبيعة ، وعبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق ، ومن الظواهر المقدسة التي يعبدها الهنود، إله السماء وإله الرعد وإله النار وإله العواصف وإله المطر وإله الرياح .

وتحظى البقرة في الهندوسية والبرهمية بأسمى مكانة « وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها على كـَرّ السنين وتوالي القرون » والتي توصف بأنها أم للانسان .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) شلبي : اديان الهند الكبرى .

وأهم عقائد البرهمية نظام الطبقات : تناسخ الأرواح والتجسد والتثليث ووحدة الوجود . أما التناسخ فيقوم على أساس مجيء النفس الواحدة الى الحياة مرات متعددة حتى تتاح لها الفرصة للتهذيب . أما التجسد فهو إنكار وجود الله والآخرة لأنهما غير محسوسين .

والمعروف أن البراهمة هم الذين وضعوا نظام الطبقات[1]وخصوا أنفسهم بكثير من الامتيازات وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة ، وظهر عسفهم وطغيانهم ، وضج الناس من استبـــداد البراهمة وجورهم . ومن ثم ظهرت دعوات تخفف من قيود البرهمية الهندوسية : وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد ، منها الجينية والبوذية ، وإن كانتا تدوران في فلك الهندوسية ولا تخرجان عنها .

أما الجينية فهي طريقة لتعذيب النفس (وقد انتقلت الى المسيحية من بعد) ويعتبر الانتحار في الجينية غاية كبرى لا تتاح إلا لخاصة الرهبان . والانتحار « معناه قطع الاعمال التي هي مظنة إلحاق الضرر بأي كائن ذي روح » والحياة في نظر الجينية « تعاسة مستمرة وشقاء متصل فظلها زائل والعيش فيها باطل » .

---

(١) نفس المصدر .

(٣)

أما البوذية فقد قامت على تحرير النفس وتهذيبها وقمع الشهوات، ولكنها سرعان ما انحرفت ودخلتها الوثنية والطقوس والتماثيل .

والبوذية نحلة أخلاقية لا تحمل فكرة أو عقيدة عن وجود خالق الكون، ولكنها تحمل طابع الزهد ورفض متاع الحياة ، وغاية الحياة فيها ما يسمونه الزفانا ، وهي الغاية التي ينتهي اليها الانسان بعد خلاصه من كل ألم . وفوزه بالنجاة الحقيقية[1] وتنكر البوذية النفس إنكاراً تاماً كما تنكر كل ما وراء الطبيعـة .

ولكن البوذية لم تلبث أن تحولت في القرن الاول بعد المسيح . وأخذت شكلاً جديداً « فقد تحول[2] بوذا نفسه في المذهب الجديد الى إله خفي ذي أسرار عجيبة . منها أن الإله تجسد لينقذ البشرية بأن يحمـــل عنها عبء خطاياها القديمة ، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة .

وأصبح بوذا نتيجة لهذا رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء الى هذا العالم الأرضي من حين الى آخر متقمصاً جسداً من بني الانسان لينقذ البشرية في

---

(١) غلاب : الفلسفة الشرقية .

(٢) غلاب : الفلسفة الشرقية .

شخصه الذي يسمى في كل مرة بوذا » وتصـــل البوذية الى أعلى درجات الايمان الى مرحلة الزفانا ، والزفانا كلمة غامضة معناها (الإمحاء والسكون والانعدام والانتعاش والراحة) والمقصود الروحي منها أنها حال من فقدان الشعور تتخلص النفس في أثنائه من الاحساس بالألم الذي يسببه لها اتصالها بالأجسام .

ويقول الدكتور شلبي : ان أبرز مفاهيم البوذية : الزفانا . وهي تعني وصول الفرد بقتل الشهوات والرغبات الى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه ، والقضاء على جميع رغباته .

(٤)

وتكشف ديانات الهند ، وفي مقدمتها الهندوكية عن ظـــلم كبير للنفس الانسانية في علاقتها بالحياة ، وفي علاقتها بالمجتمع من حيث الانحراف عن مفهوم الدين الحق . فهذه السلبية الخطيرة في مجال الحياة والعزلة عن الحياة ، والزهد ، والحرمان الذي يدعو الى الصـــوم الدائم ، والجلوس تحت الشمس المحرقة ، ومجافاة سائر الرغائب واللذات ، ومحاربة الملاذ ، وتعذيب النفس . كل هذا بعيد الأثر في بناء المجتمع ، وإقامة عمران الكون على النحو الذي كلفت الاديان به الانسان وحملته أمانته .

ومن الناحية الاخرى ترى ذلك الإذلال البشع والعبودية الشديدة ، حيث نرى طبقة العبيد ، وهي غالبية المجتمع تعمل في خدمة البراهمية السادة ، حيث لا أمل لها في ان تصبح يوماً موضع كرامة او سيـــادة « ليس للفرد أهمية تذكر في الهندوكية ، ويكاد يكون كماً مهملا[1] » بالاضافة الى حرمان الزوجة من الزواج اذا مات زوجها ، وحرق جثمان الميت ، والتسامح الذي يصل الى الرضا بالضيم والذلة . بالاضافة الى الخرافات والسحر والاساطير . وتقديم القرابين للآلهة ، مما واجهه الاسلام عهد ظهوره وحرر منه الملايين .

---

(١) أديان الهند الكبرى .

الفصل الرابع

الهلينيــة

خير صورة يتمثل فيها المجتمع اليوناني الهليني الى ان اجتاحته الامبراطورية الرومانية (١٤٦ ق.م) وهو ما يرسم افلاطون في جمهوريته : مشاعية النساء ـ وسيادة السادة على العبيد . وإقرار المجتمع العبودي القائم على الرق . وإقرار سيادة الطبقة . والدعوة الحارة الى الاباحة . حيث يدعو البنات والبنين ان يتخففوا من ملابسهم . ويجب ألا يشعروا بالخجل الكاذب والسخرية حين يرون الجسم البشري عارياً في مجتمع يعبد الاجساد ، ويقيم تماثيل الآلهة عارية ضخمة من الرخام الناصع البياض في الميادين . ثم هو يترضى هذه الآلهـــة بالخمر والرقص .

ومن رأي افلاطون ان يخلو المجتمع من الزواج الفردي والاسر الخاصة . ويجب ألا يعرف الآباء ابناءهم ، ولا الابناء آباءهم . وعلى المرضى والضعفاء ان يتاح لهم سبيل الموت .

ولقد حرم افلاطون . وأكد ارسطو من بعده على الرقيق حقوق المواطنة

والمساواة . وأن العبد مهما وصل الى مركز السيادة فهو العبد ، ومهما وصل السيد الى موضع الضعف فهو سيد . فالسادة هم السادة ، طائفة مختارة من الناس يتصاهرون فيما بينهم ، ويلدون اطفالهم ليكونوا سادة من بعدهم ، ولم يكن ذلك هو حلم افلاطون ، وإنما كان هو واقع المجتمع اليوناني الهليني نفسه ، المحافظة على سيادة الجنس المختـــار وسلامته ، وحق السيد في استغلال العبيد .

وكان اليونانيون يجعلون من العري شيئاً مثالياً ، ولازماً للجمال ، ولذلك فانهم عروا أبطالهم وعظماءهم وآلهتهم . وهناك أيضاً تأثير الرقص والموسيقى ، فقد كان الاغريقيون يعدون الرقص من إلهياتهم الكبرى . وكانوا يرقصون رجالاً ونساءاً في مجتمعاتهم العامة والخاصة . والمثل الأعلى ـ عندهم ـ هو تمجيد الجسم وإعلاء شأن صاحبه الانسان .

وقد انتشرت فيهم عادة تقديس الابطال ، فكانت كل مدينة ترفع بطلها الخاص . حتى تخلق منه إلهاً او نصف إله ، وتقيم له الاعيـــاد الدينية التي تحوطها القداسة . وتروي القصص التي تجسم المفاخر وتشكلها في طقوس وتحوطها بشيء غير قليل من الاسرار الخفية والمآسي الفاجعة ويقرر الباحثون ان الكهانة ظاهرة غربية لا شرقية وانها تعد مهنة مقدسة . إلا في عهود الوثنية اليونانية . فقد كانت لها معابد ، وكان لمعابدها سدنة وامناء ، وكان المصير لكل معضلة فردية او قومية رهيناً برأي الصوت المتنكر في زوايا الظلام المنشور فوق معابد اليونان[١] .

وصورة المجتمع الهليني الاغريقي كله واضحة في القصة الاغريقية : حتى يقول مفيد الشوباشي ان الشر في تلك الملاحم شر محض لا تلطف حدته

---

(١) زكي مبارك ـ الرسالة سنة ١٩٤٢ .

خلجة من خلجات الخير ، وحرب طروادة الضروس التي طالت عشر سنوات ، اشتعلت نارها دون مبرر معقول . لقد اصبحت كلمة زعماء الاغريق بعد تفرق على شنّ تلك الحرب الشعواء ، لأن هلينة زوجة منيلاس ، وهو من سادة القوم عشقت باريس أمير طرواده ، وهربت معه الى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً . وهكذا دارت الحرب المدمرة في سبيل امرأة غادرة لا تستحق غير الازدراء والاهمال . واختلطت الشعوب بسعيرها دون ان يكون لها فيها مصلحة ، او يحفز اليها حافز .

والمرأة الاغريقية تتصف بالغدر في اغلب مآسي الاغريق وتستسلم للرذيلة دون اية مقاومة ، وترتكب ابشع الجرائم مدفوعة بأخطر النزوات .

وهناك قصة الكترا التي تعبث فيها (كليتمنسترا) بقدسية الروابط الزوجية وتتخذ لها عشيقاً في غيبة زوجها (اخمنين) الذي رحل على رأس الجيوش الاغريقية ليغزو (طرواده) وينتقم من اميرها . ولم تكتف (كليتمنسترا) بارتكاب هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريرة اشد نكراً مدفوعة بشهواتها البهيمية ، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع عشيقها (ايجست) وهكذا تصور القصة الاغريقية « حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله ، وحجبت عنه الحقائق الواقعية ، وأضعفت فيه العواطف الانسانية النبيلة واستثارت فيه الغلظة والميل الى الشر ، وله العذر في ذلك فآلهة الاغريق على الاغلب قاسية تميل الى الانتقام . فاذا عن لها أن تنصف مظلوماً أو ترحم ملهوفاً اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وإنصافها من أي سمة انسانية ، وتحول دون تحقيق الغاية وهي لا تنكل بعبادها فحسب ، ولكن بعضها ينكل ببعض ويفتك به . وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ، ولا يستطيعون منها فكاكاً الا من تدبير هذه الآلهة . وقد قيل ان الوثنيين الاغريق فطروا على صورة آلهتهم ، او على

الاصح انهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم[1]».

ومن هنا فقد كانت اخلاق اليونان اخلاق سعادة : مطلبهم الأسمى هو السعادة الحسية فهي الغاية القصوى للحياة . وأرسطو يحـــدد للفرد فرديته وحريته لا يجعلها من حق الناس جميعاً بل يقصرها على السادة ، فالسادة وحدهم هم الذين لا يجوز استرقاقهم لأنهم جمعوا بين الروح الغالية والشجاعة ، وعنده ان للأعلى ان يبسط نفوذه على الادنى كما ان على الادنى ان يخضع للأعلى ويطيعه ، وعنده ان الحرّ حرّ رغم ما ينزل به من عسف وعبودية ، والعبد عبد رغم ما يحققه من نصر .

أما افلاطون فانه يجرد الفرد من قيمته الفردية ليجعله أداة سخرة لخدمة الدولة ويصهر كيانه في جهازها العظيم .

ومن أخطاء فلاسفة اليونان قولهم ان المادة أزلية ، وان الله يحيط بالكليات وحدها قولهم بالدهرية وقدم العالم ، ووقفوا عن المنطق القياسي ، ولم يتجاوزوه . فقد كان المنطق القياسي ممثلاً لمجتمع تقف فيه السادة في القمة يفكرون ويتأملون، ويقف فيه الناس جميعاً في مجال العبودية يقومون بالخدمة دون ان يطمعوا يوماً في الانتقال الى السعادة .

(١) مفيد الشوباشي – رحلة الادب العربي الى اوربا .

(٢)

وكان دين الاغريق[١] ديناً طبيعياً يقول بتعدد الآلهة فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى امرها (زيوس) كبير الآلهة . ويمثل الرعد والبرق (ديمتير) : يمثل الارض والخصوبة (افروديت) الجمـــال (ابولو) الشمس (نبتون) البحر .

وكان شعب اليونان يعبد إلهه مثله تماماً : أي بشراً يجوز عليه ما يجوز على البشر فيغتصب زوجة آخر ، ويتصف بالاخلاق الشريرة ، ويكون شرها طماعاً جباناً محباً للانتقام .

وكان مجتمع اليونان ذلك المجتمع الوثني القائم على الخوف من مظاهر الطبيعة : فقد كان التوتونيون القدماء يرون في الشتاء قوة تسعى حثيثاً للقضاء على الانسان، وكان الشتاء وليله الطويل ملعب الارواح الشريرة المخيفة الخارجة من المغاور في قلب الارض ، ومن اعماق البحار الهائجة تفتش عن فريسة بشرية . فكأن الاعياد ترضية لهذه الارواح الشريرة .

يقول أنيس فريحه[١]: كان اليونان ينظرون الى آلهتهم نظرتهم الى البشر، فهم يتصرفون تصرف البشر ، كانوا يحيون ويقتلون ويسرقون ويخطفون

---

(١) دكتور محمد عبد الحليم كراره – المعتقدات اليونانية .
(٢) مجلة الأبحاث ١٩٥٣ .

نساء بعضهم بعضاً . وبعبارة اخرى كانت آلهة اليونان أناساً ولكنهم جبابرة ذوي بأس متصفون بكل ما هو جميل ، وبكل ما هو بشع ذميم . لذلك لم يستول على خاصة الاغريق خوف ولا جحود أمام هذه الآلهة . لم يشعر اليوناني أمام ربه انه عبد ذليل بحاجة الى الرحمة والشفقة ، بل ظل سيد نفسه متغطرساً موقناً انه سيد الارض ، وان الحياة توهب له .

« فالاغريقي قدس الجسد وجماله ، وكان انصرافه في الدرجة الاولى الى الحياة الدنيا ، والى ما يؤول الى ابهاجها واغنائها ، فكان عنده الغناء والرقص والشعر والتمثيل والتصوير والنحت » . وقد أحصت كتب التاريخ فصولاً كثيرة عن فساد اخلاق اليونانيين وتهتكهم في الخلاعة والفسق ، وانغماسهم في الترف والملاذ ، وفساد اخلاقهم الشخصية .

واقد جرى الحديث كثيراً عن الديمقراطية اليونانية ، ولكن هـــذه الديمقراطية كانت للأسياد ، أما العبيـــد فلم يكن لهم أي حق في الحياة قبل الاسلام .

(٣)

والعقائد الدينية في بيئة اليونان مضطربة متعارضة يقوم بعضها على مفهوم الرواقيين وان كل ما في الكون من معبودات ومخلوقات ، انما وجد بعلة واحدة ، هو اتحاد الجواهر الفردة ، وان ليس لهذا الكون إله يدير اموره ، وان العالم كله من عمل الصدفة ، وان الانسان وجد اتفاقاً ، وان النواميس الطبيعة والاديان ليست من عند الله ، وانكار الخلود ، او الوجود بعد الموت .

يقول أنيس فريحه : ان الديانات كلها كانت تدور حول عبادة الآلهة . وان من مراسيم العبادة اقامة وليمة مقدسة يذبحون فيها حيواناً يشتركون بأكل لحمه . وفي القديم يشرب دمه رمزاً لاتحادهم بالإله . وكان يرافق اعيادهم نوع من الزواج المقدس ، او البغاء المقدس الذي يبدو لنا انه اباحية وعربدة يشمئز ذوقنا منها .

هذه العلاقات الجنسية بين كاهن وكاهنة ، او بين رجل القبيلة ونسائها في اوقات معينة ، او في احوال خاصة يجب ان تفسر بأنها رموز سحرية لها علاقة بالخصب والانتاج .

ومن آلهتهم ديونيوس : إله الخمر ، وتصوره الاسطورة ، وهو يجوب العالم المتمدن ليعلمهم تربية الكرمة ـ وشرب الخمرة ـ أما عبادته فكانت تقوم حوله هوثة وتمزيق جسده الى اشلاء ، ثم قيامته من الموت .

والوثنية اليونانية ـ كما يقول زكي مبارك ـ تقوم على عبادة المرح والبهجة والإيناس فأهواء الآلهة عندهم أهواء حادة من الوجهة الحسية بحيث يمثلون ما في الطبيعة الحسية من غضب وبطش وجبروت ، والذي ينظر الوثنية اليونانية ، يواجه اصطحاب الاهواء والاذواق والاحاسيس .

ولقد ارتبطت الفلسفة اليونانية بإنكار النبوات ، وانكار المعاد ، والميل الى الاباحة والتعطيل والفلسفة اليونانية اساساً تنافي النبوة وتعارضها في النقطة الاولى .

والوثنية هي[1] عبادة المحسوس المشخص ، وتنطوي على تعدد المعبود ايضاً . والوثنية وتعدد المعبود متلازمان . لأن المعبود يتغير ، كما ان الوثنية وتشخيص المعبود متلازمان ومع تعدد المعبود وتشخيصه ، عبادة إله وراء ما اتخذته من آلهة غير مشخص ، وغير محدود وقد تلقبه برب الارباب ، او خالق السموات والارض ، وهي بهذا أشركت مع الإله الذي يجب ان يعبد وحده آلهة اخرى .

وقد هاجم الاسلام الوثنية ، وهاجم تعدد الآلهة ، ودعا الى عبادة إله واحد لا تعرف شخصيته ، ولا تحد شخصيته ، ولا تحد حقيقته لانه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من اشخاص وجزئيات محددة ، وأراد ان يكون خضوع الانسان وطاعته لغير من يجوز عليه التعدد والفناء .

---

(١) دكتور محمد البهي — الرسالة ١٩٤٥ .

الفصل الخامس

الامبراطورية الرومانية

أما الامبراطورية الرومانية ، فكانت مثلاً للنظام العسكري الوحشي ، واهدار الدماء والافراط في عبادة القوة ، وتحكم الطغاة المستبدين ، وقيام عبادة الامبراطور والعبودية الكاملة للقطيع الجند للخدمة تحت القيود والاثقال ، الى فساد اخلاق السادة وإغراقهم في الخلاعة والفسق وانغماسهم في الترف والملاذ .

وقد ورث الرومان عن الاغريق النظام الطبقي في المجتمع والتفاوت في الاعتبار البشري بين الافراد فيه « وكانت[1] الفكرة التي تقـــوم عليها الامبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الاقوام الآخرين لفائدة الوطن الام وحده ، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة . لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ، ولا في ظلمهم انحطاطاً ، وان العدل الروماني الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم » .

---

(١) محمد اسد – الاسلام على مفترق الطرق .

واذا كان اعظم مفكري اليونان (سقراط ، وأفلاطون . وأرسطو) برروا العبودية اليونانية فان أعظم مفكري الرومان (سيشرون — تاسيناس— سنكا) لم يستنكروا النظام العبودي ولم يعارضوا هذه العادة المزرية الحاطمة للاخلاق الهادمة للمشعور الكريم ، ولم يكن ذلك غريباً[1] فقد كانت النزعة السادية متمكنة من نفوس الرومانيين اصيلة في اخلاقهم ، وكان الرومانيون يستمرؤون السرور من هذه العادة السيئة لا بحكم التقاليد وحدها ، وانما بحكم الدوافع السادية التي ترقد في كل قلب ، والتي اذا استنطقت تتلهف عليها دوافع أقوى واقتناع أتم ، وكان دافع حب القـــوة في نفس الرومان يزيدها حدة وسطوة .

نعم ، كانت هذه الظاهرة الواضحة : ظاهرة القسوة في معاملة العبد ، وكان الاعدام بالالقاء الى الوحوش عقوبة عادية . « كانت معاملة الرومان للعبيد من القسوة بحيث تقشعر لها الابدان ، كان العبد الذي يعتدي على سيده يقتل ويقتل معه عبيد المنزل جميعهم » وكانوا الى ذلك يبيعون العبيد بيع السلع ، ويعتدونهم اشياء مثل الجمادات[2] وكانوا يبلغون بهم غاية القسوة بانتزاع اللسان ، وصب القصدير المغلي المذاب في أفواه المجرمين ، أما مسارح المصارعة فهي من أسوأ مظاهر القسوة ، كانوا يذهبون الى المسارح ليستمتعوا بمنظر سيل الدماء وتمزق الاشلاء ، ويستمعوا الى الانات الصاعدة ، والتأوهات والآلام . ولم تكن هذه المشاهدة قاصرة على الرجال . بل كانت تحفـــل بالعذارى الناعمات الرقيقات . وقد ظهر بما لا يحتمل الشك ان حضارة الرومان « كحضارة الاغريق » — نهضت على أكتاف العبيد وبسببهم انهارت .

---

(١) الثقافة — م ١٩٤٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٢)

قامت الامبراطورية الرومانية بعد ان مرت الدولة الرومانية بمراحل متعددة من ملكية وجمهورية فمن (٧٥٤ قبل الميلاد الى ٥٠٨) النظام الملكي ومن (٥٠٨ الى ٤٨ ق.م) النظام الجمهوري المرتكز على طبيعة الاشراف ومن (٤٨ ق.م) بدأ النظام الامبراطوري باستيلاء قيصر على السلطة. وقد استغرق تحويل حوض البحر المتوسط الى الامبراطورية الرومانية نحواً من قرنين ونصف قرن . وكانت مصر آخر ما سقط في أيدي الرومان من أقطار هذا البحر عقب موقعة اكيتوم ودخول أغسطس مصر (٣٠ ق.م) . وأصبح هذا العام حداً فاصلاً في تاريخ الرومان : نهاية العصر الجمهوري ، وبداية عصر الامبراطورية وقد ضمت الولايات الواقعة في بلاد الغال . وآسيا ـ وسوريا ـ وبلاد اليونان. كما ضمت المغرب في بناء سياسي وحضاري . استمر فترة من الزمن تربو على السبعمائة سنة حتى سقطت ٤٧٦ م والمعـــروف ان الامبراطورية الرومانية دخلت المسيحية ٣٣٠ م .

وقد اتسمت الحضارة الرومانية بالترف والانحلال . وقد وصفها (درابر) في كتابه (تاريخ اوربا الاخلاقي) فقال : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة الى أقصى الدرجات هبطت في فساد الاخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب الى اسفـــل الدركات . بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا الى الارض واستهتروا استهتاراً .

وكان مبدؤهم ان الحياة انما هي فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم الى ترف ، ومن لهو الى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الاحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، وتحف بهم خدام في ملابس جديدة جميلة خلابة ، وعادات رومية حسناء ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين بهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الابطال مع الابطال او مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد صريعاً يتشحط في دمه وقد ادرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم انه ان كان هناك شيء يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يقدر الانسان ان ينال الثروة التي يجمعها اصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، واذا غلب الانسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له ان يصادر الاموال والاملاك ، ويعين ايرادات الاقطاع ، وان رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة . فكان نظام رومة المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها .

(٣)

أما في مجال الدين فقد كان الرومان وثنيين[1] ، لم يكن لهم إيمان راسخ في دينهم ، فقد كان النظام الديني الوثني الخرافي الذي كان سائداً في رومية يقتضي بطبيعته الشك والاضطراب ، وضعف الايمان . فكلما تقدموا في العلم وتنورت افكارهم ازدادوا استخفافاً به . وقد قضوا من اول يوم ان الآلهة لا دخل لها في السياسة وامور الدنيا .

يقول الراهب أغسطين عن عقيـــدة الرومان : ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ، ويهزأون بهم في دور التمثيل . وقد فقد الدين الرومي سلطانه الروحي على معتنقيه وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة ، وأهانوها في بعض الاحيان ، فلم يكن للدين تأثير في اخلاق الامة وسياستها ومجتمعها .

يقول ليكي : في كتابه (تاريخ اوربا) ان الدين الرومي كان اساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمي الا الى رفاهية الافـــراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك انه ظهر في رومه مئات من الابطال والعظماء . ولكن لم ينهض فيها زاهد في الدنيا ، عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع

---

(١) ابو الحسن الندوي – ماذا خسر العالم .

مثلاً في تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا تجده لا تأثير فيه للدين ، ولكن مبنياً على الوطنية . والظاهرة التي يتميز بها الروم هي روح الاستعمار والنظر المادي البحث الى الحياة ، وهو ما ورثته اوربا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

يقول محمد أسد[1]: ان الرومانيين في الحقيقة لم يعرفوا الدين، وان آلهتهم التقليدية لم تكن سوى محاكاة شاحبة للخرافات اليونانية . لقد كانت أشباحاً سكت عن وجودها حفظاً للعرف الاجتماعي ، ولم يكن يسمح لها بالتدخل قط في امور الحياة الحقيقية . بل كان عليها ان تنطق بالرجز على ألسنة عرافيها اذا سئلت مثل ذلك ، ولم يكن ينتظر منها ان تمنح البشرية شرائع خلقية .

(١) الاسلام على مفترق الطرق .

الفصل السادس

المسيحية والغرب

استكملت الامبراطورية الرومانية اتساعها ونفوذها عام ٣٠ قبل الميلاد ، وتمسحت ٣٣٠ ميلادية وسقطت ٤٧٦ ميلادية . وقد ورثت امبراطورية الاسكندر التي قامت ٣٣٢ قبل الميلاد .

ضمت الامبراطورية الرومانية بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت اقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان ١١٧ م . وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الاطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً . فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا واسبانيا وايطاليا فضلاً عن شمال افريقيا حتى طرابلس ، وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية البلقان وآسيا الصغرى وأعالي بلاد النهرين ، فضلاً عن الشام ومصر وبرقة . وقد انقسمت الامبراطورية الرومانيـــة ٣٩٥ الى قسمين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية البيزنطية . فلما سقطت الامبراطورية الرومانية ٤٧٦ ورثتها الامبراطورية البيزنطية التي استمرت الى السلطان محمد الفاتح الى أن ازال منها الاسلام اجزاءها في افريقيا وآسيا ، وأسقطها .

في ابان تكامل الامبراطورية الرومانية وتألقها ، ظهرت المسيحية في الشرق ، وسرعان ما عبرت الى اوربا، واشتبكت في صراع مرير مع الوثنية اليونانية الرومانية زمناً طويلاً حتى استطاعت ان تحقق وجودها ، وتمكن للاعتراف بها واحداً من أديان الامبراطورية عام ٣٣٠ م .

جاءت رسالة السيد المسيح خاتمة لأنبياء بني اسرائيل لوضع حد لاستشراء انحراف اليهودية الى الطابع المادي والعنصري الذي استعلى على اليهودية . فأقام لها منهجاً مغايراً لمنهجها الرباني الاصيل الذي جاء به موسى ، ويقدر المؤرخون هذه الفترة بين رسالة موسى ورسالة عيسى بـ (١٢٨٠ عاماً) .

جاء السيد المسيح مصححاً للتحريفات التي أوقعها اليهود برسالة موسى في عدة مواقف ، منها الالوهية وابتداع إله خاص لهم ، وفي الايمان بالبعث والجزاء ، وفي التبشير بمحمد خاتم الانبياء ، وفي تحليل الربا ، وادخال السحر والتنجيم ، وإعلاء شأن المادية والوثنية .

ومن هنا كانت رسالة السيد المسيح عيسى بن مريم محدودة وواضحة :

- انها رسالة الى بني اسرائيل وحدهم .
- انها مكملة للشريعة الموسوية متصلة بها . ولذلك فان رسالة عيسى لم تحتو نظاماً تشريعياً خاصاً **«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل »** (مق ١٧:٦) فالمسيح « **أرسل لتعديل ما اعوج من أمر بني اسرائيل ، وتصحيح ما انحرف من اصولهم** » فاليهودية بعد ان تأثرت بالفكر البابلي القديم،وفي خروجها عن مفهوم الحنيفية الى العنصرية ومن التوحيد الى الوثنية . فقد جاءت رسالة مصححة مكملة ، وقد وصفها القرآن على هذا النحو من الدقة في قوله : « **ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم** » ومعنى هذا ان المسيحية من اليهودية مكملة ، والسيد المسيح آخر انبياء بني اسرائيل .

وان أبرز مفاهيم رسالة عيسى هي تحرير العقيـــدة ، وتزكية الجانب الاخلاقي والتركيز عليه . وقد جاءت ولادة عيسى على نحو خارق لتلقي في النفوس قدرة الله على خرق النواميس ، واقامة المعجزات بعد ان كانت قد غلبت مفاهيم الفلسفة اليونانية التي تحاول ان تربط السبب بالمسبب وتنكر ماسواه .

وقد أشار القرآن الى مهمة عيسى « **ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً باذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين** » وكذلك كانت حياة عيسى كولادته آية من آيات الله ، فقد جاء قومه بما يفوق ما يعرفون من علم بالطب الطبيعي الذي كانوا يمارسونه . وكان ذلك حجة كبرى على وجود الروح بعد ان انكرها اليهود . وعلى وجود المعجزة بعد ان أنكرتها الفلسفات وكانت دعوة عيسى اساساً هي إقامة الروح وتربيتها ، والايمان بالبعث والنشور بعد ان استشرت المادية على الصورة التي عرفت في مجتمعات الشرق والغرب .

(٢)

غير ان المسيحية لم تلبث بعد السيد المسيح بقليل ان انتقلت من مفهومها المحدود ، من أنها جاءت الى بني اسرائيل مكملة لرسالة موسى ، ومن انها دعوة الى التوحيد والاخلاق ، لم تلبث أن انتقلت الى مجال آخر وأصابها تغيير كثير ، حتى لقد وصفها المؤرخ الأشهر أرنولد توينبي في كتابه (المسيحية بين أديان العالم) على هذا النحو فقال : كانت المسيحية تركيباً متآلفاً جسور اللاهوت اليهودي والفلسفة الاغريقية .

لقد ظهرت المسيحية في بادىء الامر في احضان البيئة الاسرائيلية مخالفة الايديولوجية التلمودية التي أدخلت الى التوراة واليهودية، والتي ارتكزت على الماديات،بينما ترتكز المسيحية على المعنويات . وفي مقدمتها العبادة والزهد .

وقد دعت الى الاعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة والجزاء . (حيث ينكر اليهود البعث والجزاء) ودعت الى الترفق بالانسان والانسانية (حيث يدعو اليهود الى سحق كل من ليس يهودياً) ودعت الى التواضع والمحاسنة للمجتمع البشري (حيث يؤمن اليهود بالخير لأنفسهم وحدهم) ودعت الى ان الله هو رب العالمين لا رب المسيحيين فقط (واليهود يعتقدون بأن الله (ياهو)

هو إلههم وحدهم وليس له علاقة بباقي المخلوقات) ودعت المسيحية الى العفو عند المقدرة (واليهود لا يعرفون الا المقايضة والربا) ودعت الى احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله (واليهود لا يحرمون الا حقوق طائفتهم فقط) .

غير ان مفاهيم المسيحية على النحو الذي جاءت به رسالة السيد المسيح والانجيل المنزل عليه من السماء لم تلبث ان اصابها تغيير كثير ، وقد جاء هذا التغيير على يدي داعية من أكبر دعاتها هو (بولس) .

وحتى لا نقع في تجاوز الحقيقة . فاننا نترك لكتاب المسيحية الغربيين المنصفين إلقاء الضوء على هذا التحول . يقول أرنست دي بنسين في كتابه : (Aslam or true Christanity) « ان العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الانجيل ليس الذي دعا اليه السيد المسيح بقوله وعمله . وان مرد النزاع القائم بين المسيحية اليهود، وبين اليهود والمسلمين ليس الى المسيح بل الى دهاء بولس : ذلك المأزق اليهودي والمسيحي . وشرحه للصحف المقـــدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل وملئه هذه الصحف بالنبوءات والامثلة . ان بولس في تقليده لاسطفانوس داعي المذهب الانساني . قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، انه واضع ذلك المزيج من الاحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الانجيل اليوم والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ اصلاً ، ليس المسيح بل بولس ، والذين جاءوا بعـــده من الاحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيـــدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الارثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً .

أما الاستاذ جارذر (كلية حيرتون بكامبردج) ففي محاضرة له تحت عنوان : هل المسيح هو المؤسس للدين المسيحي ؟ قال : ان يسوع ظهـــر لمعاصريه بصفة نبي تابع للكنيسة اليهودية لا مضاد لها . وأيده بعض القسوس. وعزا مستر برنجل الدين الى بولس الرسول . وقال: ان مسيح الانجيل ومسيح بولس شخصيتان لا تتفقان .

(٣)

تجمع المصادر التاريخية على ان رسالة السيد المسيح استمرت الى العام الثامن بعد المسيح ، « وفي ذلك العام ظهر بولس . وكان من اكبر احبار اليهود ، المشهود لهم بالعلم والذكاء . وكان في اول امره من ألد اعداء المسيح وأشد المنكرين على تعاليمه . مع انه لم يجتمع به قط . وكان يحث الناس على احتقار الحواريين وإيذائهم . ثم عاد . فادعى ان المسيح هبط عليه وعلمه الحقائق وأمره باعلانها . فظهر للناس في ثوبه الجديد » .

كان التقاء بولس بالمسيحية بدء المرحلة الفلسفية فيها . والتحول الذي نقلها من وضعها التاريخي المرتبط باليهودية مكملة للناموس . وليست ناقضة إياه الى وضعية اخرى تختلف اختلافاً كبيراً .

ومن هنا فان ما وصل الى اوربا لم تكن المسيحية المنزلة ، وانما كانت تفسيرات بولس لها . ومن ثم ، وفي ظل هذه التفسيرات انقسمت المسيحية . وكان ذلك نتيجة ما طرأ عليها من عقيدة التثليث والبحوث المتصلة بقضايا الناسوت واللاهوت والمادة والقدرة .

وقد ظلت المسيحية وقتاً طويلاً تصارع الوثنية الرومانية . ولم تستطع ان تفرض نفسها على اوربا ولكن قبل الاوربيون منها ما يلائم اخلاقهم وعاداتهم في إطار حياتهم الوثنية اليونانية القديمة ويمكن القـــول ان اوربا

اعتنقت المسيحية . ولكنها ظلت دائماً ترى انها وافدة من الشرق وانها غريبة عليها . وان الروح الاوربية كانت دائماً روحاً وثنية قاسية تنفر من طابع الرحمة والإخاء . وعندما اعتنق قسطنطين المسيحية ، واعترف بها من اديان الامبراطورية الرومانية كانت قد انقسمت الى فريقين . وكان العهد قد بعد بينها وبين العصر الاول للمسيح حتى عقد مؤتمر نيقة ٣٢٥ م . وصدر قرار اعلان ألوهية المسيح . وانه من جوهر الله وانه قديم بقدمه .

لقد غلب العقل الاوربي نظرته الوثنية على الدين الإلهي . وجرى مع مفاهيمه القديمة المتصلة بالاساطير . وديانة مثرا [إله الخلاص] . فالمسيحية الغربية هي عبارة (مثرا) في ثوب جديد . والمثراوية تحوي المعمودية والعشاء الرباني ، وقد كان المثريون يمارسون العبادة في المغاور والكهوف .

وهكذا اصبحت المسيحية إطاراً للمجتمع الوثني بعباداته ورجاله وطقوسه . وقد شغلت قضية تجديد العلاقة بين (الله والرسول) العالم الروماني قرنين من الزمان . وتغلب فريق أثناسيوس صاحب فكرة الثالوث المقدس . وانهزم أريوس وأنصاره اصحاب فكرة القول بأن المسيح انسان ورسول من عند الله. فقد أنكر أريوس لاهوت المسيح . وقال انه مخلوق ليس مولوداً من الأب ولذلك لا يساويه في الجوهر . وأصرت المجامع الكنيسية التي عقدت على الانتصـــار لفكرة الثالوث المقدس ، واعتبرت الاريوسين خارجين عن الدين والكنيسة .

(٤)

أبرز مفاهيم المسيحية الدعوة الى :

أولاً : الزهد في الدنيا . والتسامي عن اعادة التطلع الى الآخر ، فقد جعلت المسيحية الحياة قاصرة على العمل للحياة الآخرة ، وقررت ان حياة الانسان ليست في هذه الدنيا وانما في العالم الآخر . وتبسع ذلك ظهور الرهبانية . وقد اعتمدت هذه الدعوة على قول السيد المسيح : ان مملكتي في العالم الآخر . وقد كانت دعوتها هذه مصدر معارضة شديدة من الاباطرة ، فهم اصحاب السلطان الرسمي،ومن الفلسفة اليونانية القائمة على عبادة الحياة . فكانت مهمة المسيحية شاقة في اوربا .

ثانياً : القول بأن المسيح جاء لأجل خلاص العالم وتطهيره من خطيئة آدم وافتدائه بنفسه .

ثالثاً : نقل المسيحية من اطارها الطبيعي كآخر أديان بني اسرائيل مكملاً لشريعة موسى الى دين عالمي .

رابعاً : القول بالتثليث .

وقد كان لهذه المفاهيم أثرها في التحديات التي واجهتها من بعد لأنها انساقت بها الى غير طريقها الصحيح . وقد وجدت هذه المفاهيم استجابات مضادة ،

فكانت معارضة اوربا للزهادة من اخطر ما واجه المسيحية . وكانت فكرتا الخطيئة والتثليث من اخطر ما واجه العقل ، وكان نقل المسيحية من اطارها الاخلاقي المكمل الى دين عالمي مصـــدراً لكثير من اوجه النقد لقصورها في ميدان الشريعة ونظام المجتمع .

ولقد أكد الباحثون ان تفسيرات المسيحية انما استمدت مصادرها من الاديان والفلسفات المعاصرة لها . أما فكرة الثالوث فقد كانت موجودة في الديانة الفرعونية . وكذلك فكرة العشاء الرباني . وكانت فكرة الخلاص واردة في الديانة المثرية ، بل ان بعض الباحثين ليصل الى ما هو ابعد من ذلك :

يقول عمر عنايت في كتابه العقائد : ان تعاليم المسيحية موجودة كلها في الاديان المجوسية والزرادشتية والبرهمية والهندستانية والبوذية . فالديانات الهندية والمصرية والبابلية وغيرها التي تتكلم عن شخصيات مثل المسيح هي اقدم من المسيحية بلا شك . وهي في الغالب صدرت في الكتب قبل ان تحرر الاناجيل في القرن الثاني للميلاد .

ويؤكد الباحثون الغربيون انحـــراف تفسيرات المسيحية عن اصولها السماوية :

يقول العلامة درابر في كتابه (تاريخ اخلاق اوربا) : دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير الذين تقلدوا وظائف ومناصب عالية في الدولة الرومانية . وقد اختلطت مبادىء الوثنية بالمسيحية . ونشأ عن ذلك « دين جديد » يتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء . هنالك يختلف الاسلام عن النصرانيةُ اذ قضى الاسلام على منافسة الوثنية قضاءاً باتاً . ونشر عقائده خالصة .

أما النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة . فقد ابتدعت رهبانية تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والاخلاق ، وكان من نتائج الرهبانية ان خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالت عيوباً ورذائل . وزهد الناس في البشاشة . وخفـــة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها .

وتصور اورد ماكولي تحول المسيحية الى ديانة وثنية على هذا النحو : لم يسلم تابعو المسيح من النصارى ان يصيبهم في ايمانهم مثل ما اصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم . فتمثل الإله لهم في صورة آدمي مشى بينهم وشاركهم فياغراضهم . وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال . كما كان يبكي على القبور ، وينام في الحظائر . فظهروا بذلك للعالم كله في لباس جديد من الوثنية . ثم كان لهم من القسسين والرهبان بعد ذلك يضف من الآلهة على مثال ما كان لليونان . فكان القديس جورج لديهم إله الحرب ، كما كان المريخ عند اليونان . وكذلك اتخذوا العذراء وسسليا وغيرهما آلهة للجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبـع كواكب اخرى آلهـــات لدى اليونان .

ويرى الكثيرون ان المسيحية (من حيث هي منهج مكمل الموسوية) فانها لم تتضمن نظاماً وتشريعاً . ومن ثم اضطرت ان تأخذ نظاماً لها من الوثنية الفرعونية وطقوسها وتقاليدها التي كانت في الاصل مستوردة من اليونان . ومن هنا بدأت روح الوثنية اليونانية تربط بين الفرعونية والمسيحية ففي الفرعونية ثالوث فرعوني (اوزريس وايزيس وحورس) وفيها الاكليروس (رجال الدين والمعابد والكهنة) وفيها صكوك الغفران، والقربان والموسيقى والاناشيد والخمر والخنزير وتوابيت الموتى والعلامات والرموز .

ومن ناحية اخرى تغلبت الفلسفة اليونانية بعد ان دخل الكثير من

اليونانيين ، وهم حملة العلم، في الدين المسيحي ، ولما لم يكن للنصارى الاولين من العلم ما يمكنهم من مقاومة الفلسفة اليونانية تغلب العنصر المسيحي اليوناني . وتغلبت مسائل الفلسفة اليونانية . فلما تغلب مذهب ألوهية المسيح بعد جدل امتد قرنين كاملين ، طرد الموحدون الاريوسيون . وشتت شملهم . ونزعت الحقوق المدنية منهم .

(٥)

تمسحت أوربا رسمياً عام ٣٣٠ وسقطت الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ وقد أثار ذلك في التاريخ جدلاً شديداً . أتكون المسيحية هي التي قضت على الحضارة الرومانية ، ومن الحق أن يقال إن المسيحية حررت أوربا من أشياء كثيرة . وأهم ما حررتها منه عبادة الأباطرة . والشعوذة والسحر والأساطير والأصنام . وحررتها من طوابع اليهودية التلمودية القائمة على المادية المسرفة في العنصرية ، وانهـا نقلت أوربا مـن الوثنيـة إلى الدين . ومـن القسـوة إلى الرحمة .

ويشير توينبي إلى هذا المعنى ، فيقول إن المسيحية حطمت قيـد خنوع الفرد للدولة على النحو الذي عرفه المجتمع اليوناني الروماني . ودفعت أتباعها إلى التحرر من الخدمة العامة . والعزوف عن السلطان الظالم بما ألقت إليهم من فكرة (احتقار الحيـاة) [١] وأن مركز الثقل انتقل من الحياة المعاصرة إلى الحيـاة المستقبلة . ثم يصور توينبي أثر هـذا الاتجـاه في بنـاء الحضـارة فيقول :

[ولا شك أن الحياة الدنيا قد خسرت بهذا التطور خسرانا مبيناً . فقد

---

(١) مختصر دراسة التاريخ م ٣ .

يبدأ تفتت عام في الكيان السياسي . وانحلت عـرى الدولة والأسرة . وقال بناة المجتمع إلى تحليله إلى عناصره الفـــردية . وقاده ذلك إلى الارتـداد الى البربرية . لأن الحضارة لا تقوم إلا بفضل تعاون المواطنين الفعال . وحرصهم على إخضاع مصلحتهم الخـاصة للصالح العـام — ترك العالم الدنيوي يهلك من حولهم . وقد قرنوه بالشر . واستمرت هذه الفكرة تسيطر على عقول الناس ألف سنة] .

وبصور توينبي التحول الذي حققته المسيحية حين نقلت الناس من نظـرية الإله اليهودي القاسي الجبار إله الحرب إلى نظـرية الأبوة . يقـول : (كانت المسيحية التي استأثرت بنصف العالم الهليني تعد صورة معدلة للديانة اليهودية . وقد تم هذا التغيير عن طريق تطعيم الديانة اليهودية بفكرة هيلينية تعـد في نظر اليهود على النقيض تماماً من كل ما تمثله الديانة اليهودية : ألا وهي فكرة « التجسيد » ويرى توينبي أن المسيحية حين نقلت العـالم الهليني من تعـــدد الآلهة إلي فكرة التجسيد . لم تستطع أن تتحرر من الوثنية الهلينية : « لمـا كانت الديانة الهلينية تؤمن بتعـدد الآلهـة . إذا بالمسيحية التي اكتسبت لدى الهلينية سحراً طاغياً كان كفيلا بأسر النفوس الهلينية . ومع ذلك فلم يكن في وسع الديانة المسيحية ذاتها أن تشق طريقها في العالم الهليني ، لو لم تتخـذ لنفسها ثيـاباً هلينية مثلما فعلت الديانات التي تصدت لمنافسيهـا ، والعقيـدة الهلينية التي كان من صورها عبادة الإنسان »

●

هذا رأي المؤرخ توينبي المعروف بعقيدته المسيحية المسيطرة على اتجاهات فكره . أما المؤرخ جيبون وهـو صاحب نزعة هلينية صريحـة . فإنه يرى نفس الرأي . ولكنه يفسره على نحو آخر يقول : إن إدخال المسيحية . أو على الأقـل إساءة استعمالها كان له بعض التأثير في انحطـاط الدولة الرومانية

وسقوطها . فقد نجح رجال الاكليروس في التبشير بآراء تدعو إلى الصبر وإيثار الجبن . ولم تشجع الفضائل التي تبعث على النشاط في المجتمع . ودفنت آخر بقايا الروح الحربية في الأديرة . وجانب كبير من الثروة العامة والخاصة صار وقفاً لمطالب البر والورع المموهة ، ورواتب الجند التي كانت توزع في إسراف على جماهير من الرجال والنساء لا خير فيهم . وليس في استطاعتهم سوى أن يبشروا بمزايا الزهد والتقشف . وفضائل العفة والطهارة والإيمان والحماسة والفضول . ويرى جيبون : أنه إن كان سقوط الدولة الرومانية قد يحمّل به دخول قسطنطين في المسيحية فإن ديانته المنتصرة كسرت حدة السقوط ورفعت طبيعة الغزاة الوحشية .

وقد أدرك جيبون[1] أن روح المسيحية كانت معادية لبناء المجتمع الروماني . ولذلك أثبت أنها كانت عاملاً من عوامل اضعافه حينما أصبحت ديانة الدولة ، ولكن المسيحية استطاعت حماية عالم العصر الوسيط من التصدع من خلال عصر الانحطاط . وبذلك أنقذت الإنسان من أسوأ أنواع الشر حينما انهار البناء ووقعت الكارثة .

●

غير أن جيبون لا يرى أن ظهور المسيحية في الدولة الرومانية هو المصدر الوحيد لسقوطها وإنما يرى أن الانحلال والترف والإباحية والعبودية كلها من العوامل التي أودت بهذه الامبراطورية ، فهو يؤكد أن الترف والتخنث هما سبب سقوط الامبراطورية . ويقول : ان الفساد الذي نشأ في البلاط . وشاع في المدن نفث السموم في معسكرات الفيالق ، وان عدم القدرة على الثبات في مواجهة الشدائد التي أصابت الفيالق الرومانية . والتي كان

---

(١) على حد تعبير أحد الباحثين الذين ترجموا كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية .

منشؤها الترف كانت السبب المباشر في تدهور الامبراطورية وسقوطها . وهو يؤكد أن الترف والتخنث كانا نتيجة لا سبباً . ويقول إن الإسراف الجنوني الذي يسود في حالات الحرب أو الحضارة يمكن أن يفسر تقدم الترف خلال الكوارث والاحداث المفزعة في الامم المشرفة على السقوط . ويشير جيبون إلى عامل آخر هام ، هو فقدان العدالة في توزيع الضرائب ، ومدى الضيق الذي يعانيه الشعب من جراء قسوة الاغنياء والمياسير الذين ألقوا الاعباء على كاهل الشعب الفقير في جعل أفراد الامة الرومانية يرفضون القيام بواجبات المواطن الروماني .

ويشير جيبون الى نظام العبودية القاسي ، ويعده من أبرز عوامل انهيار الامبراطورية الرومانية .

●

ثم يقــول ان سقوط روما نتيجة طبيعية للعظمة المفرطة التي تجاوزت الحدود ، فقد اتضحت أسباب التحلل والفناء . وضاعف امتداد الامبراطورية من بواعث الهدم والتدمير وقــال جيبـون : ان الرخــاء أنضج أسبـاب التحلل والفناء .

●

واذا كان جيبـون يرى أن المسيحيــة مرتبطــة بسقـوط الامبراطـورية الرومانية . ويعدها من طبيعة أسباب سقوطها . فان معظم المفكرين في القرن الثامن عشر يقفون [1] مثل هذا الموقف من الدين عامة ، ومن المسيحية خاصة ، وذلك لاعتقادهم أن الدين يقوم على خرافات نمت وتجمعت في عصر

---

(١) من بحث : عن كتاب جيبون وسقوط الامبراطورية (تراث الانسانية — مجلة) .

الهمجة . وأنتجت التعصب الأعمى ، وعدم التسامح . وكانت هذه الآراء مما عرضه (مونتسكيو) في كتابه : عظمة الرومان وانحطاطهم .

●

ويرى المؤرخ زوربيموس ان المسيحية من الاسباب الهامة في تردي الاحوال في الامبراطورية ويحمل الامبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية الاولى . وان سقوط الامبراطورية في الغرب انما جاء نتيجة لنقمة الآلهة الوثنية .

أما القديس أوغسطين فيرى ان سقوط روما (ويسميها بابل الثانية) فهو عبارة عن مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة يقول في كتابه : مدينة الله انها يد الله المرشدة للحوادث الكونية وتوجيهها . ولا مفر للبشرية من اتباع الارادة الإلهية والانصياع لها . وما التاريخ الا مسيرة للبشرية نحو دار الخلود .

●

يقول الدكتور ابراهيم علي طرخان : سقطت روما بعد سبعة قرون من تاريخها الجمهوري . وبعد خمسة قرون من امبراطوريتها وفقــــدت أملاكها وبجدها ٤٧٦ فعلاً واسمياً ٤٨٠ م وهكذا تغيرت خريطة اوربا السياسية ، وكان من تاريخ سقوط الامبراطورية في الغرب قيام الممالك الجرمانية التي شكلت دول اوربا الغربية الحديثة . ومن النتائج الخطرة انتقال مركز أهمية التوجيه والقيادة من قصور الأباطرة السياسيين الى أروقة (اللاتران) أي الى الكنيسة في روما ، اذ غدا أسقفها البابا أهم شخصية رومانية باقية في ايطاليا. ومعنى هذا تطور خطير للكنيسة وسلطتها واختصاصاتها . يضاف الى ذلك أثر السيطرة الدينية في نواحي الثقافة المختلفة مما أثر اعمق الأثر في حيــــاة المجتمع الاوربي في العصــــور الوسطى وباستيلاء (ادواكر) على روما

٤٧٦ م[١] بدأ ما اصطلح المؤرخون على تسمية العصور المظلمة في غربي اوربا .

ويقول : في مطلع القرن الخامس الميلادي اقتحم الأريك القوطي مدينة روما ونهبها فاضطرب العالم المسيحي بوقوع تلك الكارثة بمدينة خالتها القرون والأجيال مركز الهيبة والسلطان منذ قديم الأزل . هل كانت الطامة انتقاماً للوثنية ومعابدها القديمة . أم كان ما حدث هو الجزاء لاعتناق المسيحية . وقد ردّ القديس أوغسطين في كتابه مدينة الله . فقال : ان روما مدينة أرضية من صنع البشر وهي لا تقاس في شيء الى مدينة الله التي لا تنال فيها الظواهر المادية ، ولا تحدها الحدود . بل تَسَعُ كافة المؤمنين حيث يكونون.

وأوضح ان الآلهة اليونانية لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، ولا دخل لها في الخير والشر او العدالة . **« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد »** .

---

(١) م ٢٠ / ١٩٥٨ مجلة كلية الآداب .

(٦)

جاءت المسيحية والعالم في أشد الحاجة اليها : في مواجهة النظام العبودي في روما . ومادية اليهود واستعلائهم العنصري : وانتشرت لأنها ديانة البر والتسامح والغفران وكان اكبر انتشارها بين الفقراء المحرومين من بهاء وزهو الحياة الرومانية .

وواجهت المسيحية سطوة الفكر اليوناني ومفاهيم الرومان عليها . وكان لزعامة بولس (اليهودي الميلاد الروماني الجنسية الاغريقي الثقافة) أثر كبير في الصورة التي تبلورت بعد عليها . وفي التفسيرات التي جاء بها .

فقد انفصلت المسيحية عن اليهودية واتجهت الى العالمية . وهي ليست مستقلة عنها الا من حيث تحريرها من الانحراف المادي . وظهرت نظرية تأليه المسيح ، وليس المسيح الا بشر . وهو آخر انبياء بني اسرائيل، وكانت المسيحية ثورة اصلاحية لتنقية الديانة اليهودية ، مما علق عليها من شوائب ، فأصبحت ديانة مستقلة تضارع اليهودية وتصارعها الوثنية الرومانية . وقد واجهت المسيحية في الامبراطورية الرومانية محنة كبرى ، كانت قمتها مظالم (قلديانوس ٣٠٣) في القتل والاضطهاد ، وهدم الكنائس ، وإحراق الكتب المقدسة . وكان من آثاره تفشي نظام الرهبنة ونشـــوء الأديرة . وعزلة المسيحيين عن المجتمع والحياة . وقد امتد اضطهاد المسيحية حتى جاء قسطنطين

فأطلقها فأصبحت دين الفكرة . فلما سقطت الامبراطورية سادت الكنيسة وسيطرت على المجتمع الاوربي منذ عام ٤٧٦ تقريباً الى القرن الخامس عشر : أي قرابة ألف عام . وهكذا سيطرت المسيحية ألف عام على اوربا . ومن قبل سيطرت الحضارة الإغريقية الرومانية الف عام على العالم (٧٠٠ قبل الميلاد الى ٧٠٠ م) كذلك ليرضي المثقفين اليونان . فاستعار من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة او الابن الإله او الروح القدس .

ولا ريب ان المسيحية ألقت في اوربا كلها مفهوماً جديداً من الرحمة والسماحة خفف كثيراً من آثار الأعوام الالف التي قضتها الحضارة اليونانية الرومانية في نظامها العبودي وقسوتها الوحشية ، وعبادة الجسد ، وتأليه الانسان والصراع والترف والانحلال . فلما جاءت المسيحية دعت الى الحب والرحمة والزهد في متاع الحياة . ولكنها لم تستطع ان تتحرر من قيود الوثنية ، ومن عقائد الوثنيين فداخلها من ذلك كثير :

داخلها في عقيدة التوحيد وفي الفوارق العميقة بين الألوهية والنبوة والانسانية .

وداخلها في المفهوم الارتباط بالحياة بالترف او الزهد .

وداخلها في مفهوم المسؤولية الفردية والخطيئة .

وقد كان ذلك واضحاً للمؤرخين والباحثين . واليه اشار اكثرهم انصافاً ، وعللوا ذلك بأن المسيحية أرادت ان تكسب قلوب الوثنيين الرومانيين ، فأعطتهم إطاراً مشابهاً لأديانهم السابقة يقول بيري : كان عيسى يهودياً . وقد ظل كذلك ابداً ، ولكن شاؤول كون المسيحية على حساب عيسى ، فشاؤول الذي سمي فيما بعد بولس . هو في الحقيقة مؤسس المسيحية ، وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار . وقد أدخل بولس على ديانته

بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود . وأدخل صوراً من فلسفة الاغريق ليجذب له أتباعاً من اليونان . فبدأ يذيع ان عيسى منقذ ومخلص وكانت تعده الاصطلاحات شهيدة عن كثير من الفرق اليهودية ، وقال آخرون ان المسيحية دخلت الى مجتمع متشكل في طوابعه وقوانينه وتقاليده . فان تأثيرها في تغييره دقيق . ومنها أخذت وأعطت ، ولكنها لم تستطع ان تحرر المجتمع الروماني من وثنيته . وان أعطته روحاً من الرحمة والسماحة لم يلبث ان ثار عليها . وعاود طابعه القائم على القسوة ، أما فيما يتعلق بالعقائد فانالنهضة العقلية كشفت له عن انهناك خوارق ومعميات وأسراراً وأساطير ليست مقبولة عقلاً . ولذلك جاءت تلك المعارضة العميقة للدين بعامة والمسيحية بخاصة .

واذا كان بولس قد اضاف الى المسيحية افكاراً من الديانات القديمة كفكرة الانقاذ ، وتقديم النذور والهياكل والشموع والترتيل والتماثيل وغيرها من الطقوس الوثنية . فانه لذلك كله قد فصل اولاً دعوة عيسى عن منطلقها الحقيقي مع اليهودية مكملة للناموس ، وليست ناقضة اياه ، ثم انه وضع لها من الافكار ما يتنافى مع الفطرة والعقل والوحي السماوي الصافي ، وكان هذا هو أخطر التحديات التي واجهت المسيحية في عصر النهضة بعد استعلاء مفاهيم العقل ، ومقايسات العلم والمنطق ، وكان اخطر ما ابتدعت مسيحية بولس : الكنيسة والرهبانية :

أما الكنيسة فقد سيطرت وحكمت ، وأقامت نفوذاً خطيراً في وجه الامراء والناس كافة . وأنشأت المحاكم القاسية ، وفجرت المذابح والخلافات. وأعطت نفسها حق معرفة الأسرار . وتفسير الكتب المقدسة .

أما الرهبانية فقد عارضت الحياة البشرية بمنطق العزلة . وتعذيب الجسم. وكانت خطراً كبيراً في مواجهة حظر الاباحية الرومانية القديمة ومعارضة الفطرة .

وكانت هاتان المنظمتان بالاضافة الى عسر العقيدة من اكبر العوامل التي واجهت المسيحية من بعد .

وبدأ كأنما قد اتخذت المسيحية خطاً واضحاً هو الزهد والرهبنة والعزلة عن الحياة في مواجهة الخط الذي اتخذته اليهودية بالاسراف في متاع الحياة والربا والإباحة ، وكان كلاهما قد بعد بعداً شديداً عن الفطرة والوحي . واسلوب الدين الحق ، فغلبت على اليهودية العنصرية ، وغلبت على المسيحية الرهبانية .

ولم يلبث ان غلب طابع الاغـــريق على المسيحية وعلى اوربا والدولة الرومانية .

الفصل السّابع

الفرعونيـــة

كان المجتمع الفرعوني في مصر شطر مجتمعات فارس واليونان والرومان : وثنية قائمة على التعدد ، وعبودية قاسية تسود فيها عبادة الفرد ، وعبادة الامبراطور وكانت في مصر عبادة الفرعون . وفي الديانة الفرعونية القديمة الثالوث المقدس : ايزيس وأوزريس وجورس . وقد اختلفت الآلهة في طيبة فهي : أمون وجوت وسخت واختلفت في منف فهيفتاح وسخت وأموزيس ولكنها بقيت محتفظة بالتعدد . كما عرفت الحضارة الفرعونية قداسة الحيوان: العجول والكباش والأوز وعبد العجل أبيس . ووضع موضع القداسة . وبنى له الملك أحمس معبداً فخماً في منف كما تعددت أسماء الآلهة وانواع الطقوس . وعبد النيل وأهدي اليه وأله فرعون حياً ميتاً .

« ولما احتك المصريون بغيرهم في مدرسة عين شمس . ثم في مدرسة الاسكندرية ، أثر الفكر الوثني المصري في الفكر الاغريقي . ثم في الفكر المسيحي ، حتى ليقال ان قصة مريم العذراء والمسيح كما تصورها المسيحية

للتشبه في بعض الوجود قصة ايزيس وابنها الإله حورس في مصر القديمة . وان خروج المسيحية من التوحيد الخالص . وأخـــذها بفكرة الثالوث الى جانب فكرة التوحيد ليذكرنا بما كان في مصر القديمة من ثواليث بين الآلهة رغم إله معين على غيره من الآلهة »[1].

وكان المصريون شأن الفرس والشرقيين يألهون القوى الطبيعية ويألهون حكامهم ، وكانت الشمس في نظرهم أكبر الآلهة . كان تعبير كبرى الظواهر الطبيعية ـ ولها قوة روحية تدير الكائنات ـ وكان هناك آلهة اركان العالم الاربعة .

وقد عرفت عبادة الفراعنة الثالوث والاكليروس وحلول الغفران والقربان وتوابيت الموتى والعلامات والرموز والمعابد والكهنة . ونقلتها كلهـــا الى المسيحية .

وكانت الهياكل الفرعونية مرتبطة بحسابات النجوم والافلاك . وكانت الهياكل موجودة في عبادات اليونان والبابليين والمجوس .

---

(١) من بحث نشرته مجلة الانصار (١٣٦١ هـ) .

(٢)

اتصلت مصر الفرعونية بالمجوسية الفارسية ، كما اتصلت بالوثنية اليونانية والرومانية . وقد كانت هذه الصلات سياسية وتجارية ، منها دخول قمبيز عاهل الفرس والاسكندر قائد اليونان .

ومن ثم اصبح لمصر تاريخ مرتبط بالفرس واليونان والرومان . وقد اتسعت علاقات الإغريق تجارياً بالشواطىء الشرقيـــة ، واتسعت مع مصر خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

وعندما ثبت الفرس أقدامهم في مصر ٥٢٥ قبل الميلاد تحولت الى ولاية فارسية . ولم يمنـــع ذلك من تدفق افواج الإغريق على مصر حتى فتحها الاسكندر ٣٣٢ ق.م .

ولما جاء الاسكندر رحب به كهنة آمون ورسموه ابناً لكبير آلهتهم . ومنحوه سائر الالقاب الفرعونية . ويرجع السر في ذلك انهم اعتـــبروا الاسكندر منقذاً لهم من حكم الفرس بعد ان هزمهم في أغلب ما يملكون من البلاد . ويعد فتح الاسكندر لمصر في نظر المؤرخين بمثابة نقطة تحول كبرى ، اذ ينتهي عندها تاريخ مصر الفرعونية . ويبدأ تاريخ جديد استمر الف عام بين اليونانية والرومانية .

فلما توفي الاسكندر ورثه البطالسة . فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية . وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب ، وكان لذلك أثره في العقائد والثقافات والفكر كله .

وفي هذه الفترة تحولت الكتابة من المصرية القديمة ممثلة في الهيروغليفية الى الأبجدية اليونانية . أما بطليموس فقد اقام في مصر ملكاً متوارثاً لأبنائه وأحفاده طيلة ثلاثة قرون من الزمان . وفي هذه الفترة أنشأ اليونان المعابد في مصر لآلهتهم الإغريقية . « وحاول بطليموس ان يوحد بين المصريين والإغريق عن طريق الدين ، فانتهى الى ديانة الثالوث المقدس، وكان على رأس هذا الثالوث إله مصري قديم هو (أوزوريس ابيس) فوضعوا له اسماً اغريقياً هو (اسرابيس) وقدموه للاغريق في صورة اغريقية خالصة كي يرتضوه إلهاً ويقبلوا على عبادته[1] » .

وكان الاغريق يعتبرون أنفسهم أصحاب حضارة رفيعة تسمو كثيراً على حضارة المصريين ، وأبناء جنس هو أسمى الأجناس البشرية بلا استثناء .

« أما المصريين فقد (تأغرقوا) فقد تعلموا اللغة الاغريقية وأتقنوها قراءة وكتابة . واتخذوا لأنفسهم أسماء اغريقية ، وأقبل الإغريق على عبادة الآلهة الفرعونية التي خلعت عليها مسيحية اغريقية طفيفة » .

ثم لم تلبث مصر ان انتقلت الى النفوذ السياسي والثقافي للامبراطورية الرومانية . وقد استغرق تحويل حوض البحر المتوسط الى امبراطورية رومانية نحواً من قرنين ونصف قرن . وكانت مصر آخر ما سقط في أيدي الرومان من اقطار هذا البحر عقب موقعة (اكتيوم) ودخول اغسطس مصر في اول اغسطس (٣٠ ق.م) وأصبح هذا العام حداً فاصلاً في تاريخ روما

---

(١) محمد عواد حسن ـ حوليات كلية الآداب م / ٣ / ١٩٥٥ .

بين نهاية العصر الجمهوري وبداية العصـــر الامبراطوري . وقد قامت الامبراطورية الرومانية او تكاملت .

وبعد ان كانت مصر دولة مستقلة تحت حكم البطالمة بالاسكندرية أصبحت ولاية تتبع سلطان روما . وفرضت روما على مصر خزينة مالية هي قمح مصر .

والمعروف ان كليوباترة ابنة بطليموس الزمار اعتلت عرش ابيها مشتركة مع اخيها بطليموس الثالث عشر ، وتزوج الأخوان وفقاً للتقاليد الموروثة ، وانتهى دور كليوباترة بزوال دولة البطالمة وتحويل مصر الى ولاية رومانية .

وجاءت المسيحية ودخلت مصر على يد القديس مرقص عام ٥٤ ميلادية . وبدأ صراع عنيف بين المسيحية والوثنية . وكان للدولة الرومانية الحاكمة موقف غاية في الظلم والقسوة والفتك في مواجهة الديانة الجديدة . وكان كلما تقدم العهد نجد المسيحية تثبت أقدامها في مصر بينما تنهزم الوثنية الرومانية منها حتى اعترف الامبراطور قسطنطين بها ديناً رسمياً له وللدولة عام ٣٢٥ وتحول كثير من المعابد المصرية الى كنائس . ثم اغلق الباقي حتى جاء الامبراطور جوستنيان فأرسل قائده نرسيس الى جزيرة (فيلة) حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس وأوزوريس[١] وقد قدمت المسيحية في مرحلة الاضطهاد الكثير من ابنائها الشهداء، وخاصة ايام حكم (روفلستان) حوالي ٢٨٤ م .

وفي مصر بدأت الرهبانية ، وأقيمت أديرتها في كل مكان وبدأ تقارب واضح في الفكر والعقائد والثقافة بين القبطية من ناحيـــة ، والفرعونية واليونانية من ناحية اخرى ، وظهرت اللغة القبطية جامعة بين الهيلوغريفية

---

(١) المقتطف م ١٩٤٤ .

والابجدية اليونانية . وقد انقسمت الى خمس لهجات ، واستمدت الحروف الصائتة الى جواب الحروف الصامتة .

وكانت لمدرسة الاسكندرية الفلسفة أثرها البعيد المدى في الطابع الذي عرفته المسيحية . وكان من اكبر اعلامها . ميلون وأفلوطين .

وقد كان دخول المصريين في المسيحية بمثابة احتجاج صامت ازاء ظلم الرومان الذين اقاموا نظام العبودية الصارخ الذي استنزف المصريين وجعلهم حطاماً لعبادة الفرعون . فقد وجدوا فيها تحررهم من ظلم الحاكم ومن الوثنية المغرقة .

يقول العلامة الأثري ماسبيرو في محاضرة له : لو كان عامة الشعب من المصريين هم الذين اعتنقوا النصرانية لتغيرت مداركهم . ولكن الذي حدث ان رجال الطبقات العالية من الوثنيين من سلالة روساء الكهنة واصحاب الاقطاعات والعظماء استسلموا لتيار هذا الدين بعد ان قاوموه مدة من الزمن . غير انه بقي طي" ظاهرهم النصراني كثير من الروح المصرية القديمة وقد قيل كما تعلمون انالكنيسة الاولىللعهد الاول للمسيح استمدت تعاليمها منمصدرين: انطاكيه والاسكندرية[1] .

ويرى كثير من الباحثين والمؤرخين تأسيساً على هذا الرأي ان الفرعونية لم تضمحل ، بل اتخذت من ظهور المسيحية ذريعة لتجديد حياتها بضع مئات من السنين قبل ظهور الاسلام وان هنـــاك تشابهاً واضحاً بين الفرعونية والنصرانية . وان هناك اواصر تجمـــع بين قواعد العقيدتين وقد اشار جوستاف لوبون الى ان اغلب آلهة المصريين تظهر بشكل الثالوث من الأب والأم والابن . وكل مدينة تعبد خاصة احد هذه الآلهة الثلاثة . ولكن هناك

---

(١) محاضرة ماسبيرو في ١٩ نوفمبر ١٩٠٨ (المقطم) .

ثالوثاً واحداً بينها هو (أوزوريس ، وإيزيس ، وحورس) .

وكان نظام الاكليروس ، او توظيف رجال الدين قائماً في الفرعونية كما هو في النصرانية ـ وكان للمعابد الكبيرة ولرؤساء الكهنة في وادي النيل حرس خاص على نظام الميليشيا لتنفيذ الاوامر كما كان موجوداً عنده بأبواب القرون الوسطى كما لا يزال موجوداً في الفاتيكان .

وفي الديانة الفرعونية كانتنظيم الاستبداد او تبرير الظلم ونظام الطبقات القائم على سيادة الكهنة وعبادة الفرعون ـ وهناك العبوديين المنبوذين الذين لا يرقون ابداً الى مصاف الطوائف المتحررة . وهو شبيه بالنظام العبودي في فارس وفي اليونان وفي الامبراطورية الرومانية . وهناك من التشابه بينالمسيحية والفرعونية مسائل القربان وقداسيه والموسيقى والأناشيد والخمر والخنزير وتوابيت الموتى ، والعلامات والرموز . والرباط الذي لا ينفصم بين الديانة القديمة وبين النصرانية في مصر هو اللغة الهيروغليفية العامة[1] وكما التقت المسيحية في الغرب بالوثنية الاغريقية وتشكلت في اطارها فاقتربت من نفوس الوثنيين فاعتنقوها . كذلك تشكلت المسيحية في البيئة الفرعونية بالمعتقدات القديمة . لذلك امكن ان يتقبلها الفكر المصري ويعتنقها .

---

(١) احمد صبري ـ قناع الفرعونية .

الفصل الثامن

الوثنية العربية

كانت الجزيرة العربية قد عرفت التوحيد منذ دعوة ابراهيم واسماعيل . ولكنها لم تلبث مع مرور الزمن ان داخلتها الوثنية . فانحرفت عن عقيدتها الخالصة .

والمؤرخون على « ان الوثنية في الحجاز وجزيرة العرب كانت مرضاً أجنبياً طارئاً عليها من شرق الأردن . وبلاد كنعان حمله منها عمرو بن لُحى في بعض الوقت الذي تولت فيه خزاعة الحكم في الحجاز قبل الهجرة بنحو أربعمائة سنة ، فهي أقصر وثنيات العالم عمراً » ولأنها قصيرة العمر لم تقم لها في بلاد العرب هياكل ولا تهاويل او أنظمة وأساطير كالتي كانت للوثنية العريقة في الهند والصين ومعابد أثينا وروما .

« ولقد كان لحنيفية ابراهيم بقايا امتدت الى زمن البعثة المحمدية ، بل كان في العرب بقية من شريعة نبي الله شعيب » .

وقد تركزت الوثنية العربية في الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، وعبادة قوى الطبيعة (الشمس والقمر والنجوم) وعبادة الحيوان وعبدوا تمثـــال الانسان (أساف ونائلة وعبدوا اللات والعزى) .

يقول هشام بن الكلبي في كتابه «الأصنام» ان الذي سنح بالعرب الى عبادة الأوثان انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة . فحيثما حلوا وضعوه، وطافوا كطوافهم بالكعبة . ثم سنح بهم ذلك الى ان عبدوا ما نحتوا ، ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان، وصاروا الى ما كانت عليه الامم من قبلهم . وانتجثوا (أي استخرجوا) الاصنام الخمسة التي عبدها قوم نوح عليه السلام فعبدوها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتنسكون بها . وهي أصنام ود (على صورة رَجُل) وسواع (على صورة امرأة) ويغوث (على صورة أسد) ويعوق (على صورة فرس) ونسر (على صورة نسر) .

وعرف العرب الكهانة والعرافة وزجر الطير وضرب الحصى وخط الرمل والاستقسام بالأزلام والميسر والسحر . وهي مما نقل اليهم من عقائد الأمم المجاورة ، وهو ما أطلق عليه اسم الجاهلية . والجاهلية تعني نبذ التوحيد الصرف الذي جاء به ابراهيم واسماعيل .

---

(١) الرعيل الاول – السيد محب الدين الخطيب .

(٢)

يقسم الباحثون الجاهلية الى جاهليتين : جاهلية الفطرة وجاهلية الفترة (وهي أن يكون للأمة حضـــارة فقدتها وتدهورت حياتها) وجاهلية العرب : جاهلية فترة موقوتة تحمل آثاراً قوية من حضارة او حضارات سابقة .

والقرآن يشهد للعرب بحضارات سابقة فهم على دين ابراهيم . وأرسل الى العرب رسل منهم هود وصالح وشعيب ، ولكل رسالة دين ولكل دين حضارة[١] والجاهلية لا ينصرف معناها الى الجهل الذي هو ضد العلم . وانما الى ما كان سائداً بينهم من وثنية من ناحية والى معنى الجهل الذي هو ضد الحلم وليس ضد العلم[٢] وأبرز معالم الوثنية العربية :

اولاً : (الربا) وقد جاء اليهم من اليهود . فقد كانت اليهودية والنصرانية في جزيرة العرب وكانت التجارة بين الشمال والجنـــوب ، وكان في الجزيرة العربية نقد الفرس ونقد الروم ، وهو يعلو ويهبط تبعاً لانتصارهم او هزيمتهم[٣].

---

(١) ابراهيم مصطفى من بحث له عن العصر الجاهلي .

(٢) الدكتور يحيى الجبوري : الجاهلية .

(٣) نفس المصدر .

وقد قام في الجزيرة العربية المجتمع الربوي بكل فساده وترفه وآثاره .

ثانياً : (وأد البنات) وقتل الأولاد ، وكانت بعض القبائل تئد مولودها اذا ظهر انه أنثى عقب ولادته مباشرة حيث تقذف به في حفرة وتهيل عليه التراب . وكانوا يعتقدون ان البنات رجس من عمل الشيطان ، وكانت هناك عادة الإماء متخذات أخدان ، وهناك الجمع بين الاختين .

ثالثاً : (عبادة الأصنام) وهناك الأوثان والحجارة والأشجار . وقد ذكر ابن الكلبي ان من بين الاصنام التي كانت العرب تعبدها ما يتمثل على صورة الانسان مثل هبل (وكان من عقيق احمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى ادركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب) ومنها أساف ونائلة. وقد وجد في الكعبة يوم فتح مكة ثلاثمائة وستين صنماً . وهناك (المقه) إله سبأ الكبير الذي لمع في مملكة سبأ زهاء الف عام . وبنيت له المعابد الضخمة ، وكانوا يتخذون من هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها الى آلهتهم . وقد عرف الصنم بأنه ما كان مصنوعاً من ذهب او فضة او خشب على صورة الانسان . أما الوثن فهو ما كان مصنوعاً من حجارة ، وهناك عبادة أبائل القبائل .

وقد عرف الشرك بأنه اتخاذ آلهة اخرى مع الله ، او اولياء من دون الله **«الذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»**

ولعل لليهودية والنصرانية أثر في شيوع هذه الفكرة : فكرة وجود وسيط يتقرب اليه ، وهو ما ينكره التوحيد انكاراً تاماً .

رابعاً : عالم السحر والارواح والاساطير والعرافة والجن والكهانة وعبادة النجوم والكواكب وهذه جاءتهم من الصابئة كما جاءتهم عبادة النار من المجوسية المتفشية في تميم وعُمَان والبحرين . وكان السحر والكهانة من أعمال رجال الدين . وأكثر السحرة كانوا من اليهود . والسحر طور من اطوار عقل الجاهلية . وكان هناك من ابرز السحرة اليهود لبيد بن عاصم .

خامساً : شرب الخمر واستباحة النساء والقمار : وكانت الخمر تجري على كل لسان . وكانت دنانها في الأديرة ، ويتجر بها اليهود والنصارى ، وكان هناك ارتباط بين شرب الخمـــر واستباحة النساء والقمار والميسر ، وكانوا يضربون خيامهم في بعض القرى ويَضَعُونَ فوقها راية تعلن عنهم فيشربون ويسمعون بعض القيان .

سادساً : الثأر وأكل مال اليتيم وظلم السادة المتجبرين وعبودية الفقراء .

●

وكان المجتمع الجاهلي في الجزيرة العربية يغص بالخرافات والأوهام والأساطير والسحر والتطير والتشاؤم . ومن هنا نشأت العرافة ، وهي باب من الكهانة التي تختص بالتنبؤ بالغيب بينما العرافة تكشف الماضي . وكانت تضطرب في جو هذه الحياة أعمال السحر المتصلة بالزجر والقيافة والعيافة والفراسة . وكانت صورة الساحر الى جنب صورة الكاهن . وكان الناس يلجأون الى هؤلاء وأولئك يبحثون عن الغيب .

وكان للكهانة والسحر شأن أي شأن وأثر كبير في اذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية ، وكانوا يرون في الكهان اطباءهم الروحانيين . فاذا رأى أحدهم رؤيا رهيبة فزع الى الكاهن ليعبرها له . وكان السحرة متصلين بالجن والسحر عرف به اليهود ، وهناك صلات بين الشياطين والسحرة هي صلات المعلم والمعلم وكان السحرة قادرون على التفريق بين المرء وزوجه . وكانوا يتطيرون ويستقسمون بالأزلام . والطيرة هي إفزاع الطائر بحصاة ، فاذا تيامن تفاءل . وكذلك الاستقسام بالأزلام وهي أسهم مكتوب عليها كلمتا الفعل والنهي عن الفعل .

وقد ظل الناس على اعتقادهم بالكهنة والعرافين حتى أبطل الاسلام ذلك كله . وكشف عن زيفه ، ونهى عن السحر والكهانة وعدهما من الموبقات ، وحرر النفس الانسانية من الأساطير .

الباب الثاني

الإسلام والعالم

الفصل الاول : الفتح الاسلامي

الفصل الثاني : القرون الوسطى المضيئة

الفصل الثالث : المسلمون والمتوسط

الفصل الرابع : التاريخ الاسلامي

الفصل الخامس : القرآن والأديان

الفصل الأول

الفتح الاسلامي

يقول أرنولد توينبي: «حمل الاسلام شعلة التوحيد بين المسيحية والهندوس. إن عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم . وإن في بقاء الاسلام امل العالم كله » .

نعم : لقد جاء الاسلام والبشرية غارقة في الاساطير والمظالم والأخطاء ، جاء ليخرجها الى النور . ويردها عما ارتكست فيه من انحراف في العقيدة وعبودية في المجتمع ، وفساد في الخُلُق ، جاء مجدداً دعوة الله الحق الواحد التي ارسل بها انبياءه ورسله منذ آدم عليه السلام . دعوة بعد دعوة ورسالة بعد رسالة ، حتى كانت دعوة محمد بن عبد الله خاتم الرسالات مجددة الدعوة الى الدين الحق ، للناس جميعاً .

جاء بالتوحيد في مواجهة الوثنية والإلحاد . وجاء بالاخوة العالمية في مواجهة العبودية والظلم . وجاء بتمام مكارم الأخلاق في مواجهة الإباحية والشر .

وبذلك كان الاسلام ديناً متكاملاً : عقيدة وشريعة وأخلاقاً . لا يعرف

التجزئة ولا الانشطارية ديناً ومنهج حياة ونظام ومجتمع تلتقي عناصره كلها في كيان واحد هو ذلك الانسان الذي استخلفه الله في الارض ، ومن ذريته تكوّن المجتمع البشري .

وقد واجه الاسلام مفاهيم الفكر البشري ، القائمة على نزوله مواجهة صريحة ، وكشف عن زيفها وصحيحها ، وأقام لها ميزاناً من الحق ، وعرض لمختلف الأخطاء والشبهات والتفسيرات التي انحرف بها البشر عن مفهوم الدين الحق ، ورد القضايا كلها الى اصولها الاصيلة التي جاء بها الانبياء للناس ، وكشف ان دين الله واحد ، وان ما وقع من خلاف انما كان من تحريفات البشر وتعبيراتهم ، وان رسالة الله للانسان واحدة منذ آدم عليه السلام الى البشر الى محمد ﷺ خاتم الانبياء .

ومنذ نزلت رسالة الاسلام للبشرية الى اليوم ، وهي ذات أثر واضح في الحضارات والشرائع ، والمجتمعات وأحداث التاريخ . فقد أنشأت البشرية خلقاً جديداً . وصاغت الفكر الانساني صياغة ربانية ، ووضعت حداً فاصلاً بين عهدين في التاريخ ، وبين فكرين في العقول والنفوس : وأقامت مجتمعاً جديداً على أساس فكرة الاسلام ، لم يلبث ان ثبّت أقدامه ووسع نطاقه حتى شمل ثلاث قارات : فوصل الى حدود الصين من الشرق والى حدود فرنسا من الغرب ، في أقل من سبعين عاماً ، نقل خلالها الى البشرية روحه ومفهومه وعقيدته ، وحرر هذه الامم جميعاً من نظام العبودية المرهق الذي قاسى منه البشر أهوالاً فيعبادة الفرعون والامبراطور والقيصر . ثم لم تلبث هذه الامم ان دخلت في دين الله الحق .

لقد قطع الاسلام الامتداد الفكري والنفسي والاجتماعي بين الامم التي اتصل بها قبل الاسلام وبعده ، قطع الامتداد مع عبادة الاوثان في الجزيرة العربية ، ولم يلبث ان قطع امتداد الوثنية في العالم كله ، وحطم الاصنام ،

وأطفأ بيوت النار ، واكتسح الديانات الأرضية كالديانة الزرادشية والهندوكية والبوذية اكتساحاً ملموساً ، ولم يدع لها من معتنقيها الا قلة قليلة .

●

لا ريب ان دين ابراهيم والانبياء من أبنائه جميعاً . قد حمل أصول الفكر الرباني الطابع الانساني ، الهدف المنزل من السماء ، والموحى به من عند الله ، والقائم على الحق والعدل ، غير انه لم يلبث ان انحرف بتفسيرات المتصدرين بأهوائهم .

ولم يكن بوذا ولا زردشت ولا المسيح يظنون انهم بعد موتهم سيرفعون الى مرتبة الآلهة . ومن هنا كان حرص الاسلام على تأكيد الفوارق العميقة بين الالوهية والنبوة ، وبين الله سبحانه وتعالى ، وبين علاقاته بالعالم والكون والبشر ، وكذلك كان واضحاً من القرآن تأكيده لبشرية محمد ﷺ « **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد** » . لقـــد انحرفت اليهودية الى المادية الطاغية ، وتأسيس الحياة على العنصرية والربا . ثم جاءت المسيحية فانحرفت الى الروحية الصرفة ، والنفرة من الحياة الدنيا بالزهادة والرهبانية . ثم جاء الاسلام ليقرر الحقيقة الأصلية المرتبطة بالفطرة والعقل والعلم ، لينشىء امة وسطاً الفرد فيه يتفاعل مع المجتمع . والمجتمع يتفاعل مع الفرد بغير زهادة مسرفة وبغير مادية طاغية .

(٢)

جاء الاسلام والدولة الرومانية تسيطر على الشام ومصر والمغرب من افريقيا منذ ألف سنة تقريباً ، ومنذ غزو الاسكندر لها . فأزال هــذه السيطرة ، وحرر هذه الأجزاء وأعادها الى اصولها العربية الأصيلة ، وواجه المجوسية الفارسية فأدال منها وأسقط سلطانها السياسي . وقضى على الوثنية والغنوصية ، وأزال عشرات من الديانات الضالة ، والعبادات المنحرفة .

عبادات الحيوانات في مصر والهند (البقرة والعجل والكباش والأوز) .
وعبادة قوى الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية .

وعبادة النيل وعبادة الفرعون وعبادة الشياطين وعبادة الملائكة وعبادة إلهي النور والظلمة وتعدد الآلهة عند اليونان والهنود والمصريين، وعبادة النار في فارس وعبادة عضو التلقيح ، عشــرات الهياكل ومئات الأوثان والأصنام .

سقطت هذه العبادات جميعاً واكتسح الاســلام هذه الدعوات الضالة وطاردها، ولم يدع لها من معتنقيها الا جماعات ضئيلة . وانطفأت بيوت النار وسقطت ، وحرر العقل البشري والنفس الانسانية من الفكر البشري الزائف من قول الدهرية ، ان العالم بلا إله ولا صانع ، ومن قول الطبيعين : ان

التراب والماء والنار والهواء اصول كل شيء . ومن قول الفلاسفة واليهود بانكار بعث الاجساد .

●

لقد ظلت الزرادشتية مسيطرة طول حكم الدولة الساسانية في فارس . لم لم تحنِ الرأس إلا حين هاجمها الاسلام ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في الماء على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين[١].

وحين تحولت البوذية الى دين خفي ذي أسرار عجيبة منها ان الإله يتجسد في بوذا لينقذ البشرية بأن يحمل عبء خطاياها القديمة ، ويحول بينها وبين ارتكاب خطايا جديدة ، لقد تحولت البوذية نتيجة لهذا رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء الى هذا العالم الأرضي من حين الى حين متمقصاً جسد أحد بني الانسان لينقذ البشرية في شخصيته .

لقد دحض الاسلام هذه الأوهام الضالة : أوهام الحلول والاتحاد وتناسخ الأرواح ، وكشف للبشرية عن زيفها كما حطم عبادة الفرعون والامبراطور والقيصر . لقد أجهز الاسلام حين جاء على البقية الباقية من (البوذية والبرهمانية) « فتفرقت[٢] البوذية شمالاً وجنوباً ، وظلت هناك حيث التقت بالاسلام ، وخصوصاً في جاوة وسومطرة . فصدمها صدمة قاسية لم تقو بعدها على النهوض ، وان كانت قد تبدلت وخضعت لأهواء الشعوب التي اعتنقتها وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين » .

وكذلك اكتسح[٣] الاسلام الديانة الزرادشتية في فارس اكتساحاً ملموساً.

---

(١) دكتور محمد غلاب — الفلسفة الشرقية .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

ولم يدع لها من معتنقيها الا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد فارس ، ونحو مائة الف في بلاد الهند وهم الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم للوحوش .

ولا ريب ان الاســـلام حين قضى على الزرادشتية : قضى على زواج الأمهات ، والجمع بين الأختين . فقد روى اليعقوبي في تاريخه ان المجوس يستبيحون زواج المحارم من البنات والأمهات . ويرون جواز الجمـــع بين الاختين . وقال ان الفرس تنكح الامهات والبنات وتذهب الى انها صلة لهن، وبرّ بهن وتقرب الى الله فيهن ، حتى جاء الاسلام فأعلن انه لا يحل للانسان ان يتزوجهن .

وكذلك حطم الاسلام عادات الوثنية واغراضها الضالة . فقد عرف العرب في الجاهلية زواج الأم وزواج امرأة الأب ، وعرفوا ما يسمى بنكاح القهار حيث يجتمع جماعة دون العشرة ويتزوجوا امرأة واحدة .

وهاجم الاسلام سلبية البرهمية ورضاءها بالضيم وقتلها الشهوات والرغبات، وإنكار ما في الحياة من مسرات . ودحض قولها انه لا خير في الجسد لأنه محل العاهات ، وكذب قولها انه لا قيمة للافراح والثروة والجاه والملك ودعوتها الى انكار متع الحياة ، والاقامة في الغابات ، وتحت الشمس المحرقة، والإيمان بأن الحياة تعاسة مستمرة ، وشقاء متصل . « لقد نكب الفكر الهندي منذ البداية بمذهب وحدة الوجود وأتلفته اوهام الكشف والذوق . واذا ترجمنا الفلسفة الهندية الى لغة لقلنا انها تنكر الوجود والواقع والشخصية الانسانية والخلاصة ان التفكير الهندي قد حطم الانسان . وهو يدعي تأليه الانسان[1] كما كذب دعوة مافي الى ترك العمل والزهد والرغبة عن ملاذ الحياة واستعجال الفناء . فقد قرر ان يعمل الانسان الى دنياه كأنه يعيش ابداً

---

(١) الدكتور زكي مبارك في بحث عن الجاهلية .

ولآخرته كأنه يموت غداً . وتساءل القرآن « **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** » وأجاب « **قل هي خالصة للذين آمنوا الى يوم القيامة** » .

وكما هاجم الاسلام دعوات قمع الشهوات وتجــــريد النفس وتهذيبها دون الارتباط بعقيدة في الإله . كذلك عارض الاباحية ، وهي الوجه الثاني للرهبانية . وزيف دعوة المزدكية ومفاهيم استباحة المحرمات ، والدعوة الى مشاعية النساء والأموال والاغتسال بالبول ورفض الذبائح ، ورفض إراقة الدماء .

وحطم الاسلام المجتمعات التي قامت علىالإفراط في اللذات واللهو الحثيث في فارس واليونان والرومان .

(٣)

ماتت حضارة الفراعنة واليونان والرومان قبـــل ظهور الاسلام ، أما الاسلامفقد أحيّا بقايا العلوم وجددها وصححها وصقلها ، وبدأ منها امتداده الى المنهج التجريبي .

لقد استطاع الاسلام ان يحرر مناطق عربيـــة واسعة سيطرت عليها الامبراطورية الرومانية حوالي ألف سنة بفكرها وعقائدها ولغتها ، فأزال سلطانها وحررها تماماً وأدخلها بوسقه :

يقول احد الباحثين المغاربة : قبل الميلاد دخلت روما بلاد العرب فاتحة ، واستقرت في مشرقها وفي مغربها قروناً كثيرة متعاقبة . واحتلت من الارض أكثر مما احتل الفرنسيون وبنت من القلاع والحصون أكثر مما بنى الفرنسيون، واستوطنت مدناً عربية وغيرت أسماءها بأسماء رومانية على غرار ما فعلت فرنسا ، وبسطت سلطانها ولغتها وقانونها ، وآدابها مثلما فعل الفرنسيون . ثم عصفت العاصفة بروما وهبت عليها الرياح الشرقية فغدت أثراً بعد عين .

لقد قضى الاسلام على نفوذ الأباطرة والقياصرة والفراعنة . ثم امتد الى الامبراطورية الفارسية ، فحررها من عبادة الفرد والوثنية . ونظام العبودية الذي تذل فيه الجماعات الكبرى للقلّة القليلة من الأكاسرة والامراء،وبذلك

حرر عالماً واسعاً من عقائد زائفـــة ونظام اجتماعي ظالم . وهذا هو سر استقبال الاهلين له ، وتقبلهم إياه . ذلك انه لم يفرض عليهم عقائده ، وانما أباح لهم حريتهم الكاملة ، وحماها في حدود قاعدته الأصلية « لا إكراه في الدين » فاذا دخلوا في دين الله أفواجاً بعد ذلك فبإرادتهم، بعد ان تحققوا من عدالته وسماحته .

لقد اندفع[1] المسلمون في الآفاق ليحققوا أمانة «عموم الرسالة» التي حملوها عن الرسول ، وكسر الحواجز المادية التي أقامها الحكام والأباطرة والأمراء رغبة في تحقيق اللقاء والتفاهم بين هذه الشعوب المغلوبة وبين كلمة الله ، والقضاء على الظلم الاجماعي والوثنية .

وقد استقبلت هذه الشعوب «الاسلام» بترحيب كبير وتقدير لا حَدّ له. لأنه لم يفرض عقيدته عليها ، بل أتاح لها القدرة على النظر والحرية في العقيدة تحت لوائه وحَفِظَ لها أنظمتها وأديرتها وكنائسها وحقوقها دون ان يفرض عليها شيئاً ، وأتاح لها الفرصة للتأكد بمزيد من الممارسة كيف يحقق الاسلام : العدل والمساواة .

هنالك اندفعت هذه الجموع بإرادتها الحرة الى راية الاسلام وباقتناعها العقلي والنفسي الكامل . لقد كان الايمان العميق بالله ، والثقـــة في نصره ، وطلب الموت في سبيل تحقيق «عموم الرسالة» وإبلاغها للعالمين . هو العامل الأول والأكبر . وكان المسلمون حين يصلون الى الأقطار يحررون أهلها من الظلم . ويقيمون بينهم العدل ، ولا يفرضون عليهم الاسلام . بل يؤمنونهم على أموالهم وأملاكهم ، ويتركون لهم حرية دينهم ، بل لقد تركوا الأرض

---

(١) الاسلام وحركة التاريخ .

لأصحابها على ان يدفعوا خراجها . بينما كان الأكاسرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض وملاكاً للعاملين فيها .

ومن آيات العدالة التي لم تعرفها البشرية قبل الاسلام تلك الصورة : « عندما شعر الفاتحون المسلمون بأن الروم تجهزوا في الشمال بحملة لا تقوى على صدها الحامية العربية المقيمة بحمص ، قرروا الانسحاب . وقبل ان ينسحبوا دعي أعيان الأهالي ورجال دينهم وعرض عليهم قائدها ان يأخذوا ما كان جُبِيَ منهم من أموال الجزية .

قال الأعيان : والله ان الروم لو أنهم جبوا من الأموال الاميرية . واضطروا الى مثل ما اضطررتم اليه ، لما أعادوا الينا ديناراً واحداً مع ما بيننا من وحدة الدين ، وان حكومة يكون فيها مثل هذه الرحمة ، وهذا الانصاف لا نرضى بها بديلاً . ونحن مستعدون لأن نَنضَمّ الى جندكم ، وان ندفع حملة الروم بكل من يستطيع منا حمل السلاح .

●

يقول الامام محمد عبده : الاسلام الحربي كان يكتفي بإدخال الارض المفتوحة تحت سلطانه . ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد ، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها ليكون عوناً على صيانتهم ، والمحافظة على أمْنِهم في ديارهم وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لا يضايقون في العمل . وكانوا يُوَصّون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا في الصوامع والأديار لمجرد العبادة . كما يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال . وكل من لم يعن على القتال . وجاءت السنة المتواترة بالنهي عن ايذاء اهل الذمة . وبتقرير مالَهُم من الحقوق على

المسلمين . لهم ما لنا وعليهم ما علينا . ومن آذى ذمياً فليس منا . فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الامم والطوائف التي تغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه قبل تغلبه عليهم . وبأن يعيشوا في هدوء لا يعكرون معه صفو الدولة . ومن جهة اخرى ينهى أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم .

(٤)

كان التوسع الاسلامي معجزة بحق أدهَشَت كل الباحثين . يقول ثور استروب : كلما ازددنا استقصاء باحثين عن سر تقدم الاسلام . زادنا ذلك العجب العجاب بهراً فارْتَدَدْنا عنه بأطراف حاسرة ، عرفنا ان سائر الأديان العظمى انما نشأت تسير في سبيلها بطيئة متلافية كل صعب حتى ان قيض الله لكل دين ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذبّ عنه حتى رسخت أركانه ، ومنعت جوانبها فبطل النصرانية (قسطنطين) وبطل البوذية (اسوكا) وكل منهم ملك جبار . أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأيد ، انما ليس الامر كذلك بالنسبة للاسلام .

الاسلام الذى نشأ في بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء حيث القبائل الرحل التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته من جهات الأرض مجتازاً أفدح الخطوب ، وأصعب العقبات ، دون ان يكون له من الامم الاخرى عون يذكر ، ولا أزرٌ مشدود . وعلى شدة المكابرة . فقد نصر الاسلام نصراً مبيناً عميقاً اذ لم يكن يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الاسلام خفّاقة في البرانس حتى هملايا . وفي صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط افريقيا.

يقول لوبون : ترك المسلمون الناس أحراراً في امور دينهم وأظلوا بحمايتهم أساقفة الروم ، ومطارنة اللاتين ، فنال هؤلاء ما لم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة ، وأمن عمر بعد ان دخل القـــدس الناس على أموالهم ودينهم .

ويقول لوبون: كان يمكن ان تعمي فتوح العرب الاولى أبصارهم، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ، ويكرهوهم على اعتناق دينهم ، ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الامم ، ولكن الخلفاء الأولين الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة أدركوا ان النظم والأديان مما لا يفرض قسراً . فعاملوا أهل الشام ومصر وأسبانيا وكل قطر بلطف عظيم تاركين لهم عاداتهم ونظمهم ومعتقداتهم. والحق ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب . وكانت هذه الرحمة سبباً في اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات عليها وبقيت قائمة ، بعد ان توارى السلطان السياسي على مسرح العالم .

ويقول لوبون : ان تسامح المسلمين والعرب مما لم تصل اليه اووبا بعد . مع ما قامت به في اكثر من ألفي سنة من الحروب الطاحنة ، وما عانته من الأحقاد المتأصلة ، وما منيت به من المذابح الدامية .

لقد اكرهت مصر على اعتناق النصرانية . ولكنها هبطت بذلك الى حضيض الانحطاط التي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي . ولا تزال مصر ملأى بأنقاض ما هدمه تيودور سنة ٣٨٩ م ذلك القيصر النصراني المخرب المتعصب . كان العرب يحترمون اهل البلاد المفتوحة ويتركون لهم حريتهم الدينية . فقد عامل عمرو بن العاص المصريين بما لم يعرفوه من العدل والانصاف

واحترم نظم المصريين وعاداتهم ومعتقداتهم ، وشمل الديانة النصرانية بعطفه وحمايته . وسمح للاقباط ان يستمروا في اختيار بطريرك لهم ، ولم يمنع النصارى من إنشاء الكنائس في المدينة الاسلامية التي أسسها المسلمون . ولم تكن التعاليم الاسلامية لتفرض على اتباع الديانات الاخرى بالقوة وبحد السيف لقوله تعالى : « **لا إكراه في الدين** » ولذلك كان الانسجام بين العرب وبين الأمم قوياً جداً ، وكان حب الأمم للعرب خالصاً وأكيداً . بل وصل الى حد التقديس .

وللاسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين قال بالتوحيد الخالص المخلص . وبأنه أول دين نشر أتباعه ذلك التوحيد في العالم ، والذي حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الاسلام واتخذ العربية لغة له وذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله . ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى .

●

وفي الحق ان الاسلام قد جعل السلم قاعدة والحروب ضرورة . ولم يكن يقاتل غير المسلمين لإنكار عقيدة او فرض عقيدة ، ولكنه كان يقاتلهم اذا وقفوا في وجه دعوته . وقاوموا فكرته . وعمدوا إلى ايذاء أهله ، وهو لذلك لا يمتنع عن إقامة العلاقة بينه وبينهم اذا هم لم يحاربوا الاسلام والمسلمين ولذلك حرم الاسلام قتل الاطفال والشيوخ والنساء والنساك والرهبان الا من اشترك فعلاً في الحرب وأضر بالمسلمين .

وقد وجه الاسلام دعوته الى جميع الشعوب دون اعتداد فيه بالجنسيات والأصول . يقول أرنولد توينبي : « حرر الاســـلام ساحل البحر الأبيض

المتوسط من سلطان اغريقي روماني مسيحي من سوريا الى أسبانيا . عبر شمال افريقيا . وكانت تلك البلدان تحت الحكم الإغريقي الروماني نحـــو ألف من السنين منـــذ فتـــح الاسكندر الأكبر للامبراطورية الفارسية . وإسقاط الرومانيين لقرطاجنة . وذلك بين القرن الحادي عشر والسادس عشر قبل الميلاد » .

(٥)

لم يكن مصدر النصر الاول ضعف الدول او التطلع الى الثروة ، وإنما كان مصدر النصر الأكبر هو عمق مفهوم الاسلام وسلامته وقربه من الفطرة الانسانية ومطابقته للواقع ، من أجل بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد، كانت القوة الدافعة هي إيمان عميق لهذه الجماعة لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل رفع لواء الاسلام الى كل أرض ، أما السلطان والثروة والغنيمة . فلم يكن في المرتبة الاولى ، ولم تكن وسائل المسلمين الحربية هي مصدر نصر في مقاييس الحروب وتعبئة الجيوش ، فقد كانوا في كل معاركهم أقل من عدوهم مراراً . وكانت هناك فوارق بعيدة في العدد والعدد، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو الحرص على الموت .

ان معجزة الفتح الاسلامي لا يمكن تفسيرها في ضوء مقاييس الغرب المادية . يقول أحد المؤرخين الأجانب : ان التاريخ لم يشهد قط ظاهرة مثل هذه الظاهرة من قبل . ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقق بها الاسلام فتوحه، والتي تحول بها من دين يعتنقه بضع نفر من المجتمعين حول النبي الى دين يدين به ملايين الناس . ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنت جماعة من المحاربين الحفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة والثروة والخبرة والقدرة

على شنّ الحرب . ومن ادعى الامور الى الدهش ان نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس ان يحتلوا تلك المناطق كلها . وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حتى القرون المتعاقبة قرناً بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها . وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا . وأن يحتفظوا بحيوية فائقة لم تعرفها الأديان الاخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد . « كانت ستة عشر سنة قد انقضت على الهجرة عندما انهارت الامبراطورية الفارسية نهائياً . وهي التي ظلت الحرب سجالاً بينها وبين الامبراطورية البيزنطية » . « لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان فاذا بفيض جديد من حياة عارمة تتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى . لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل يخاطب العقل والقلب جميعاً . وبدأ الذهب الذي كان مخبوءاً في صناديق السراة ينتقل الى أيدي الفقراء مستهلاً نظاماً من التداول السليم كرة اخرى » .

●

ان هناك محاولة لتفسير الفتح الاسلامي تقوم على القول بأن الامبراطوريتين الفارسية والرومانية كانتا قد وصلتا الى حالة من الضعف والانحلال . والحقيقة ان هذه شبهة أريد بها التقليل من أهمية الفتح :

يقول الدكتور شكري فيصل[١] : ان القول بأن الامبراطورية الساسانية كانت هرمة ، ما من شيء أقرب الى المغالطة ، وأبعد عن الصواب من هذا. فالامبراطورية الساسانية لم تكن عاجزة بدليل من هذه المقاومة العنيفة التي استطاعت ان تجبه بها الجيوش الاسلامية ، ولم تكن هرمة . لأن أنوشروان كان قبل عقود قليلة من السنين قد جدد فتوتها ، وصقل عزمها . ونفخ فيه

---

(١) كتاب حركة الفتح الاسلامي .

من روح الحياة والشباب ، وكان هناك هذا التوافق العجيب من مولد الرسول صلوات الله عليه ، وحكم أنوشروان ، كأنما هو الرائد على ان رسالة النبي لن تمضي في الارض سهلة . وان المقاومة قد جندت لها منذ فتح صاحبها عليه السلام عينيه للضياء والنور . غير ان موقف فئة قليلة من الفرس الذين استجابوا للدعوة : أسلموا وأسهموا في حركة الفتح في القادسية ، وكان لهم فضل في إنقاذ الجيش من شر الفيلة . فقد سألهم سعد عن مقاتلها فدلوه منها على المشافر والعيون ، وانه لا ينتفع بها بعدها .

وموقف الفرس كان موقف مقاومة عنيدة . والغلبة التي استطاع المسلمون أن يحققوها لم تستمد عناصرها من حياة الفرس الداخلية ، ولا من هموم الامبراطورية ، وإنما استمدت عناصرها من حياة المسلمين الداخلية من قوة اندفاعهم وإيمانهم بالذي يحاربون من أجله ، وحرصهم على أن يشاركهم الناس نعمة هذا الايمان الجديد . واستيراثهم الارض على أنهم عباد الله الصالحون» .

والأمر بالنسبة للروم كان كذلك جد خطير ، ولم يكن نصراً سهلاً : والروم لم ينزلوا عن الشام في يسر وبساطة[1] بل جهزوا كل ما قدروا عليه من جيوش . وخاضوا كل ما ملكوا أن يخوضوا من معارك واستنفروا كل ما كان في وسعهم ان يستنفروه : العرب وأهل أرمينية والبيزنطيين وسكان المقاطعات . واستطاع الروم أن يجندوا مائة ألف او خمسين ألفاً على الأقل في (اليرموك) بكل ما يحتاج اليه هذا العدد الضخم من عدد ، ولم يكن لدى العرب أساليب حربية قط غير إيمانهم وشجاعتهم . وتحريم تولية الظهر إلا تحرفاً لقتال . « وحاربوهم على أرض عرفوها معرفة تجربة وخبرة وممارسة خلال القرون الطويلة . والحق ان الروم كانوا يهملون هذه النقلة النفسية العميقة التي أصابها العرب في الدين الجديد ، وكانوا على غير وعي

(١) نفس المصدر ـ حركة الفتح الاسلامي : دكتور رشدي فيصل .

واضح بحقيقتها البعيدة ، وانها نظام جديد آمن به العرب ، فوهبهم حياة داخلية تغاير كل ما كانوا عليه وانهم دعوا الى هذا النظام وأرادوا غيرهم على الايمان به . وخرجوا من أجل هذه الغاية التي كانت تتيح لهم خير الدنيا والآخرة .

أعمت هذه الجهالة الروم عن تقدير قوة العرب . وعن تقويم هذه العقيدة التي تكمن وراءها ، فلم يستطيعوا أن يضعوا الهجرة في غير موضع الهجرات السابقة ، ظناً انها الغارات . ثم لا يلبثن ان ينجلين ،ولذلك أطالوا في القتال . ومدوا في أيامه مؤملين ان يمل العرب . ولكن العرب في هذه المرة لم يكونوا عرباً مرتادين ، ولكنهم كانوا عرباً مسلمين ودعاة مهاجرين ، ولم يكونوا من هذه القبائل الشمالية التي تنشد النفع ، ثم ترتد فحسب ، ولكنهم كانوا من كل أطراف الجزيرة لا يردهم عن غايتهم شيء ، لأنهم ليس لهم الا احدى الحُسْنيين ، وليس لأعدائهم الا اختيار واحدة من ثلاثة (الاسلام ، او الحرية ، او الجزية) لقد غاب عن فطنة الروم ان نبياً قضى ثلاثة وعشرين عاماً يعد هؤلاء الناس لهذه الدعوة . وان هذا الاعداد هو العدة التي كانت تنقص الروم وتزخر بها جيوش المسلمين » .

(٦)

وهناك محاولة أخرى لتفسير الفتح الاسلامي قال بها بعض المستشرقين . وتابعهم بعض الأدباء : هو ان العرب كانوا قد وصلوا الى درجة من الرقي تؤهلهم لنهضة أدبية . فلما جاء النبي نهض بهم فنهضوا[١] .

وتلك فرية مضللة وشبهة كاذبة : وقد دحضها العلامة محمد فريد وجدي حين قال : ان بعض المستشرقين لما هالهم نجاح النبي في المهمة التي ندبه الله لها في بيئة من أعصى البيئات على مثلها ، زعموا ان قريشاً كانت قبل رسالة النبي في دور نهضة اجتماعية وأدبية ، وان دعوة النبي صادفت هذا العهد فنجحت نجاحاً لا يحدثنا التاريخ عن مثله . وهناك دليل محسوس يدل على فساد ذلك : الهجرة هي الدليل المحسوس فإن قوماً يلبث فيهم مصلحهم الاجتماعي ثلاثة عشر عاماً يدعوهم الى القيام على سنن الحق فما يعملون وما يعتبرون . ان قوماً على هذا النحو من الجمود على القديم الرث ، والباطل المحض لجديرون بأن لا يعتبروا في دور نهضة أدبية او اجتماعية . ان المجتمع الذي يقابل الداعي بهذا النفور العظيم ، وينتهي أمره الى الخضوع له كرهاً بعد تطاحن طال أمده عشرين عاماً لا يعتبر انه استعد لإقامة دولة ، فلو

---

(١) دكتور زكي مبارك : النثر الفني .

ترك وشأنه لبقي على ما كان عليه ، ولو كانت قريش أقرب العـــرب الى الحضارة لقابلت دعوة محمد بصدر رحب ، واحتلت المكان اللائق بها ، ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وإبطال دينهم ولساغ ان يقال ان محمداً لم يعمل اكبر مما يعمله البناء : وجد أحجاراً منحوتة ومواد مجهزة ، فأقام بها قصراً فخماً .

أما وقد أراد الله أن يجعل محمد مركز دعوته يثرب التي يسكنها الأوس والخزرج وهما من مهاجري اليمن ، وليس لهم أقل ميزة على العرب ، ولم تكن لهجتهم بالقويمة المتنخلة ، ولا جبهتهم بذات القوة والمنعة ، بل كانوا أسوأ ما تكون عليه قبيلتان من التناحر ، وتنازع البقاء . أما وقد أراد الله أن يتخذ من هاتين القبيلتين أنصاراً لدينه ، ومدينتهم عاصمة لدولته بعد أن خذله أقوم العرب لهجة . وأقربهم للنهوض مطية ، فقد أمكن كل ناظر ان يقدر عظمة روحه العلوية اذ تولى أبعد القبائل عن مظنة التأهل للنهوض ، وأعطاها وسائل لتقويم أودها ، فصاغ منها نواة تصلح ان تبنى عليها مواد النماء والاكتمال ، وأن يحييها ويخرجها من جمودها القديم ، وأن يؤلف منها مجتمعاً مملوءاً حياة وقوة يصلح للقيام بنفسه ولاحداث أكبر حدث في العالمين » .

وليس أدلّ على عظمة المعجزة ، وأنها من صنع العقيدة الصادقة : « ان قريشاً وهي أرقى القبائل لغة وفهماً ومكانة لم يقبل دعوة منها النبي إلا رجال ونساء لا يربو عددهم عن بضع عشرات ، ان اتباع النبي الاولين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا الى بلاد الحبشة ، وان الجاهلين كانوا يهزأون بالدعوة للدين وبالداعي اليه ، وان النبي لبث على هذه الحال من الاضطهاد ثلاث عشرة سنة ، ولما أنست قريش من النبي الهجرة قررت قتله وأرصدت له . ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره ، كل هذا ينطق بلسان فصيح ان

قريشاً وهي مظنة النجابة والفهم من العرب في ذلك العهـــد ، لم تكن قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة . فإن المجتمـــع الذي يقابل الداعي للتجديد والنهوض بهذا النفور ، ويصرّ عليه ثلاثاً وعشرين سنة لا يزداد بعدها إلا عناداً وتشدداً هو مجتمع متخلف[1]» .

إذن : فما هو سرّ المعجزة . ان التفسير المادي للتاريخ غير صالح لتفسير الاسلام .

---

(١) فريد وجدي : البلاغ سنة ١٩٣١ .

(٧)

أجمع المؤرخون والباحثون على أن البشرية[١] لم تعرف من عهد الاسكندر الى عهد نابليون فتحا أوسع ولا أسرع من الفتح الاسلامي الذي امتد في أقل من ثمانين عاماً من الصين الىفرنسا ، وميزة أخرى بالإضافة الىالسعة والسرعة انه فتحٌ أبديٌ . فلم يعرف ان المسلمين دخلوا بلاداً وخرجوا منها إلا الاندلس . وقد بقيت روح العرب والمسلمين في الاندلس برغم نصرانيتها وأسبانيتها ، ذلك لأنهم لا يفتحون البلاد بسيوفهم . ولكن يفتحون القلوب والعقول بعدلهم وعلمهم .

« كانت القاعدة العامة في كل الفتوح ضمالبلاد المفتوحة الى أملاك الفاتحين. ولم يخرج عن هذا الا الفتح الاسلامي الذي كانت غايته نشر الاسلام، والسعي لإعلاء كلمة الله كلها ولم يكرهوا أحداً على الاسلام » .

« ان أعظم الفتوح الاسلامية ما أورثت الانسانية من حضارة وعمران ، وما خدمت العقل البشري وأمدّته بأسباب القوة والحياة ، بالإضافة الى ما انطوى عليه الحادث التاريخي نفسه من بطولة نادرة » .

« لقد كان الفتح الاسلامي في مجال العلم والثقافة أكبر حدث علمي ،

---

(١) عن مجلة الرسالة : عدة أبحاث سنوات ١٩٣٦ – ١٩٣٨ – ١٩٤٦ .

لأنه حمل الى البلاد التي فتحها علم السماء والارض فحرر عقولها بالتوحيد . وأعتقها من عبودية الاحجار والاسحار والقسس والاشراف ووضع في يدها القرآن الذي يأمر بالتفكر في خلق السموات والارض ، ويحفز الى البحث والاستدلال والنظر ويجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولولا الفتح لم يكن عقل القرن العشرين ، وهو أعظم حادث في البطولة والفكر والعمران» وهو فتح لم يلزم أحداً او يفرض عليه العقيدة ، او يسوقه الى ذلك الا بالاقناع « **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** » في حدود قاعدة كبرى « **لا إكراه في الدين** » أين هذا مما يذكره توماس أرنولد عن أسلوب الغربيين في التبشير بالدين والدعوة اليـــه يقول : « في بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء الى ما فعله القديس ليودجر والقديس ويلهادين السكونيين الوثنيين أكثر مما يصغي الى أخبار التعميدات المسيحية التي كان (شارلمان) يفرضها بحد السيف ، ومن ثم أخضع الامم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حرب طاحنة مدفوعاً بما كان يضطرم في نفسه من شوق الى نشر العقيدة ، وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد والاسقف كريستان من نجاح في تنصير البروسيين الوثنيين . وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما كانوا بحق اكثر تمثيلاً لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف وغيرهم من الصليبيين ، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار، ولقد فرض فرسان المسيحية على شعب ليفونيا فرضاً » .

وأشار أرنولد الى الملك أولاف تراتجفسون الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبـَوْا الدخول في المسيحية ، او تقطيع أيديهم وأرجلهم[1] .

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن المسيحية فاقت الاديان كلها في إكراه

(١) الدعوة الى الاسلام – توماس أرنولد صفحات ٣٠ الى ٣٢ .

الناس على اعتناقها ، وقد ارتكبت فظائعها باسم السيد المسيح الذي قال في خطبة الجبل «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم[1]» .

•

أما الاسلام فانه في نفس الوقت الذي دعا الى عقيدته بالحسنى ، فانه حفظ الاديان الاخرى وحماها وكرم أنبياءها . يقول توماس أرنولد : « ان الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم . وان جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء ، بل ان هؤلاء الحكام من المسلمين هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض ، ويكفلون الحرية الدينية للجميع » أين هذا من موقف أوربا المسيحية إزاء المسلمين في الاندلس والبلقان وغيرها .

ولقد سجل الاب متشون في مثل هذه المقارنات قوله : انه لمن المحزن ان تكون الامم المسيحية مضطرة ان تتعلم التسامح الديني من الاسلام ، ويقول أرنست رينان في كتابه: حياة يسوع: ان النصرانية لم تعرف التسامح الديني.

ويقول بييرو روندو معلقاً على هذا الخلاف العميق بين موقف الغرب من الاسلام ، وموقف الاسلام من المغرب : كان في وسع الاسلام حل مشكلة النصارى في الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل لأن دعوته لم تقم على الفتح في الاساس ، ولم يكن ثمة (إكراه في الدين) لهذا لم يتعرض الاسلام للنصارى واليهود ، ولم يخيرهم بين الموت او اعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يخضعهم لشريعته .

---

(١) توفيق الطويل – قصة الاضطهاد الديني .

الفصل الثاني

القرون الوسطى المضيئة

ان أثر الاسلام في تاريخ البشرية كلها ، وفي تاريخ أوربا والعالم الغربي والمسيحية . لا سبيل الى تجاوزه أو انكاره ، ذلك انمعطيات الاسلام كانت بحق مصدر التحول الخطير الذي عرفه العالم بعد الاسلام ليس فقط في الاجزاء التي سيطر عليها الاسلام ، بل وفي كل مكان وصل اليه ضوء من فكره وثقافته.

وقد ظل الاوربيون وقتاً طويلاً ينكرون هذا الأثر ويتجاهلونه حتى جاءت أقلام منصفة في السنوات المائة الاخيرة . فكشفت كثيراً من هـــذه الحقائق . منها أقلام جوستاف لوبون وتوماس كارليل وآخرين .

ويعتبر الاستاذ هنري بيرون مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) ان نقطة التحول الخطيرة التي حولت مجرى التاريخ الاوربي هي الاسلام . ويترتب على هذا ان العصر الوسيط والنهضة الحديثة هما ثمرتان من ثمرات ظهـــور الاسلام . وهو بهذا يرد الزيف الذي ظل مسيطراً وقتاً طويلاً على التاريخ

الغربي من ان حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية هي الفاصل بين العصور القديمة والعصور المتوسطة . ويقول ان الاوربيين قد منعهم تعصبهم القومي في صـــدر نهضتهم ان يعترفوا بأن ظهور الاسلام هو الحادث الانساني الكبير الذي غيّر مجرى التاريخ ، وانه هو الحد الفاصل بين القرون الاولى والقرون المتوسطة . ويرى هذا بيريه (ويتابعه في هذا الرأي كثيرون) انه ليس اجتياح الشعوب الجرمانية حدود الرومان هي نقطة التحول في التاريخ الاوربي ، وان هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة بحيث كانت تنظر الى الرومان نظرة العبد الى السادة . فما كان يخطر لها ، بل ما كانت ترغب أبداً ان تناوىء روما وتقضي عليها .

أما المسلمون فكانوا يعتقدون انهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أسباب الحياة . ولا سيما من الناحية الدينية التي كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم . فلم يتوقفوا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم . وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها سليبة من أسباب الحضارة ، ومن العقيدة الدينية الراقية . فكانت تتخذ حضارة الرومان ودينهم تشبها وتقليداً .

أما الشعوب الاسلامية فكانت ترى نفسها جديرة بأن تمنح الرومانيين ديناً جديداً وترشدهم الى مدنية اخرى .

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها . وكل ما حدث ان انتقل مركزها من روما الى بيزنطية . وأصاب حالتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد .

ولكن لم تكد تهب ثورة الاسلام وتسير كتائبه الى أراضي الرومان حتى تلاشى كل ما كان لهم من المعالم والآثار . وكأنها كانت رماداً ذرّته الرياح . وقامت دولة جديدة ، وظهرت حضارة جديدة ، حاصرت أوربا من الشرق

والجنوب ، فاضطر ملوكها لأن يوجهوا أنظارهم الى الجزء الشمالي من أوربا حيث قامت المعارك وحدثت الوقائع التي كيفت تاريخ أوربا في العصر الوسيط .

أما الجزء الجنوبي في أوربا فلم يقع فيه في تلك العهود سوى موقعة بواتيه التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الاندلس . فلولا ظهور الاسلام لظلت الامبراطورية الرومانية قائمة وان انتقل مركزها من الغرب الى الشرق . ولظل البحر الابيض بحراً رومانياً . ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوربا الحديثة . ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عنها الحضارة الراهنة[1].

---

(١) الهلال م ١٩٤٠ والفتح .

(٢)

امتد الزحف الاسلامي حتى قرب بواتيه في جنوب فرنسا عام ١١٤ هـ ٧٣٢ م ثم توقف الزحف بصورته العسكرية الحربية عند حدود أسبانيا التي استقر فيها الاسلام ثمانمائة عام ، وانتشر العرب في حوض البحر المتوسط ، فسيطروا على كثير من جزائره ودخلوا جنوب ايطاليا ، توقف الزحف العسكري وبقي الزحف الفكري الذي دخل الى أوربا كلها من خلال العلم والجامعة الاسلامية في أسبانيا ولم يكن التوقف عند بواتيه نصراً لأوربا ، بل على العكس من ذلك كان هزيمة بشهادة مفكريها أنفسهم .

يقول جيمس بريستد : ان العصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوربا . وان انخذال المسلمين في أسبانيا ، كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية .

ويصل كلود فارير الى أعماق الحقيقة حين يقول : لقـــد أناخت على الانسانية سنة ٧٣٢ كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى . انها فاجعة ربما كانت من أشأم الفواجع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى ، وكان ان غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون او ثمانية : هذه هي معركة

بواتيه : برابرة المحاربين من الافرنج بقيادة (شارل مارتل) . هذه الكارثة هي النصر الذي أحرزته جماعات الهركاس المتوحشة على فريق من العرب ، في مثل هـــذا اليوم المشؤوم ، تقهقرت أوربا ثماني مائة سنة ، وكان يمكن ان تصل اليه فرنسا ، لو أن الاســـلام النشيط الحكم الحاذق الرحب المتسامح ـ إذ الإسلام هو هذا كله ـ استطاع ان ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا يخذلها اسمها . ان هزيمة العرب قد أخرت المدنية . ولو انتصر العرب لحملوا مدنيتهم الى الغرب ، ولما طالت أيامه في الجهل المطبق .

ويقول هنري دي شامبون : لولا انتصار شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لمـــا وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها . ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش . ولولا ذلك لما تأخرت المدنيـــة الانسانية ثمانية قرون .

ولا ريب ان شهادة ثلاثة من العلماء والمؤرخين الغربيين تكفي في تصور أثر الإســـلام في أوربا ، ومدى ما قدمه للبشرية كلها من قيم جـــديدة .

لقد أراد الإســلام أن يهدي أوربا هدية الايمان والعلم معاً . ولكن أوربا قبلت هدية العلم ورفضت الإيمان . وكان هذا هو مصدر شقائها ومتاعبها .

لقد تأخرت أوربا بتقدير علمائها ٨٠٠ سنة أي من عام ٧٣٢ الى عام ١٥٠٠ م وهو ما يطلق عليه اسم عصر النهضة ، لم تتوقف خلالها أوربا

عن مصارعة الإســـلام عن طريق بيزنطة . حتى كانت الحملات الصليبية التي بدأت عام ١٠٩٩ م أي بعد مرور ثلاثة قرون ونصف القرن . لم تتوقف أوربا خلالها عن مصارعة الإسـلام . ثم شاءت أن ترسل حملاتها الدامية التي أقامت المملكة الصليبية في الشـام واستمرت قرنين كاملين .

(٣)

يطلق الاوربيون على الفترة الواقعة بين سقوط روما ٤٥٠ وبين عصر النهضة : اسم القرون الوسطى ، وهي بحق القرون الوسطى المظلمة الاوربية. وقد كانت مظلمة في أوربا وحدها . بينما كانت مضيئة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي الى حدود فرنسا نفسها ، وكانت أسبانيا في هذه الفترة مضيئة أيضاً بأضواء الاسلام .

لقد سقطت أوربا في ظلمات القرون الوسطى ألف سنة كاملة فيما بين القرن الخامس والقرن الخامس عشر الميلادي هي فترة ازدهار المدنية والحضارة الاسلامية واتساع آفاقها ، وامتداد ضوئها الى أضخم منطقة في العالم كله من حدود الصين الى حدود فرنسا .

لقد سقطت أوربا بعد ان اعتنقت المسيحية بأكثر من قرنين من الزمان. ودخلت في مرحلة النهضة بعد أن اتصلت بالفكر الاسلامي اتصالاً مباشراً في الحروب الصليبية بثلاثة قرون . وتمثل القرون الوسطى في أوربا أمرين : سيطرة الكنيسة ورجال الدين : « سيطرة تجاوزت مجال الحياة الخاصة . والمشاعر العاطفية للأفراد الى مجال الحياة العامة بمظاهرها الكبرى من سياسية واقتصادية واجتماعية بحيث أصبح رجل الدين هو الإطار الذي تتحرك في داخله الحياة في القرون الوسطى » .

والأمر الثاني : الاستبداد السياسي ودكتاتورية الحاكم التي لم تقم لإرادة الجماهير وزناً فما يتصل بالأحداث الكبرى خاصة وداخلية استناداً الى حق شرعي للأباطرة والملوك وأمراء الاقطاع لا يجوز لأحد أن ينازعهم فيه .

يقول المؤرخ روبي في كتابه تاريخ الحضارة الفرنسية : كانت المسيحية وقتذاك بالنسبة للجميع ديناً ليس فيه بهجة ، ولا حب أخوي . وإنما هي الخطايا وخوف العذاب ، وكان عند الغالبية مجموعة من المراسيم وتقاليد من العبادة تدور حول عقائد بدائية ، وخدمات تقدم للأرواح الطيبة لكي تحمى من القوى الشيطانية . ويتصل هذا بمدى انتشار السحر والقوى الخارقة التي تصدر عن آثار القديسين وبقاياهم ومنزلة الصور وقواها الخفية في اعتقاد الناس.

وكان هناك افتراض شيخوخة الدنيا وتوقع انتهائها في العام الالف ، والإيمان بقوة السحر وإحاطة كل شيء بمراسم وطقوس مقدسة وعبادة الموتى، وتأكيد التشاؤم . وغلظة الحياة ووحشيتها . لقد كانت الصورة مظلمة وقاتمة حقاً في أوربا خلال هذه الفترة .

لقد مدّ الاسلام يده الى أوربا فامتنعت عنه ، واعتبرت بتعصبها ان موقعة بواتيه عام ١١٤ هجرية – ٧٣٢ ميلادية علامة على الوقوف في وجه الإسلام من أن يخترق أوربا ، وتحقق لأوربا ان تغلق الباب في وجه الإسلام ثمانية قرون على حد تقدير المؤرخين والباحثين .

كانت الصورة مختلفة غاية الاختلاف متباينة غاية التباين ، حتى في اوربا نفسها ، فان المناطق التي وصل اليها الإسلام من أوربا : وهي الاندلس (أسبانيا) وجزيرة صقلية أضاءت وبقيت أوربا كلها مظلمة .

يقول (لونجي رينالد) : بينما كان كل واحد في الاندلس يعرف القراءة والكتابة ، كان في أوربا جميع المسيحيين حتى نبلاءهم وأشرافهم لا يفكرون

في التعليم . ويشير الى عدد المكتبات التي كانت في الاندلس حيث كان بها سبعون مكتبة . وكان في مكتبة قرطبة وحدها زهاء الستمائة ألف مجلد ، بينما لا يوجد في أوربا كتاب واحد خارج الكتب المقدسة في الكنائس .

ويقول رينالدي : في أيام سقوطنا . نجا العلم الى ظل الأديرة الهادي حيث كان الرهبان المساكين قد انزووا في مقصوراتهم ، وأخذوا يمسحون رخامتهم القديمة ليكتبوا عليها أصول دنياهم .

وكانت مدنية العرب في القرنين التاسع والعاشر في الاندلس وصقلية قد بلغت أوج الكمال . « فلما شعرنا بالحاجة الى دفع ذلك الجهل الذي كان يثقل كاهلنا تقدمنا الى العرب ، ومددنا اليهم أيدينا لأنهم كانوا الأساتذة الوحيدين في العالم » . ومن ثم تسرب العلم من أسبانيا وصقلية الى بلاد اوربا « لقد اجتاح العالم المسيحي حوالي سنة ١٠٠٠ م غزو اسلامي جديد كان كالسيل الجارف . ولم يكن أي حاجز يقوى على صده ، ولكنه كان في هذه المرة مخالفاً لسابقه ، اذ لم يكن ضغطه على الأجساد بل على العقول . ذلك الغزو ، كان التهذيب العربي والمدنية العربية ، فان شعب الصحراء العظيم ظهر على وجه الارض بعد سقوط المدنيتين : الرومانية واليونانية . واندثار معالمها . وبذلك قام العرب بازالة ظلمات بربرية القرون الوسطى بإعادة نور الحضارة والمدنية الذي كان قد انطفأ في جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية » .

•

وهكذا رفضت أوربا الفتح الاسلامي عام ١١٤ هـ – ٧٣٢ م . ولكنها عادت فتقدمت الى المسلمين بعد ذلك بأكثر من قرن تطلب علمهم .

يقول رينالدي : « ان جلبرت الذي كان بابا عام ٩٩٩ ميلادية تحت اسم سلفستر الثاني تلقى دروسه كلها في مدارس العرب بالأندلس . ولما رجع

الى أوربا وأراد نشر ما أخذه من العلوم بين مواطنيه ظهر لهم ما نشره غريباً جداً ، حتى اتهموه بأنه باع روحه للجن » . ومنذ عام ١١٣٠ بمدينة طليطلة بدأت ترجمة الفكر الاسلامي .

يقول رينالدي : « كان العالم المسيحي في ذلك الوقت في صراع مع العالم العربي فبينما كان رسل الصليبيين بعددهم وعُدَدهم يعملون لانتزاع الأماكن المقدسة من أيدي العرب في الشرق ، كانوا هنا في الغرب ينتزعون منهم ملك العلم والعرفان » ونقول نعم : وانهم بعد ان انتزعوا العلم الاسلامي والمنهج العلمي التجريبي من المسلمين في الأندلس ، قطعوا تلك الرابطة ، وأخرجوا كل عربي ومسلم واستعادوا أوربا حتى جبل طارق . ثم أعلنوا انهم لم يأخذوا من المسلمين شيئاً وأن المسلمين لم يكن لهم علم ، وإنما كانوا نقلة فقط لتراث اليونان القديم .

●

تلك هي الصورة من الجانبين : المسلمون يحملون لواء الحضارة والضياء العلمي وأوربا التي ردت يدها عن الاسلام تريد ان تأخذ نتاج المسلمين الذي أعطاهم إياه دينهم ثم تحطمهم . وهؤلاء الذين ظهروا لأول مرة في تاريخ العالم في أوربا يعلنون انهم تعلموا على المسلمين ، وأنهم يأخذون أطراف منهجهم العلمي التجريبي . وليس أصدق في هذا من شهادة روجر بيكون : الذي يشهد بأنه تعلم على خلفاء معلمين من الاندلس في جامعة اكسفورد . والذي يقرر حسبما أورده العلامة بريفولت في كتابه (بناء الانسانية) . «ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشـــة لنظريات فنتكره ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا : انه يدين لها بوجوده نفسه » ويعلق بريفولت فيقول : «ان ما ندعوه العلم قد ظهر

في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة . ويطرق من مستحدث فن التجربة والملاحظة والمقاييس . ولتطور الرياضيات الى صـــور لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج : انما أدخلها العرب الى العالم الاوربي » هذا عطاء الإســـلام لأوربا وهو مصدر نهضتها الحـديثة في القرن الخامس عشر .

(٤)

زحف الغربيون الى العالم الاسلامي في الحروب الصليبية تحت لواء الخصومة والحقد والتعصب وباسم استعادة بيت المقدس . وفي خلال فترة مائة وخمسين عاماً على الاقل (١٠٩٩ — ١٢٤٩) لم تتوقف الحملات الصليبية الزاحفة من أوربا على قلب العالم الاسلامي في فلسطين والشام وساحل البحر الابيض (بين حيفا ويافا وتونس ودمياط) وجاء بعض هذه الحملات تحت زعامة ملوك أوربا . وكانت القوة الدافعة لها عنيفة في الدعوة ، والتحريض كان يحمل طابع الغزو والتعصب والكراهية .

« لقد كان للكنيسة طموحها السياسي الواسع وسلطانها القوي على الحياة العامة » ، « وكان للبابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثاني أثرهما الخطير في الحملة على الاسلام .

الأول : في دوره الخطير في تحويل القتال بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا الى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوربا على اختلاف أقطارها . وكان لها آثارها البعيدة في حياة أسبانيا الاسلامية .

والثاني : هو الذي حمل لواء الحروب الصليبية وحملة التحريض على قتال المسلمين في ديارهم » .

وقد أوقعت الحملة الصليبية الاولى بالمسلمين أبشع مجزرة بشرية في التاريخ بقتلها سبعين ألفاً هم سكان مدينة القدس المسلمين ، أفنوهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا امرأة ولا ولداً ولا شيخاً .

يقول أورين أ. كالفبرالي : لا شك ان القرون التي اشتعلت فيها الحروب الصليبية تعتبر أعظم فترة يندى لها جبين المسيحية في كل عصورها . وقد مر على نهاية هذه الحروب خمسمائة سنة من الزمان ولكن هذا العهد الطويل لم يمح الخزي والأكاذيب التي خلفها الصليبيون في بلاد المشرق . ولكن كيف قابل المسلمون هذا الموقف بعد أن استردوا إرادتهم وحرروا القدس . لقد رفض صلاح الدين المعاملة بالمثل ، وقال ان الاسلام ينهاه عن ذلك . ومن هنا فان صلاح الدين لما دخل بيت المقـــدس ظافراً منتصراً لم يسفك دماً . ولم تنهب جيوشه بيتاً وأمن الجميع على أموالهم وأمتعتهم . قالوا له : أما وقد كتب لك الظفر على أعدائك . فلِمَ لم تنتقم منهم وأنت تعـــلم ما فعلوا من الفظائع .

قال صلاح الدين : هذا ما يمنعني منه ديني وضميري . قالوا : هل دينك يمنعك من الانتقام من قوم بدأوك بالعدوان وساموا قومك الخسف والعذاب. قال نعم : ان ديننا يمنعنا من أن نجازي خصومنا في عنادهم ، ويأمرنا أن نكون أوفياء لعهودنا ، وأن نصفح عمن أساء .

ولما قسمت غنائم الحرب تنازل صلاح الدين عن نصيبه للفقراء وأعتق أسراه . وعندما بدأ الفرنجة يرحلون ، ترك للصليبيين المدينة حتى لا يجرح شعورهم ، ووقف مناديه من مطلع الشمس الى غروبها ينادي : هل من فقير فنؤويه ، أو عاجز عن دفع الجزية فنعطيه . وعفا عن سبعة آلاف منالعجزة عن الضريبة . ودفع بعضها من جيبه الخاص ، ورفض أن يصادر اموال بطريرك بيت المقدسعند خروجه منها . وسمح للفرنج المدنيين اذا شاؤوا أن

يعيشوا ، أما المحاربون فعليهم أن يخرجوا بنسائهم وأطفالهم . وحمل الكهنة ذخائرهم الذهبية ، وخرجوا بها . ولم يتعرض لهم أحد بأذى ، بل قدمت الدوابَ لكثير من الذين لا يجدون ما يركبونه .

وقد شهد المؤرخون الغربيون ـ وربما لم يجتمعوا على حق كما اجتمعوا على صفة صلاح الدين ـ شهدوا بكرم أخلاقه وسماحته وبأنه عامَلَ نساء الصليبيين معاملة حميدة ، وسمح لهن بالخروج من بيت المقـــدس معززات مكرمات ، ومعهن أموالهن وأتباعهن وحَشَمهن ، وعامل الاميرات الأسيرات بكل تكريم ، وسمح لهن بإطلاق سراحهن . وبدا الفرق واضحاً بين سلوك الاسلام ممثلاً في صلاح الدين عندما استرد القدس عام ١١٨٧ . وبين ما فعله الصليبيون عندما سقطت في أيديهم عام ١٠٩٩ ، فقد قتلوا سبعين ألفاً من المسلمين .

•

كان المسلمون في جميع أدوار الحروب الصليبية[1] يتصرفون في حدود مفهوم الاسلام رفقاً وعدلاً في دار الحرب والسلام . كان الصليبيون في الحملة الاولى قد سفكوا دماء المسلمين في المسجد الاقصى بحيث كان الفارس منهم يخوض الى رجليه في دماء المسلمين على حد ما سجله للافيس ورامبو في كتاب التاريخ العام . وذهبوا الى أبعد من ذلك حتى يقول العلامة ميشو في كتابه تاريخ الحروب الصليبية : انهم قتلوا في معركة النعمان وحدها جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين الى المساجد ، والمختفين في السراديب وأهلكوا صبراً (دون قتال) ما يزيد على ألف ومائة مسلم .

يقول ميشو : لقد تعصب الصليبيون في القدس التعصب الأعمى الذي لم

---

(١) راجع الاسلام وحركة التاريخ للمؤلف .

يسبق له نظير حتى شكا من ذلك المنصفون من مؤرخيهم . فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ويجعلونهم طعاماً للنار ويخرجونهم من الأقبيــة وأعماق الارض الى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الآدميين . وقد دام الذبح في المسلمين اسبوعاً حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخي الشرق والغرب سبعون ألف نسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس ، وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر الاسلامي ، فاذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس . وكان بها مائة ألف من الفرنجة والصليبيين (منهم ستون ألف راجل وفارس) غير النساء والاطفال لعرفنا كيف كانت سماحة الاسلام .

وكان موقف صلاح الدين من ملوك الفرنجة آية في سماحة الاسلام . فعندما فقد ريكاردوس ملك انجلترا جواده أرسل له صلاح الدين جوادين عوضاً عنه ، ولما مرض ووقذته الحمى أرسل اليه هدية من الثلج والفاكهة .

يقول الاستاذ ايوركا المؤرخ : لا يتأتى برهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعاية الجمهوريات الايطالية ليعيدوا هؤلاء اليائسين من الصليبيين ، وقال المؤرخ مترو : كان صلاح الدين محبوباً في الغرب لشهامته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ولسلوكه سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين أثار دهشهم وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح مشهوراً به .

وقد كان للحروب الصليبية آثارها البعيدة المدى . وأخطر هذه الآثار أن العائدين كشفوا لأهليهم ولأوطانهم فســـاد الادعاء بتعصب المسلمين . وتحدثوا في نبرة الإعجاب والتقدير لسماحة المسلمين مما كان له أبعد الأثر في إيقاع الكنيسة العقاب بهم وقتـــل كثير منهم . والامر الأشد خطورة

هو ان الغرب نقــل معه الفروسية والعلوم ، وتحول الى مدنية الاســلام وإنسانيته .

وهنا يأتي السؤال الخطير الذي ألقاه المؤرخون : هل الحضارة الغربية هي نتاج المسيحية الغربية التي كان قد مضى عليها في عصر النهضة ألف وخمسمائة سنة . أم ان هذه الحضارة من معطيات الاسلام ؟

(٥)

لماذا لم تكن المسيحية مصدر الحضارة الغربية ؟ يقول [ليوبولدفلبس] : ليس المفروض في النصرانية أنتكون الهيكل الروحي للمدنية الغربية عقيدة مبنية على الاخلاق المطلقة . كما هي الحال في الاسلام . لا شك أنها كذلك . ولكن حينئذ لا يمكن أنيخطىء خطأ أفدح من ان يعتقد ان المدنية الغربية الحديثة نتاج النصرانية .

لقد بقى الروح الاوربي قروناً طويلة يرزح تحت عبء نظام ديني يطوي في نفسه احتقار الحياة ، واحتقار الطبيعة . ومن الجلي ان مثل هذا النظام لا يحث على نشاط الجهود المتعلقة بالمعارف الدنيوية ولا يتحسس احوال الحياة على الارض .

وخلاصة القول ان المدنية الاوربية قائمة على اساس المدنيـــة الرومانية الوثنية . وهي لم تأخـــذ من النصرانية التي اعتنقتها لأسباب سياسية قاهرة سوى الطلاء فحسب . ثم ان المدنية الاوربية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة . ومن هنا نجد فارقاً عظيماً بينها وبين الاسلام .

ويقول العلامة مسمر : ان الدين النصراني ظهر في عصر الامبراطور أغسطوس وقت ما كان التمدن الروماني في درجته العليا . وكان منشؤه في بيئة اليهود ، وما استطاع ان ينتشر منها في بلاد الاغريق الرومانيين

التي كانت أعظم بلاد متمدنة في ذلك الوقت . ومنها كان عليه أن يحفظ ما وجده فيها من المعارف والتقدم ويستمرّ عليه . أما دين الاسلام فقد كان ظهوره في زمن لم يبق فيه أثر لهذا التمدن الروماني . ومهده كان فيجزيرة العرب ، وهي بلاد مقفرة في ذلك العهد . أهل خرافات وأوهام وعبدة أصنام جهلة ليس لعقلهم أي استعداد لهذا التمدن الاغريقيالروماني ولا براعة لهم إلا في قول الشعر . ومع ذلك فترى ان الدين النصراني أطفأ المصباح الذي كان استلمه عبّاد الاصنام ، فلما جاء دين الاسلام أضاءه واستنارت الدنيا ، وكان ذلك تحقيقاً لقانون التمدن الذي مقتضاه منع الطبيعة من التقاعد والتقهقر . ان أساس الدين الاسلامي بمقتضى قواعد العلم أرفع من أساس الدين النصراني بالمسافة التي تفصل الاعتقاد بإله واحد مخالف للحوادث والاعتقاد بإله مركب من ثلاثة آلهة ظهروا على الارض في هيئة انسان ، كما ان مبدأه كان أنفع وأجدى لمن اتخذه ديناً . فدين الاسلام جاء ليوفق بين جمع عظيم من بني آدم كان يقاتل بعضهم بعضاً بسبب الأديان السابقة . وينشر العلوم بين أمم كانت قبل مجيئه غارقة في الجهل .

ان الدنيا كانت في هذا الوقت : أي وقت ظهور محمد ﷺ محتاجة لمن ينقذها من الاهوال التي كانت فيها ، ومن شذّ وقال ان محمداً كذاب ، فقد بتّ في المسألة بدون ان يحلّها ويبين اسباب نجاح محمد . أما نحن معاشر الفلاسفة المحققين . فنقول ان الرجال العظماء الذين تبقى أعمالهم خالدة مدى الأزمنة هم من اهل النباهة الفائقة يجيئون لإصلاح العالم ولشفاء عصرهم من مرضه .

ومن تأمل كلام القرآن رأى ان محور الاسلام الوحدانية وقطبيه المؤاخاة وتحسين شؤون العالم بالتدريج بواسطة العلم . فهذه هي حقيقة اسباب نصرة الاسلام . ومنسنة ٧٤٣ من الميلاد أي بعد مائة واحدىعشرة سنة من وفاة محمد . كانت دولة الاسلام اكبر من دولة الاسكندر المقدوني وقدر مملكة

قيصر تقريباً . وفي عام ١٥٦٦ عنـــد وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين فبذلك يتضح أن عظمة الاسلام مكثت ألف سنة وان التاريخ يفيدنا حقيقتين :

الاولى : أن تقدم العلوم في وقتنا هذا حصل رغماً عن الدين النصراني . أما دين الاسلام فعلى العكس من ذلك، أي لا يمكن ان يبقى على قيد الحياة إلا بانتشار العلوم وتقدمها . فان بين الاسلام والعلوم رابطة كلية .

الثانية : أن النصراني اذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك الا اذا صار جاهلاً ، فبأي وجه يمكن نسبة التمدن الحالي الى الدين النصراني. والحال أنه ما جاء الا بعد خمسة عشر قرناً من ظهوره .

ولقد عالج هذه النقطة كثيرون غير العلامة (مسمر) وكشفوا عن الفرق الزمني بين حضارة الغرب وبين ظهور المسيحية، واستندوا الى وقائع التاريخ التي تثبت ان العصور الوسطى الاوربية هي فترة ما قبل ظهور الاسلام . وان الحضارة الاسلامية ظهرت وأضاءت العالم منذ القرن السابع الميلادي . وان اوربا لم تبدأ حضارتها الا في القرن الخامس عشر ، بعد ان صادرت كل منتجات الحضارة الاسلاميـــة والعالم الاسلامي في اسبانيا . وطردت العرب كما طردت الاسلام نفسه .

ومن هنا فلا صلة مطلقاً بين النصرانية وبين الترقي الاوربي . وان الصلة كل الصلة بين الترقي الاوربي والاسلام . وان بين نشأة الحضارة الغربية وبين نشأة المسيحية مسافة ألف وخمسمائة سنة . وان المسيحيـــة قدمت لأوربا الرهبانية ، وان الاسلام هو الذي قدم العلم على حد تعبير ليوبولد فلبس . وان هناك إجماعاً على ان أوربا لم تتقدم فكراً ولا ثقافة ولا علماً الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة . وتحررت تحرراً تاماً منه . وان للاسلام ايضاً دوره في حركة الاصلاح المسيحي .

ولا ريب ان حركة الاصلاح الدينى التي كانت تقوم على إعطاء الانسان حق الحكم الشخصي في قراءة الانجيل وفي الاتصال بالله دون واسطة ، «وتحرير العقول من العبودية التي وضع نيرها رجال اللاهوت » انما ترجع الى مفاهيم الاسلام التي طرحها في اوربا .

فالاسلام لا ريب أهدى أوربا حركة الاصلاح الديني التي حمل لواءها لوثر وكالفن . ثم أعطاها المنهج العلمي التجريبي الذي حمل اواءه فرنسيس بيكون. بل ان الاسلام هو الذي أهدى أوربا الانسية المدنية في مقابل الهمجية .

يقول بارتلمي سانهيلر : أسفرت تجارة العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سراتنا الاقطاعيين الغليظة في القرون الوسطى . وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير ان يفقدوا شيئاً من شجاعتهم . وأشك في ان تكون النصرانية وحدها قد أوحت اليهم بذلك مهما بولغ في كرمها .

وكان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم . وان هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم . فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، فالعرب هم الذين هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي. والعرب هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي فكانوا ممدنين لأوربا » .

ولقد كانت الكنيسة تنادي بأنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان ، وبأنه لا يصل الى الله دعاء او صلاة ، او استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها ، فأخذ لوثر وكلفن من الاسلام ذلك المفهوم القائل بأن العلاقة بين الله والانسان مباشرة . وانه ليس لرأي بشري حرمة التقديس وبنظرة واحـــدة الى منشور لوثر تجد مفهوم الاسلام فيه واضحاً وصريحاً . ولا ريب ان تعاليم الاسلام التي ذاعت في اوربا هي التي أمدت لوثر بهذا الضوء الذي ضمنه دعوته من القول بأن اتخاذ الصور والتماثيل والسجود لها أقرب الى الوثنية . وان الكتاب

المقدس هو المصدر الوحيد للدين ، ومن حق كل انسان قادر ان يقرأ الكتاب المقدس ويفهمه من دعوته الى فك عقـــد زواج الكهنة ، وإلغاء صكوك الغفران . وقوله ان البابا لا يستطيع ان يرفع عن الانسان قصاص الخطيئة ، ولا ريب ان الاسلام حفظ المسيحية ورسمها في أنقى صوره حين اعترف بعيسى الرسول ومعجزة ولادته . وكرم جميع الانبياء والكتب .

الفصل الثالث

المسلمون والمتوسط

جاء الاسلام فاصلاً بين عهدين في تاريخ البشرية . وجاءت معطيات الاسلام متميزة عن كل ما سبقها ، وصحح كل مفاهيم التوحيـــد والاخلاق والاجتماع ، ووضعها في الصورة النهائية انطلاقاً من مفهوم أصيل هو ان ثمار المعرفة الانسانية الحقة ، انما جاءت بها الأديان السماوية المنزلة ، وهي وإن اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية، ومفاهيم الوثنية، والتعدد والعنصرية وعبادة الاجساد والابطال . فان الاسلام قد أعادها مرة اخرى الى وضعها الصحيح ، فلقد جاء الاسلام راسماً المنهج الرباني الذي يهـــدي البشرية الى الانسانية والتوحيد الحق . ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري . ومن اضطرابها وفسادها .

ومنذ جاء الاسلام . فقد وقف التاريخ وقفة حاسمة ، ووضع حداً فاصلاً بين كل ما سبقه . وبين هذا العصر الجديد ، فقد حددت ولادة الاســـلام الفاصل العميق بين حضارتين : حضارة الوثنية وحضارة التوحيد . ومن ثم انشطر البحر المتوسط الى شطرين . فقد برزت حضارة لها طابعها وذاتيتها

وتشكيلها الروحي والفكري والاجتماعي والنفسي . ومن خلال الإسلام قامت حضارة لها مضمونها الاجتماعي ولها نظريتها الخاصة . ولها اسلوبها في المعرفة ولها منهجها العلمي التجريبي الذي قدمتـــه الى البشرية كلها وقامت عليه الحضارة الحديثة .

وأعظم معطيات حضارة الاسلام : تمدين الانسان وتحرير البشر من عبودية الفكر والجسد وأغلال الظلم والاستعباد التي كبلته بها حضارات أربع هي : الفرعونية والرومانية والفارسية والهندية .

لقد قامت حضارة الاسلام[1] على وحدانية القيم التي هي من وحدانية الله التي أعطت البشرية وحدة المعيار الخلقي . وأعني به وحدة المعيار بين مختلف الناس بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم .

« ولب هذه الرسالة أن الله موجود وأنه واحد . أما وجوده فمعناه عند العقل العربي . فهو وجود القيم وجوداً مستقلاً عن الانسان ووجوده ، أعني انها ليست من صنع الانسان يصنعها كما تقتضي ظروف عيشه ، ومعناه كذلك عند العقل العربي . ان حياة الانسان على هذه الارض لم تكن عبثاً .

أما كون الله واحداً فمعناه عند العقل العربي ان القيم تحمل معياراً واحداً لا يتأثر باختلاف الزمان والمكان . «فالمعيار واحد بكل انسان . أنّى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارها الخلقي ، ومعيارها الذي تعيش به . الحق بل الخير خير بالنسبة لكل البشر . والحق حق بالنسبة للناس أجمعين » .

فالقول بوجود الله ووحدانيته . إذن هو في صميم الاعتراف بموضوعية

---

(١) عن بحث الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي .

القيم وتخليصها من قيود (النسبية) التي تقر اختـــلاف المعايير باختلاف الظروف .

فالإنسان أمام الله هو الإنسان ، لا اختلاف بين فرد وفرد اذا ما قيس الاقرار بمقاييس الأخلاق الذي هو مقياس الحق . وهذا ما غير العروبة عن سائر أهل الأرض جميعاً ، ذلك باعتقاد ان القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة اليه من السماء هداية له في سيره ، على ان تلك القيم لم ترسل اليه دفعة واحدة ، بل أرسلت على دفعات بواسطة الأنبياء من آدم الى محمد . وكانت الرسالة الخلقية تزداد على مَرّ الأيام قوة وجلاءاً كلما زاد الوعي العربي بها .

●

هذا التمييز الواضح بين الفكر الذي قدمه الإسلام والفكر البشري الذي كان يصر على الوثنية والعنصرية والهوى .

ومعنى هذا ان الحضارة الإسلامية لم تكن جزءاً من حضارة سابقة . ولم تكن مجرد ناقلة علوم اليونان فقد جاء ذلك بعد أن قدمت قيمها الأساسية . وأقامت بها منهجاً وذاتية وكياناً . وانها في كل ما قدمت كانت مختلفة كل الاختلاف عما طرحه الفكر البشري السابق عليها . بل ان بعض الباحثين يذهب الى أبعد من ذلك ، فيقرر العلامة علال الفاسي ان العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول لم تكن إلا تمهيداً لإبلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين .

ولم يكن محمد بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوّات ورسالات كما سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنها لم توفق الى البقاء وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تجدد او تصلح لتفتح آفاق التقدم الإنساني . فكان لا بد من بعث الرسول الخاتم الذي يضع الإنسان في جوّ الرشد المبني

على العقل والروح والقلب والجسم . فكل ما سبق من عمليات التاريخ . كان يهدف لغاية واحدة : هي وجود الرسول نفسه . وبذلك يصبح ماضي الأمة، وكأنه ما قبل التاريخ . أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامي .

●

ومن هنا نستطيع أن نقول بزيف دعوى وحــدة الحضارة في حوض المتوسط التي يحاول بعض الكتاب اعتبار الإسلام جزءاً منها . كما نستطيع ان نقرر خطأ القول بأن الحضارة الاسلامية امتــداد للمجتمع السرياني كما حاول المؤرخ توينبي ان يقول بذلك . وان الإسلام كان اضافة جديدة واضحة ومنهجاً له ذاتيته الخاصة . وأنه قد غير كل شيء بعد ذلك . وأثر أثراً كبيراً في مجرى التاريخ والحضارة . وبلغت آثاره الى قلب أوربا ، وإلى قلب الفكر الغربي المسيحي . وانه كان بعيد الاثر في حضارات الهند وفي الاديان والمذاهب القائمة ، وكان أثره واضحاً حتى في الأقطار التي لم تعتنقه . فقد عدل كثيراً من اتجاهاتها . وأدخل اليها الكثير .

وليس أدل من الأثر العميق الذي أحدثه في اسبانيا وفي جنوب فرنسا وجنوبي إيطاليا . وهذا الأثر الذي ما زال باقياً في اللغــات والمفاهيم والمجتمعات .

●

وقد اعترف كثير من المؤرخين الاوربيين بهذا الأثر . ومنهم هنري بيرين (المؤرخ البلجيكي) الذي يقول : ان البحر الابيض المتوسط كان حلقة اتصال مستمر بين الحضارات التي نشأت حول شواطئه منــذ العصور القديمة حتى اكتسبت تلك الحضارة طابعاً جاز ان نسميه طابع البحر المتوسط . ولكن الحدث الكبير الذي قلب الاوضاع رأساً على عقب هو ظهور الاسلام الفجائي

في القرن السابع الميلادي على مسرح الأحداث . وما كان من استيلائه على الموانى الشرقية الجنوبية والغربية من (البحيرة الاوربية) !

ومنذ ذلك الوقت أصبح البحر المتوسط سداً وحاجزاً بين الغرب والشرق بعد أن كان معبراً وأداة اتصال على الرغم من أن الدولة البيزنطية بفضـــل أسطولها استطاعت أن ترد المسلمين عن بحر إيجه والأدرياتيك والشاطىء الجنوبي من ايطاليا . إلا أن البحر المتوسط لم يلبث ان سقط كاملاً في أيدي العرب فطوّقوه من الجنوب ومن الغرب بفتحهم المغرب وأسبانيا وباستيلائهم على جزر البليار وكورسيكا وسردينيا وصيقيلية . وتبعاً لذلك فانه منذ القرن الثامن الميلادي حكم على التجارة الاوربية بالموت في تلك المنطقة . وانتقلت حركة النشاط التجارية كلها نحو بغداد عاصمة الامبراطورية الاسلامية .

ومن ثم فان هـــذه الشواطىء التي قامت عليها في يوم من الأيام علائق ترتكز على وحدة العادات والحاجات والافكار ، قامت فيها حضارتان : بل عالمان يواجه أحدهما الآخر .

ان التوازن الاقتصادي الذي قام منذ العصور القديمة . واستمر حياً بعد الغزوات الجرمانية قد انتهى أيام الغزو الاسلامي .

ومن هذه الحقيقة ظهر بالضرورة نظام اقتصادي جديد . ولعل هذا هو السر في تلك الصيحات المليئة بالحقد التي تنبعث من الغرب ، والتي كانت مصدر الحملات الصليبية على فلسطين وبيت المقدس ومصر في نفس الوقت الذي اتجهت فيه حملات الفرنجة على الاندلس والمغرب تحت دعوى باطلة . هي إعادة المسلمين الى الجزيرة العربية واستعادة الاجزاء الى ما كانت عليه أولاً في المغرب وسوريا ومصر .

ولا ريب ان المراجعة الصحيحة للتاريخ تكشف عن ان هذه الاجزاء

كانت عربية قبل الاحتلال الروماني بأكثر من ألفي عام . وأن أوربا لم تكن تملكها وإن كانت قد احتلتها بالغصب تحت ظـــلم الامبراطورية الرومانية المستبدة . بل ان هناك ما هو أبعد من هذا . فان هذا الاحتلال الذي دام طويلاً لم يستطع ان يفرض لغة الرومان ولا فكرهم ، ولم تلبث هذه الاجزاء ان عادت الى أصولها التي تربطها بالإسلام لغة ودينا وفكراً .

ولتكن مصر عاشت ألف سنة ـ منذ دخول الاسكندر لمصر الى دخول العرب ـ تحت نفوذ الرومان . او على اتصال بثقافة الإغريق ، فان ذلك كله لم يلبث ان تبخر في الهواء وذاب كالثلج ، فقد كان الاسلام ليس ثقافة متغلبة كاسحة ، ولكنه كان الفطرة وكان تجديداً للحنيفية السمحاء (دين ابراهيم) الذي كان قد عايشه منذ ثلاثة آلاف سنة .

ولا ريب ان التوحيد الخالص هو الضوء الكاشف الذي تزول أمامه غواشي الثقافات والفلسفات . وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

أما تلك الثقافات . فقد كانت مضادة للفطرة وللتوحيد، وكانت مفروضة فرضاً مع النظام العبودي القاسي ، وكانت النفس العربية رافضة لها رفضاً واضحاً ، وما زالت تلتمس أي كوة من كوى الضوء في دين سماوي حق . فلما وجدت ذلك في الاسلام تبخرت تلك السنوات الألف بتراثها وضاعت وكأنها لم تكن .

لقد انطوت تلك الصفحة نهائياً: صفحة الوثنية والعبودية والتعدد وعبادة النار ، وعبادة الفرعون والمجوسية ، وذابت تماماً وانطوت امبراطوريات أربع وتقوضت تحت ضربات التوحيد ، واكتسحت اللغة العربية كل اللغات، كما اكتسح الفكر الاسلامي كل فكر سواه ، وخلصت المنطقة مرة اخرى لكلمة الله . ولا عبرة بما يقال من اقتباسات المسلمين من البيزنطيين والنصارى واليهود وصابئة حران . فان ذلك كله لم يكن الا في إطار الصورة القائمة

على التوحيد والعدل والايمان بالغيب ، والتي هدت الى المنهج التجريبي . فماذا أعطت حضارة المتوسط القديمة شيئاً إلا إضافات ، ولكنها أخذت كثيراً وتجددت وعدلت عن مناهجها .

ولم يكن بالحق دور المسلمين كدور الأيجيين والفينقيين واليونان والرومان. ولكنه كان كبيراً جداً . وكان عطاء الإسلام عظيم الأثر . فقد زلزل كل قواعد الفكر والحضارة وجدد العقيدة . وحرر النفس الانسانية ، وأقام الأمة الوسطى : عالم العرب والاسلام ليحمل كلمة الله الحق .

●

ولقد كشف جوستاف فون جرونيام كيف أثر الاسلام في أوربا[1] : « ظل الإسلام يؤثر في الوضع الاوربي في معظم الأمر بظهوره في ثوب الحظ الدائم . واتخاذه صورة محيرة تمثل عالماً مختلفاً قريبة يجعل منها حقيقة ماثلة ، ولما كانت أوربا لم تكف تماماً عن التطلع جنوباً وشرقاً . فان وجود الاسلام ومثوله بقوة في الأذهان ظل يبدو لأعين الاوربيين أضخم حقيقة على الدوام تقريباً ، ولم يحدث البتة على مرّ العصور أن حقيقة مفردة لعبت في صوغ العلاقات الدولية في العصور الوسطى دوراً أكبر من الذي لعبه وجود دولة قوية غامضة لا يمكن التكهن بحقيقتها على الجانب الآخر من ذلك البحر الذي كان العرب كلفين بتسميته البحر الاوسط .

ثم يشير جرونيام الى السر في عظمة الاسلام: ويرجعها الى مصدرها وهو شعور المسلم بأنه دين هو خاتم الأديان ، وأنه هو الحق الذي لا حق سواه ، وأنه يسير في طريق الخلاص والشهادة السرمدية .

---

(١) حضارة الاسلام لجوستاف فون .

ويصل جرونيام الى القول بأن العالم المسيحي يخص الاسلام باهتمام يفوق كل ما تلقاه منه .

•

هذا الاهتمام الذي كان صوراً متعددة من عدوان الغرب الدائم للقضاء على الإسلام واستئصاله في نفس الوقت الذي لم يكن الإسلام عدواناً بأي صورة من الصور .

ويؤكد هذا المعنى الكثيرون : ويقول توينبي في كتابه الحضارة في فترة اختبار . الاسلام لم يدخل فيمعركة مع رسالة عيسى . ولكن مع الكنيسة المسيحية التي استولت على عقول الروم واستسلمت الى ما دعت اليه الوثنية الإغريقية من الشرك وعبادة الاصنام . وان الاسلام قد استنكر هذا الشرك واسترد عبادة الإله الواحد ، الذي دعا ابراهيم الى عبادته من قبل ، وهكذا حمل الإسلام شعلة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة ، والهندوس المشركين من جهة اخرى ولا ريب ان الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية ، والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الاسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين .

•

وليس شك ان الاسلام هو الذي أدخل العرب التاريخ العالمي حينما حملوا لواءه . وذهبوا به الى أقصى الأرض ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يتجهون خمس مرات في اليوم الى قبلتهم في البيت الحرام . ولا ينسون أبداً ان هناك رابطة تربطهم بكل من يردد لا إله إلا الله في أقصى الارض . وأنهم

يستحثون المطايا الى الطواف بالبيت . ولا يرون أي غضاضة في ان يولوا وجههم شطر المسجد الحرام . ويربطوا أنفسهم بذلك التاريخ الذي بدأ في قلب الصحراء .

وليس صحيحاً ما يردده البعض من أن المسلمين قد ولـّوا وجوههم نحو البحر المتوسط . ولم يولـّوا وجوههم شطر الصحراء البتة .

الفصل الرابع

التاريخ الاسلامي

لا ريب أن الاسلام له منهجه الخاص في فهم التاريخ وتفسيره : هـــذا المنهج المستمد من جوهر الاسلام نفسه . وان كل محاولة لتفسيره وفق منهج غير منهجه ، إنما تخرج به عن أصوله وحقيقته « فالتاريخ الإسلامي جزء من الاسلام ككل وغير منفصل عنه[1] وان التاريخ الاسلامي قبل أن يكون تاريخ حوادث وفكر هو تاريخ عقيدة شاملة لها سماتها وخصائصها المميزة » .

ومن أجل هذا فان دراسته تقتضي النظر فيه نظرة متكاملة ، دون ان يمزق الى مقاطع ، وان محاولة تمزيقه تقضي بخطأ النظرة وقصورها ، وان النظر فيه يجب ان يجري وفق مفاهيم الإسلام نفسه، دون الاعتماد على المناهج الوافدة ، ذلك ان هناك ضرورة كبرى لفهم اصول الإسلام ومدى تطبيقها على التاريخ وخاصة في أسس ثلاثة :

---

(١) دكتور عبد الرحمن الحجي (دراسة التاريخ الاسلامي) .

(اولاً) ان الدعوة الاسلامية هي رسالة ربانية سماوية ، وليست سلطاناً أرضياً تنطبق عليه مفاهيم الدول والملوك وقيمهم .

(ثانياً) ان مفهوم الجهاد هو أساس دراسة المعارك والفتوح . ومن هنا يتحتم فهم الإيمان بالشهادة في سبيل تعليل انتصارات المسلمين ، ووضع مسألة الغنائم وغيرها في الدرجة التالية لذلك .

(ثالثاً) الايمان بأن المسلم يرى انه مكلف برسالة الدعوة الى الله وتحقيق المجتمع الرباني في الأرض . وانه تطبيق لغاية استخلاف الانسان في الأرض .

ولقد استطاع غير قليل من الباحثين الغربيين فهمهذه الخطوط الاساسية . ومن هؤلاء : ولفرد كانتول سميث الذي يقول : « ان المسلم يحس إحساساً جاداً بالتاريخ : انه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر في الأرض على مقتضاه . ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الارض في إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردي او اجتماعي . وكل شعور فردي او اجتماعي بمقدار قُربه او بُعدِه من ذلك النظام الذي وضعه الله ، والذي ينبغي تحقيقـــه في واقع الارض لأنه قابل للتحقيق ، والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الارض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان او اجتماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضي والمستقبل متوقف على الحاضر » .

ويجري ولفرد كابتول سميث مقارنة في فهم التاريخ بين الإسلام والهندوسية والمسيحية والماركسية فيقول : ان الرجل الهندي لا يأبه بالتاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس . والهندي مشغول دائماً بعالم الروح : عالم اللانهائية ومن ثم فكل شيء في

عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن . والتاريخ بالنسبة اليه شيء ساقط من الحساب .

●

أما المسيحي فيعيش بشخصية مزدوجة ، او في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشري المطبق في واقع الارض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . ويسير هذان الخطان في نفسه متجاورين او متباعدين ولكن بغير اتصال . والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه .

●

أما التاريخ في نظر الماركسي : فهو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى ان كل خطوة تؤدي الى الخطوة التالية بطريقة حتمية . ولكن لا يؤمن الا بهـذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن في هذا العالم إلا بالمذهب الماركسي وحده ، وكل شيء عداه باطل . والماركسي يتبع عجلة التاريخ . ولكنه لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجية عنها .

أما المسلم فانه غير ذلك تماماً .

●

ولا ريب ان نظرة واحدة الى القرآن في مجال تفسير التاريخ تجد المنهج الإسلامي واضحاً مقرراً ذلك أن هناك[1] قوانين معينة ترتقي بمقتضاها الامم

(١) عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ .

وتنهار . وان تدهور الامم انما يجيء نتيجة الفساد والبغي والانحطاط ، وقد رسم القرآن هذا القانون منذ أربعة عشر قرناً، ووضع نماذج التجربة كاملة أمام الناس في حضارات عاد وثمود وقوم تبع وامبراطورية فرعون وكشف عن صدق هذا القانون : « **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** » « **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » .

ولقد قرر القرآن ان الحياة البشرية ذات معنى . وان الانسان هو محور فلسفة التاريخ . والقرآن لا يعتبر الارض مكاناً للعذاب او سجناً سجن فيه البشر الآثمون في أصل تكوينهم لسبب خطيئة اصلية . ذلك انه لا توجد أصلاً خطيئة للبشر ، وان خطيئة آدم قد غفرها الله له ، وأن لا تزر وازرة وزر اخرى .

وان فترة الحياة القصيرة على هذه الارض هي فترة اختبار للانسان . وانه هو الذي حمل الامانة . وواجه التحدي ، فعليه ان يثبت مقدرته على اختيار الطريق الصحيح : « **وهديناه النجدين** » والحياة اختبار وامتحان للناس حول هذه الامانة وهذا الاستخلاف « **وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** » وتلك عبرة التاريخ كله وقضية الانسان .

وقد فهم روزنتال[1] وجهة الاسلام في تفسير التاريخ وعبر عنها في وضوح؛ « ان الميزة التي امتاز بها الفكر الديني في هذا الاتجاه هو الوعي بأن للتاريخ

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين .

نهاية هي يوم الساعة حين يسأل كل واحد عما عمله في الدنيا ويوم الساعة بداية تاريخ آخر يصفه القرآن وصفاً دقيقاً حتى كأنه وقع في الماضي » .

ويؤكد العلامة علال الفاسي هذا المعنى حين يقول : « ان الجبرية غير موجودة في الإسلام لأن الانسان ليس خارج التاريخ ، بل هو من عوامله الداخلية الفاعلة والمفتعلة ، وليست عمليات التاريخ دون غاية » .

ويقول ان الرسول قد ادرك الوجود التاريخي إدراكاً كلياً . ولكنه لم يكلف نفسه بأن يكون المؤرخ او المدون للتاريخ . وانما وضع لنا الإطار الذي علينا ان نملأه بما نكتشفه من احداث وما نصنعه من عمليات . « ولم تذكر كلمة التاريخ في القرآن ولا في السنة ، وان قص علينا القرآن قصصاً للاولين ، لا لنعتبرها تاريخاً بأوقاتها وظروفها . ولكن لنتعظ بما فيها من عبرة لأولي الالباب » .

وللتاريخ في نظر الاسلام مرحلتان لا بد من التوقف عندهما :

(اولاً) مرحلة العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول . وهذه لم تكن الا تمهيداً لإبلاغ الإنسانية رشدها عن طريق إكمال الدين بوجود محمد خاتم الرسل . ولم يكن محمد بدعاً من الرسل فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات اصلاحية تشمل كل بقاع العالم . ولكنها لم توفق الى البقاء . وأصابها الانحراف الذي يستوجب ان تجدد وتصلح لتفتح آفاق التقدم الانساني فكان لا بد ان يبعث الله الرسول الخاتم الذي يضع الانسان في جو الرشد المبني على العقل والروح والقلب والجسم .

وكل ما سبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة : هي وجود

الرسول نفسه . وبذلك يصبح ماضي الامة و كأنه ما قبل التاريخ .

(ثانياً) هي نهاية التاريخ الدنيوي والوصول الى عالم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من خير او شر . وبهذا الامتداد التاريخي الى ما بعد الموت يزول كل تناقض ممكن بين غاية التاريخ وبين اسباب عملياته .

●

ولاريب ان هذا المفهوم للتاريخ ، وهذا المنهج لتفسيره يختلف اختلافاً جذرياً مع مفاهيم الاديان والفلسفات .

وهناك ناحية اخرى لا بد من الإشارة اليها وهي ان نظرية التفسير المادي للتاريخ لا تكون صالحة في تعليل بعض الاحداث والظواهر التاريخية الكبرى او بيان اسباب قيام الدول وسقوطها . وان هـــذا المنهج كما يقول العلامة تريتون : يفشل فشلاً ذريعاً في تعليل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم . فلم يبق أمام المؤرخين الا انينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، وقد رأوا انها لا تقع في هذا الشيء الجديد ألا وهو «الاسلام» رأوا ان الإسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة وميكانيكية حية . وهو علة العمران وسبيل الحضارة وهو الطريق الى جمع الكلمة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب » .

●

ولا ريب كانت روح الاسلام من القوة بحيث صرفت الناس عن ماضيهم

صرفاً تاماً[1] وساعد على ذلك ان الاسلام ليس ديناً فقط ، بل نظاماً اجتماعياً . فكان اسلامهم دخولاً في نظام جديد يقطع الصلة التي تربطهم بالماضي .

ولقد شهد المؤرخون المنصفون بأن فرداً او أمة دخلت الاسلام لم ترتد عنه أبداً . ذلك ان الاسلام دين وزيادة .

---

(١) حسين مؤنس الشرق الاسلامي .

الفصل الخامس

القرآن والأديان

جاء القرآن خاتماً لرسالات السماء ومكملاً للكتب المنزلة من قبله ومهيمناً عليها . وقد تميز الى ذلك بميزة كبرى هي أن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظه بينما وكلت الكتب الاخرى الى من أنزلت اليهم للاحتفاظ بها .

ومن هنا فان القرآن هو الكتاب الوحيد في العالم كله الذي حفظ من التحريف. وهو النص الموثوق الثابت الذي لم يتغير «والقرآن الذي في المصاحف بأيدي المسلمين شرقاً وغرباً فيما بين ذلك من أول أم القرآن الى آخر المعوذتين: كلام الله عز وجل . ووحيه أنزله على قلب نبيه محمد بن عبد الله » .

ولقد كان نزول القرآن على محمد ﷺ : في تقدير الباحثين والمؤرخين ، « أعظم حادث في تاريخ البشرية[1]» .

فلأول مرة ـ من بين الكتب السماوية الاخرى يظهر على الارض كتاب

---

(١) من بحث للدكتور سامي النشار .

ذو كلمات وحروف إلهيـــة ، لم يكتب سطراً من سطوره بشر ، ولم يخط حرفاً من حروفه انسان ، وقد أعلن الكتاب الإلهي إعلاناً لا محيص عنه انه آخر وحي من السماء ، وان رسالة السماء اكتملت به اكتمالها الأخير ، وان الدائرة الإلهية التي هبطت منها الألواح والصحف والكتب الإلهية الاخرى قد أقفلت نهائياً .

والقرآن هو أصل الشريعة الإسلامية وعمادها . وهو النموذج الأعلى لبلاغتها .

قال عبد الله بن عمر بن الخطاب : القرآن هو سياج اللغة العربية وحاميها الذي حفظ هذه اللغة ، وشغل المفكرين من العرب والمسلمين ببلاغته وبيانه، ذلك انه أنزل بلغة قريش وكان طبيعياً ان يكون القرآن بلغة قريش أفصح لغات العرب . لأن رسول الله قرشي ، وليكون هـــذا الكلام زعيم اللغات كلها .

ويقول الإمام الشافعي : ان الله أقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه – جل ثناؤه – كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه . فقال تبارك وتعالى : « **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذين يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين** » « **ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي** » .

ولو لم يكن القرآن لما اتفق للعربية الفصحى هذه الوحدة التي نجدها ولولاه لتعددت لغات العرب تعدد لهجاتهم ، وقد حال القرآن دون تفكك اللغة العربية ، ووقف حائلاً دون تغلب العامية . وحافظ على اللغة من الدثور والضياع .

يقول الباقلاني : ان كل كلمة مستعملة في القرآن هي عربية والأعاجم هم الذين أخذوها من العرب وحرفوها .

وقد كشف القرآن عن إعجازه وتحدى الله به الخلق جميعاً : وقد حاولوا تقليده فأعجزهم ، وقد أفحم من طولب بمعارضته من العرب حتى يئسوا واستسلموا .

وقد أعطى القرآن للعربية مكانة جـــديدة يعلو أصحابها على التبعية . يقول الشافعي : (ومن أولى الناس بالفضل في اللسان من لسان النبي ﷺ . ولا يجوز أن يكون أهل لسانه (أي العرب) أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد ، بل كل لسان تبع لسانه ، وكل أهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه) .

وإعجاز القرآن لا ينحصر في دقته وإعجازه البلاغي ، ولكنه يتعداه الى المجال العلمي والاجتماعي وتلك آيته الكبرى ، وما يزال إعجازه ينكشف يوماً بعد يوم .

(٢)

ميزة القرآن انه منهج اجتماعي متكامل يشمل الأسس العقائدية والتشريعية والأخلاقية للنظام الإسلامي ، ويقدمها بمختلف طرائق الإقناع والتدليل العقلي والوجداني والتاريخي . وهو في هـــذا كله يخاطب العالمين جميعاً لا العرب وحدهم .

ولأن القرآن جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها . فقد حقق الاصول الآتية :

(اولاً) استصفى كل ما جاء في الكتب السالفة وخاصة اصول العقيدة .

(ثانياً) ناقش مختلف التفسيرات الباطلة التي أضافها اصحاب الأديان وخرجوا بها بالحذف والإضافة عن اصولها وعن الميثاق الذي يؤكد ظهور محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة . وهو ما جاء في التوراة والانجيل .

(ثالثاً) فصل أحوال الأمم خلال فترة ما بعد رسالة عيسى الى أن جاء الاسلام فقص قصة أهل الكهف وأصحاب الأخدود وغزوة أبرهة لمكة .

(رابعاً) أخبر عن أشياء لم ترد في التوراة او الانجيل .

(خامساً) أجاب عن أسئلة ظنها أصحابها تحدياً . ومنها قصة ذي القرنين وغيرها .

(سادساً) أزال اللبس حول كثير من المسائل والامور . وحددها تحديداً واضحاً .

(٣)

أعلن القرآن وحدة الله مقابلاً لكل تفكير يوناني غير فكرة الله . سواء أكان صانعاً او محركاً ، كما أعلن فكرة الخلق (ان الله خالق وانه خلق من لا شيء وانه أوجد العالم من العدم) .

وبهذا هدم فكرة قدم المادة . وكما أعلن بدء الزمان ، فقد أعلن نهايته ، وبهذا أنكر سرمدية المادة وعدم فنائها .

« واذا كان القرآن ينكر قدم المادة . فقد أعلن حدوثها وحدوث العالم » . وكذلك وضع القرآن ميتافيزيقا كاملة لما وراء الطبيعة . وصور الكون في صورته النهائية . ولذلك وضع منهج المجتمع «الشريعة» ومنهج السلوك الإنساني «الأخلاق» ولم يترك جانباً من جوانب الفكر والعمل .

وبالجملة فقد وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله : فهو كتاب الكون من نشأته الى فنائه .

وقد أعلن القرآن حقائق الكون وحقائق الانسان . ودعا الى السيطرة على الحياة ، ووضع المسؤولية الفردية . ورفع الانسان الى اكتناه الآفاق

الكونية وعده مسؤولاً عن كل فعل من أفعاله « **من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** » وان الانسان لا يفتديه إلا عمله وحده وليس التضحية من نبيٍ او رسول . ولذلك أنكر القرآن صلب المسيح كفداء للمجموع ، وبهذا أقام ميزان الحياة وترك الإنسان يختار بمحض إرادته بين الخير والشر[1].

---

(١) استخلصنا هذا من بحث للدكتور سامي النشار .

(٤)

جمع القرآن في حياة النبي وحفظه الحفظة . ثم كتب بأيدي طائفة من كتاب الوحي الذين اختارهم النبي وحفظت منه نسخ متعددة . ثم جمعه المسلمون في مصحف واحد « والقرآن قد كتب في زمان نزوله من عند الله مباشرة ، آية آية . وكلمة كلمة في نفس الوقت الذي كانت تنزل فيه الآية او الكلمة . وكتب بطريقة تذهل العلماء ، فهي وحدها الطريقة العلمية المأمونة للتوثيق . ولم يوجد أي كتاب والعالم يشهد انه ليس على ظهر الأرض الآن كتاب غير القرآن ، بلغ فيه التوثيق هذا الحد ، والعلماء جميعاً في أنحاء الارض يشهدون انه لم يدوّن كتاب كما دوّن القرآن . فكان هناك في زمن الرسول اربعة تخصصوا لأن يكتبوا كل آية تنزل من القرآن بأمر الرسول مبلغاً عن الله في مكانها كما هي في المصحف الآن . وكانوا يسمون كتاب الوحي ومن حولهم عشرات ومئات من الصحابة يكتب كل منهم ما يريد » .

والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد في نقله على نسـخ المصاحف ، بل الاعتماد على حفظ اهل التواتر له في صدورهم[١] وبذلك[٢] وصل الينا النص القرآني كاملاً خالياً من التحريف والتغيير سالماً من التناقض الذي أصاب

---

(١) الاديان في القرآن .

(٢) عبد الصبور شاهين .

ما سبقه من الكتب المقدسة (التوراة والانجيل) بحيث اختلط في هـــذه الكتب ما كان من كلام الله بما هو من حكايات البشر ووضع الكهان وتخيلات أصحاب الأهواء ، على صورة تجعل نسبتها الى رسالات الانبياء ازدراء بمقام الألوهية والنبوة معاً[1] .

وقد كان املاء القرآن بمثابة حفاظ ضخم يحول دون تغيره بتغير المفاهيم والثقافة . وهو في نظر الباحثين عامل ضخم قدس التاريخ وقدس حروفه «فبحفر القرآن باللغة العربية حفرت مبادىء التفهم بلا خوف من تمزيق او ترويم اوتفريس او تهنيد او تأنكلز او تألمن او تفرنس الدين[2] وقد أدى ذلك بـ (لورد سالزبوري) ان يقول : ان المصحف اليوم هو الدلالة الوحيدة على وحدة المسلمين والمرجع الوحيد لجميع أمم الاسلام . وكان هذا من الدعامة التي جعلت القرآن ثابت الرواية والإعجاز ، كما جعلته صامداً أمام النقـــد والتمحيص . « وقد وجدت في العهد القديم والعهد الجديد أشياء كثيرة لا يسيغها العقل . وهي أدنى الى الوثنية ، وكثير منها وجد في ديانات سابقة وقد خلا القرآن من كل هذا ، فضلاً عن فقدان الكتب المقدسة التي جاء بها الأنبياء وعدم تلقيها ورواياتها بطريقة متواترة تقطع الشك . ومن هنا فان القرآن المدون الآن هو القرآن الذي قرأه محمد ﷺ وأصحابه ، لم ينقص منه حرف . ولم يزد عليه حرف ، وقد وضع له علم يحفظ طريقة أدائه والنطق به على ما كانت في عهد الرسول . وليس الأمر كذلك في التوراة والانجيل[3].

ومسألة اللغة من أهم مقومات حفظ النص القرآني . فقد اشتمل القرآن على انه عربي اللغة والبيان أما الانجيل فانه لم يتعرض للغة . وقد كتب بألف

---

(١) عبد الصبور شاهين .
(٢) دكتور اسماعيل راجي الفاروقي .
(٣) عبد الجليل شلبي .

لهجة . وقد عمدت الكنيسة الكاثوليكية الى استبدال لغة الانجيل الاصلية بلغة ثانية مقدسة : هي اللغة اللاتينية . وبينما دعا القرآن العلم والنظر في آفاق السموات والارض ، قال رجال الأديان : ان الكتب المقدسة حاوية على كل ما يحتاج اليه البشر في المعاش والمعاد: وأشاروا الى أن أساس كل علم هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة « فالكتاب المقدس يحوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر ان يبلوه ، فضلاً عن التسليم بما جاء في الكتب من وصف السماء والأرض وما فيها وتاريخ الأمم مهما خالف العقل . او خالف شاهد الحس[1] » .

فاذا قدرنا كيف جمع القرآن في دقة ويقظة منذ وقت نزوله اولاً بأول . رأينا (نولدكه) في كتاب اللغة السامية يقول : ان التوراة جمعت بعد موسى بسبعمائة عام . وبالنظر لاستغراق تأليفها وجمعها زمناً متطاولاً تعرضت حياله للزيادة والنقص ، وانه من العسير ان نجد جملة متكاملة في التوراة مما جاء عن موسى لأن التوراة لم تدون في عهده ولا في الجيل الذي تلاه .

وتقول دائرة المعارف الفرنسية : تحت مادة (توراة) « ان العلم العصري . ولا سيما النقد الألماني قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات ان التوراة لم يكتبها موسى . وإنما هي من عمل أحبار لم يذكروا اسمهم عليها ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل » .

ويؤكد الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي في كتابه (أصول الصهيونية في الدين اليهودي) ان التوراة التي بين أيدينا الآن هي هذا الكتاب الذي جمعه عزرا حوالي ٤٢٥ قبل الميلاد وان التوراة كانت كتاباً إلهياً عزيزاً الا

---

(١) الشيخ محمد عبده .

ان اليهود حرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلهية ومراميها الاخلاقية العالمية. فجعلوا منها كتاباً تعصبياً عنصرياً حتى اسم الإله بدل ، فبدلاً من أن يدعي باسم الحق وهو إله العالمين ورب البشر جعلته العنصرية اليهودية (إله ابراهيم ويعقوب وإسرائيل فحسب) .

وقد أدخل عزرا الحقد والتشفي والكراهية والانتقام فأخذ يتغنى بأعمال العنف والقتل والتخريب ، بل ويختلق القصص اختلاقاً لتمجيد العنصرية اليهودية . ليس الله ، بل عزرا هو القائل : لأنكم عابرون الاردن الى ارض كنعان ، فتطردون كل سكان الارض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتحرقون جميع مرتفعاتهم وتملكون الارض وتسكنون فيها لأني أعطيتكم الأرض لكي تملكوها » .

ويصل الدكتور الفاروقي الى القول بأن عزرا هو بكل حق مؤسس الدين اليهودي كما نعرفه الآن . ولا عجب ان اعتبره اليهود ابناً لله . وهو الذي اكتملت التوراة بعملية مسحه الوثيقة ، لأنه بعمله هذا بعث الهوية اليهودية» .

وقد أشار جان ملز الكاثوليكي ص ١١٥ من كتابه المطبوع ١٨٤٣ على أن أهل العلم اتفقوا على ان نسخ التوراة الأصلية ، وكذا كل كتب العهد القديم ضاعت بأيدي عسكر بختنصر ويقول المشـــير عزت باشا في كتابه (الدين والعلم) « ان الموسويين يعترفون بأن التوراة قد ضاعت » .

ويقول الفاروقي : ان التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذي كتبه عزرا ـ (عزير عند العرب) مختلفاً عما أنزل على موسى ، فبين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان » .

●

والأمر بالنسبة للانجيل كالأمر بالنسبة للتوراة . وهناك إجماع لا اختلاف فيه على ان الانجيل هو ما كتبه الرسل . وليس هو الكتاب المنزل من عند الله على السيد المسيح . والانجيل كلمة يونانية معربة بمعنى (البشارة) وهو اسم يطلق على الكتب التي «وضعت» بعد زمن المسيح وتقصّي أحواله وأعماله وأقواله التي وعظ بها ، ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله على يده ، ويعرف الانجيل بالعهد الجديد تمييزاً له عن التوراة او العهد القديم ، قام بكتابة هذه الأناجيل بعض تلاميذ المسيح وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم حتى قيل ان الأناجيل بلغت نيفاً ومائة إنجيل . الا ان الكنيسة المسيحية لا تعترف الا بأربعة من هذه الأناجيل . واعتبرت الاخرى منحولة وهي : (متى – مرقس – لوقا – يوحنا) . وانجيل متى هو أقدم هذه الاناجيل . وقد كتب بعد عيسى بثلاثين سنة في أورشليم باللغة العبرية ، أما انجيل مرقص فكتب باللغة اليونانية في روما بعد انجيل متى ونشر عام ٦٦ . أما انجيل يوحنا فكتب بعد موت المسيح بستين سنة[١].

ومادة الاناجيل الاربعة لا تخرج عن ان تكون تاريخاً لحياة المسيح ، ويذهب ابن حزم في كتابه الفصل : الى ان أهل الاناجيل مجمعون دون استثناء على انها ليست من عند الله . ولا من عند المسيح . وانه لا خلاف بين أهل الانجيل الاوائل وبين غيرهم على انه لم يؤمن بالمسيح في حياته الا مائة وعشرون رجلاً فقط ونسمعه يقول .... !

ذهب انجيل عيسى وحفظت أناجيل الرسل جانباً من أقواله ، ولكنها لم تحفظها كلها . والرسل لم ينقلوا كلامهم سماعاً منه لأنهم لم يروه . وانما رددوا عن آخرين ليسوا معروفين ، ولا معروف درجة حفظهم ، فهي رواية آحاد ، والاناجيل كتب سيرة ، وليست كتباً من السماء . ولقد كان القرآن

---

(١) دائرة معارف القرن ١٩ الفرنسية .

بإعجازه وصحة روايته حفيظ على ما جاء في التوراة والانجيـــل ، وأبر ّ باليهودية والنصرانية من أتباعها . وصدق منهما ما كذبه الدارسون المحدثون». وقد قرر القرآن ان الانجيل قد تناوله التحريف والتبديل . وان انجيـــل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم ، وسلم الى تلاميذه ، وأمرهم ان يبشروا به لا يوجد الآن، وانما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ . أما التوراة الاصلي والانجيل الاصلي فقد فقدا قبل بعثة محمد ﷺ والموجود الآن بمنزلة كتابين من الســـير مجموعين من الروايات الصحيحة والكاذبة . والروايات الموجودة ان صدقها القرآن فهي مقبولة عند المسلمين وان كذبها القرآن فهي مردودة يقيناً »[1].

•

ومن هنا نصل الى ان النص القرآني قد وصل الينا كاملا . وان الكتب المنزلة الاخرى قد أصابها التحريف . وان ما يوجد منها الآن ليس هو الاصل المنزل من عند الله .

وقد تناول كثير من الابحاث ودوائر المعارف قضية التحريف التي هي الاساس الاول للخلاف بين القرآن وبين تفسيرات الاديان في القضايا الحاسمة من دين الله الواحد الحق .

ولا ريب ان اتهام القرآن لليهود بتعدد ما أنزل اليهم من كتبها . وبخاصة التوراة : قد أكدته عشرات الابحاث العلمية العصرية . وأشارت اليه ، وأيدت موقف القرآن . ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام حين اتصل باليهود والنصارى فيمكة والمدينة ــ في استطاعته ان يغير دين الله ليرضيهم. ولكنه كان قادراً على ان يقول الحقيقة كلها .

---

(١) الاديان في القرآن ــ للدكتور محمود بن الشريف .

ولقد كان اليهود والنصارى يعلمون برسالة محمـــد قبل بعثته . وكانت البشارة به واردة في التوراة والانجيل، ولكنهم أخفوها إلا قليلا منهم . ولم يكن محمد في الحقيقة مناقضاً لما أنزل في الكتب المقدسة القديمة . ولكن أهل هذه الكتب هم الذين حرفوها . وان ما كان بين أيديهم في ذلك الوقت لم يكن هو الكتاب المنزل . ولكنه كان «التحريف» بالاضافة والحذف . وان ما كان يقوله محمد مما نزل في القرآن من عند الله هو الحق ، وما كان بين أيدي أهل الكتاب لم يكن الا هو التحريف ، ولم يكن قول الرسول ان اليهود حرفوا الكتاب محض ادعاء . ولكنه كان هو الحق الذي لا مرية فيه ، وأبلغ ما في هذا التحريف إنكارهم مبعثه ودعوته مع ان ذلك موجود لديهم . وقد كانوا قبـــل مبعثه يعلنونه للناس ويترقبونه[1] (الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) وقد جاءت الآيات متعددة تشير الى هذا التحريف : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » « وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله» . «قل ما أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » .

●

وهكذا قرر القرآن في وضوح . ان التوراة المتداولة قد أصابها التحريف والتعديل والنسيان والاخفاء . فهي ليست التوراة الإلهيـــة الاصلية ذات التعاليم المقدسة والشريعة الربانية : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به » .

●

---

(١) هذا رد على ما جاء في مادة تحريف في دائرة المعارف الاسلامية .

وقد أكد الدكتور هريري لوي اليهودي : صاحب كتاب أديان العالم الكبرى : ان هنـــاك عقائد دخيلة انسابت الى اليهودية عن فارس وبابل والإغريق لا سند لها في اليهودية بالذات ويصدق هذا على ما أورده كثير من الباحثين[1] من انه عام ٨٥٠ قبل الميلاد . حاول كاتب او راوٍ او محدثٍ عبري ان يجمع من الفلكلون الكنعاني ما كان شائعاً بين الناس من قصص وأساطير . وروايات عن الآلهة (ابل ومرووك والبعل) وطبيعي ان يعزو هذه القصص والاخبار الى يهوه ، ثم انه حاول أن يجمـــع تاريخ قومه بادئاً بقصة الخليفة كما كانت عند البابليين هذا الكاتب سبق الاغريق في محاولة كتابة التاريخ بشكل ملحمة رائعة وأفشت عناصر هلينية .

---

(١) انيس فريحه — مجلة الابحاث .

(٥)

يقول الدكتور[١] يعقوب صروف : لا يعلم من كتب التوراة اول مرة ، ولا الزمن الذي كتبت فيه اولاً .

أما الانجيل فالظاهر مما قاله الأسقف (بابياس) الذي كان في النصف الأول من القرن الثاني المسيحي ان مرقص كان يكتب ما رواه بطرس ، فكتب بالتدقيق كل ما تذكره مما قاله المسيح ، او فعله من غير ان يراعي في ذلك الترتيب التاريخي . وكان ذلك باللغة الأرامية ثم ترجم ما كتبه الى اللغة اليونانية . ونشأت من ذلك الاناجيل الاربعة . والظاهر انها كتبت في عهد الرسل . وكان استعمال البردى قد شاع حينئذ . وكتب عليه اليونان بلغتهم» وأبرز ما يكشف عنه الإنجيل : ذلك التناقض والاختلاف في مولد المسيح ونسبه ، وصفاته ومماته . والاختلاف قائم بين التوراة السبعينية . والتوراة السامرية ، وكذلك الاختلاف بين الاناجيل الاربعة « هذا[٢] فضلاً عن التوراة والاناجيل ترجمت من لغات كثيرة الى لغات اخرى ، وانها كتبت بعد زمان نزولها والرسالة بها ، فليست نص كلام الله ، وليست كلام المرسلين .

---

(١) المقتطف مجلد ١٩٢٤ .

(٢) الاديان في القرآن .

وانما كتبها أتباع المرسلين بعد فترات طويلة من رسالتهم » والاناجيل في هذا تختلف عن القرآن في عدة اصول :

اولاً : القرآن واحد ، والاناجيل متعددة .

ثانياً : الاناجيل نسبت الى واضعيها من البشر (لوقا ويوحنا ومرقص ومتى) وهؤلاء الاربعة لم يكونوا من الحواريين ، بينما ينسب القرآن الى الله سبحانه .

ثالثاً : الاختلاطات والاختلافات الكثيرة بين طبعات التوراة والانجيل وترجماتها . ومنها الاخطاء الناتجة عن عدم الدقة في الترجمة او الطباعة ومنها الاخطاء والتعبيرات المتعمدة بالتحريف والتأويل ، وفيها الاختلافات الناشئة عن طريق النطق بالأحرف المكتوبة . (وقد حكم ابن تيمية وغـــيره بأن ترجمة القرآن من العبرية الى اللاتينية . وهو ما عبر عنه بالنسخ قد أحدث اختلافاً بينما لا يوجد فيالقرآن أي اختلاط او اختلاف او خطأ) . (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

رابعاً : الاناجيل لم تكن كلام الله بإجماع العالم أجمع . أما القرآن فهو كلام الله ، بل ان الاناجيل ليست من كلام سيدنا عيسى . وعلى هذا فلا يمكن مقارنتها بالقرآن ولا بكتب الحديث[١] .

خامساً : ان كتبة الانجيل لم يكونوا في مستوى الرسالة المنزلة : يقول ارنست رينان في كتابه تاريخ المسيح : ان كتبة الإنجيل أنفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع ، كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى انهم لعدم وصولهم الى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن أفكاره . ففي كتاباتهم كثير

---

(١) هذه المقارنات استقيناها من كتاب الاديان في القرآن .

من الاخطاء والمتناقضات . وفي كل سطر منها ما يشعر القارىء بأن هناك جمالاً إلهياً ، ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وإيراده لأنه لا يفهمه . ولذلك يبدله بفكره الخاص ، وجملة الكلام ان تلامذة يسوع قد أضعفوا جمال صورته بدل ان يزيدوها زينة . وكثيراً ما راموا هذه الزينة فتحولت بين أيديهم ضعفاً » .

وقال لاردنر في بحثه عن الاناجيل : لقد حكم على الاناجيل المقدسة (من أجل جهالة معتنقيها) بأنها ليست حسنة بأمر السلطان أغسيطينوس في في الايام التي كان حاكماً فيها على القسطيطنة فصححت مرة اخرى . (وفي هذا دليل على ان النصارى لا يعتقدون كون هذه الاناجيل عن المسيح ، وكونها من تصنيف الحواريين اذ لو كانت من المسيح لما جاز تصحيحها) .

وقال الكهوف : نقلاً عن لسان ساليسوس الذي كان في القرن الثاني للميلاد : لقد بدل المسيحيون أناجيلهم ثلاث او أربع مرات، بل أزيد تبديلاً غيَّر جميع مضامينها . وأشار كثير من المؤرخين الى ان نسـخ الاناجيل الاصلية في القرن الرابع كانت مفقودة لا أثر لها لأنها كانت قد أحرقت مع كتب النصارى في عهد القيصر ديوقلديانوس .

●

ويمكن هنا ان نشير الى ظاهرة التناقض الواضحة بين العهد القديم والعهد الجديد من ناحية دين الاناجيل الاربعة ذاتها في كثير من المسائل والقضايا الاساسية .

وأبرز الخلافات بين العهد القديم والعهد الجديد ان إله اليهود غير إله النصارى .

(٦)

من أكبر ما أشار اليه القرآن . الخلاف بين مفهوم الاســـلام عن الله سبحانه وتعالى إله العالمين ، ومفهوم اليهودية عن الإله الخاص : إله الحرب وإله بني اسرائيل وحدهم . والإله يهوه كما وصفته التوراة متوحش شرير شغوف بالخراب والفساد وإراقة الدماء (يهوه رب الجنـــود) . يقول ول ديورانت : عمد اليهود الى أحد آلهة كنعان فصاغوه في الصورة التي كانوا هم عليها ، وجعلوا منه إلهاً صارماً ذا نزعة حربية صعب المراس ، وهذا الإله لا يطلب من الناس ان يعتقدوا انه عالم بكل شيء ، كذلك لا يعتبر نفسه معصوماً من الخطأ . وقد استتبع هذا التحريف : تحريف آخر ، بل ان هذا التحريف قد قصد به الى تزييف الرابطة القائمة بين ابراهيم ومحمد . ومحاولة قصر ابراهيم على اليهود وحدهم ، وتحويل التوراه من الحنيفية الى العنصرية . وتحريف الاحداث التاريخية بحيث تحذف العرب واسماعيل ورحلة ابراهيم الى مكة وبناء البيت الحرام . وبالتالي البشارة بمحمد ﷺ ، وقصر ميراث ابراهيم على فرع واحد هو اسحاق ويعقوب . ومحاولة تفسير الملك العظيم الذي أعطاه الله لإبراهيم وأبنائه انه لليهود وحـــدهم دون أبنائه وأحفاده جميعاً .

ويصور الدكتور اسماعيل راجي الفاروقي هذا التحريف في مقارنة واضحة

بين التوراة والإنجيل فيقول : أظهرت التوراة الحقائق التاريخية في قالب يؤكد (المنصرية) ، أما القرآن الكريم فقد قدمها في قالب يؤكد (الحنيفية) ولكن المسألة ليست مسألة مجرد اختلاف في وجهة نظر الحنيفية الا أنها غيرت نفسها على مرور الزمن ، وهذا دليل على ان الحنيفية هي الحق كما قال القرآن ، فوجود الحنيفية في التوراة بشكل محرف دليل خارجي على صدق خبر القرآن الكريم . « المنصرية تمثل حزباً او قبيلة من المهاجرين أنفسهم كنوع أفضل من المخلوقات . واتباع نظام أخلاقي يقضي بالحفاظ على سلالة عنصرهم . وعدم الانصهار في أي قبيلة او شعب او أمة أخرى .

أما الحنيفية فهي تمثل المهاجرين أنفسهم كذوي رسالة يحملونها الى البشر أجمع ويحققونها بالانصهار في جسم البشرية التي كانوا وبإهداء الذين ينصهرون معهم عن طريق المصاهرة والمؤاخاة ـ لغتهم وثقافتهم ورسالتهم . لذلك جاءت التوراة بعد بلورتها العنصرية تقول : بأن ابراهيم هاجر لأن يهوه أمره بذلك ، ولكنها تتعمد السكوت على أمر يهوه . فهي تقول انه أمر تلقائي عرفي ، أي لا سبب له ، فالله في نظرها فضله لأنه هو ، وقد فضل ذريته لأنها ذريته ، بل قطع عهداً (لا ميثاقاً) [والفرق بين العهد والميثاق ان الأول ذو اتجاه واحد . أي يلزم جهة واحدة] على نفسه بتفضيلها مهما حدث الى الابد حتى الإله تمثلته كإله هذا العصر من دون الناس .

«أما القرآن الكريم فجاء يعلن ان الله: إله الجميع ، لا قدرة وقهراً . بل حباً ورحمة . وجاء يؤكد ان هجرة ابراهيم لسبب رجيه ، هو «التوحيد» وأن الله أعطى له ميثاقاً بأنه تعالى سيجازيه أحسن الجزاء اذا قام وقومه بتحقيق أمانة السموات . وأن الله تعالى سيعاقبه أشد العقاب ، بل سيتبدله

---

(١) دكتور اسماعيل الفاروقي : مجلة كلية الآداب م ٢١/١٩٥٩ .

وقومه اذا لم يحققوا هذه الأمانة» وفي ضوء هذا المفهوم العنصري أعاد اليهود كتابة التوراة وجعلوها منطلقاً لهدفهم .

●

ويقول ان الاحداث التاريخية من هجرة ابراهيم وأولاده من العراق الى الشام الى مكة ، واختباراتهم في مصر ، واضطهاد فرعون لهم .

ان الأسفار الخمسة قدمت لنا هذا التاريخ من حيث رأته العنصرية . فجعلت لنفسها مركز الثقل . أما القرآن الكريم وهو صوت الحق . فقد رأى هذه الأحداث من حيث رأتها الحنيفية .

ويشير الكاتبان الفرنسيان (جاك دوماك وماري لورا) الى وعد ابراهيم فيقولان : انه لو صحت آية التوراة في هذا الوعد ، فانه ينصب اذاً على ابراهيم البكر : « اسماعيل الى العرب » وأشارت الأبحاث الى ان كل ما ذكرته التوراة من تهجير ونقل واستئصال السكان في فلسطين كذب فهو انعكاس لروح العنصرية .. المتعالة في العصور المتلاحقة . ولا ريب ان اخطاء اليهودية في الالوهية متعددة ، وتحريف التوراة عميق وخاصة فيما يتعلق بتجسيد الله سبحانه وتعالى . والتطاول على مقام الانبياء . وتصوير الذات الإلهية في صورة بشرية ضعيفة .

وقد دحض القرآن زيفهم في قولهم ان الله بعد ان خلق الكون في ستة أيام استراح في اليوم السابع . وقد أشار القرآن الى كذب ذلك في أكثر من موضع « **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** » وكانوا قد وصفوا إلههم بأن التّعب قد هدّه . والنصب والجهد قد حطه . وكذلك زيف دعواهم في القول بأن لهم إلهاً خاصاً بهم، وللشعوب

الاخرى آلهة أخرى ، وان إله شعب اسرائيل ليس كبقية آلهــــة البشر الاخرى . وانهم أولاد إلههم وأحباؤه .

●

كما كشف القرآن عن زيفهم في اتخاذ رهبانهم وأحبارهم أرباباً تعبد من دون الله وتشارك في العبادة . « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**) .

●

هذا بالاضافة الى ما نسبوه الى ابراهيم ويعقوب ولوط والمسيح وداود من أكاذيب وما حرفوا به تاريخهم ، وان ما أوردوه عن الانبياء صلوات الله عليهم يتنافى مع عصمتهم التي حفظها الله سبحانه وتعالى لهم . فالانبياء معصومون من كل ما أوردته التوراة في حقهم من فساد واتهام . وخاصة قصة لوط وبناته . وقصة سليمان والنساء وقصة داود وقصة ابراهيم وزوجته سارة[1] .

---

(١) الاديان في القرآن : محمود بن الشريف .

(٧)

ومما أثار القرآن : دعوى ألوهية عيسى وناقش فرق النصارى المختلفة[١] التي اعتنقت وجهات نظر متباينة ، بخصوص طبيعة السيد المسيح . وأبان بأن التثليث انحراف طرأ على دعوة المسيح الحق . وان دعوته الحقة هي الإقرار بالربوبية والألوهية والتوحيد الكامل المطلق « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم** » . « **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد** » .

وقد كشف القرآن عن أن عيسى رسول من عند الله ، أنزل الله عليه الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة ورسولاً الى بني اسرائيل . « **وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة** » . وانه حمل لواء الدعوة الى عبادة الله الواحد ، والتبشير بالرسول النبي الأمّيّ ، وليحل لليهود بعض الذي حرم عليهم .

وقد قرر القرآن ان الإنجيل قد تناوله التحريف والتبديل في مسائل التثليث والخلاص والصلب وألوهية عيسى . فالمسيح لم يصلب ولكنه شُبّه لهم ، وخطيئة آدم ليست خطيئة البشرية . وقد تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وهدى .

---

(١) راجع بحث الدكتور عرفان عبد الحميد « مجلة كلية آداب بغداد سنة ١٩٧٠ » .

وان المسيحية ليست ديناً عالمياً . ولكنه أخر رسالات السماء الى بني اسرائيل ، وان الذبيح الذي تقـــدم به الخليل ابراهيم عليه السلام للفداء هو اسماعيل وليس اسحاق كما هو مذكور في التوراة وكما يعتقـــد المسيحيون . وان المسيح هو عبد الله ورسوله وأمه صديقة وانه ليس إلهاً . وانه يأكل الطعام ويمشي في الاسواق . وأبان عن ان خلق آدم أشد عجباً من خلق عيسى . وقد بيّن الاسلام خطأ عقيدة التثليث « **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة** » .

وأنكر القرآن عقيدة الصلب : وقال ان عيسى لم يصلب ولم يقتل .

(٨)

كشف القرآن عن أكبر زيف في التوراة . وهو إنكار البعث والجزاء . واعتبار ان الدنيا هي كل شيء . وان السعي لهـــا هو غاية الغايات . وانها لا تشير الى حياة اخرى بعد الموت ولم يرد في دينهم شيء عن الخلود . ومجال اليهودية هذا العالم وحده دون نظر الى ما وراء ذلك ، بينما تجعل المسيحية من العالم الآخر وحده عالمها (ان مملكتي ليست في هذا العالم) . وهي لا تتحدث عن خلود الروح بعد الموت او القول بالبعث والحساب والعقاب ، وان البعث والجزاء في الدنيا .

ويقول سفر الجامعة : (ليس للانسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل ، يذهب كلاهما الى مكان واحد ، كان كلاهما من التراب ، والى التراب يعود كلاهما) .

(٩)

أثار القرآن مسائل مختلفة مع النحل المختلفة : وناقش أصحاب الديانات الثنوية من المجوس كالزرادشية والمانوية . وعارض دعواهم بوجـــود إلهين خالقين : أحدهما يخلق الخير ويختفي به . والآخر يخلق الشر ويختفي به « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » « وما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » .

●

كما بين القرآن حقيقة ديانة قدماء المصريين . وان فرعون كان إلهاً يعبد في نظر المصريين : « فحشر فنادى أنا ربكم الأعلى » . وهذا هو عين ما قاله التاريخ بعد ان أزيح الستار عنه وكشف غوامضه في القرنين الأخيرين، اذ كان المصريون يقدسون الملك ويعتبرونه كبير آلهتهم . وكانوا يسمونه (حورس الحي) .

وقد أشار القرآن في سورة الشعراء الى خطاب فرعون الى موسى :

« **لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين** » وفي سورة القصص في خطاب فرعون الى شعبه : « **وقال فرعون يا أيها الملأ ما لكم من إله غيري** » . كما وصف ديانة المصريين على لسان يوسف . « **يا صَاحِبَيِ السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** » وكانوا يعبدون أرباباً متفرقة حتى ان لكل بلد إلهها الخاص .

(١٠)

أثار القرآن مسألة النسخ التي أنكرها اليهود ، إذ زعموا[1] ان الشريعة لا تكون الا واحدة ، وهي ابتدأت بموسى وتمت به فلم تكن قبله شريعة . وقالوا فلا يكون بعده شريعة . وقد ناقشهم القرآن بقوله : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » . « واذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » .

---

(١) من بحث للدكتور عرفان عبد الحميد (كلية آداب بغداد) ١٩٧٠ .

(١١)

كيف زيف القرآن ما أوردته الفلسفة اليونانية . فعارض الفكرة التي تقول بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات . ومن ذلك قول أرسطو في نفي الارادة والتدبير والعلم الجزئي عن الله . وقد نبه القرآن الى ان الله تعالى لم يصنع ما صنع ثم تركه دون عناية او رعاية . او دون علم تام بما يكون به ، بل انه قد أحاط بكل شيء علماً .

« ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . « يدبر الأمر يفصل الآيات » . « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه » . « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر » .

يقول باركلي : لقد تراءى لبعض الفلاسفة مع اقتناعهم بحكمة الخالق وقدرته مما يتجلى في خلق هذه الاشياء المتناسقة وتدبيرها وإيجاد نظام يحكم العالم انه قد تخلى عن هذا العالم بعد ان ضمن نظامه وبعث الحركة فيه كما يتخلى الصانع عن الساعة التي صنعها . غير ان هذه اللغة التي يتحدث بها الله الينا تبرهن ليس فقط على وجود خالق لهذا الكون ، بل على وجود مدبر له يولي عنايته به وحاضر حضوراً مباشراً وباطناً فيه ، لا يعزب عنه أية رغبة من رغباتنا او أي حركة من حركاتنا ، دائب العناية لأقل فعل من أفعالنا ولأتفه مشروع من مشروعاتنا طوال حياتنا كلها[١].

---

(١) عن نص للدكتور يحيى هويدي .

(١٢)

ان أخطر ما يتسم به القرآن في مجال النظر الى الكتب السماوية الاخرى هو ما عبر عنه القرآن نفسه بأنه هيمنة القرآن التاريخية والعلمية . « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » والقرآن له طابعه الخاص في التاريخ حيث يتناول الحوادث تناولاً يدل على استقلاله العلمي ، وله في وسطها أسلوبه الخاص الذي يدل على هذا الاستقلال[١] فقد ذكر أشياء لم تذكرها التوراة ولم يذكرها الانجيل .

أولاً : ان توحيد ابراهيم وتحطيم الاوثان التي كان يقدسها أبوه وأهله لم تذكر في أي أثر وصل الينا قبل القرآن الكريم .

ثانياً : التوراة لم تتناول حياة ابراهيم بين الكلدانيين ومجهوداته لإقناعهم بوجود إله واحد ومحاولة نشر دعوته وتحطيم أصنامهم وقذفهم في النار ونجاته منها . ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما . كما لم تتكلم عن إعادة بناء ابراهيم واسماعيل للبيت الحرام بينما تناول القرآن هذه الموضوعات .

---

(١) الأديان في القرآن : محمود بن الشريف .

ثالثاً : التوراة لم تعرض لكيفية براءة يوسف مما نسب اليه بشأن امرأة العزيز ، بينما شرحها القرآن شرحاً وافياً . وان واحداً من أهلها شهد بالحق، وقد ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ليكون أوجب للحجة وأوثق لبراءة يوسف .

رابعاً : فسر القرآن ما حار فيه الناس عن الاسلوب الذي حفظ به يوسف القمح سبع سنين من التلف والسوس .

خامساً : انفرد القرآن دون التوراة في مسائل كثيرة . ومنها مسألة موسى :

(١) الشرط الذي اشترطه شعيب على موسى لتزويجه احدى ابنتيه وقضاء موسى الاجل .
(٢) ايمان السحرة الذين اتخذوا موسى وسحورهم لله وصلب فرعون لهم وتعذيبهم .
(٣) امرأة فرعون وإيمانها خفية . وأمر فرعون لهامان أن يبني له صرحاً ليطلع إلى إله موسى .
(٤) انتشال جثة فرعون بعد غرقه .
(٥) مؤمن آل فرعون الذي أخذ يهدي الشعب .

●

وليست هيمنة القرآن هي هيمنة تاريخية فحسب ، ولكنها هيمنة في مختلف النواحي التشريعية والاخلاقية والتربوية والاجتماعية . فضلاً عن الحقائق العلمية والفلكية والطبية التي ما زالت تتكشف أسرارها الباهرة يوماً بعد يوم . ومن ذلك ما أورده القرآن عن جلود الكافرين « إن الذين

كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » .

يقول الدكتور عبد العزيز اسماعيل في كتابه (الاسلام والطب والحديث): الحكمة في تبديل جلود الكفار ان أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية . أما الأنسجة والعضلات والاعضاء الداخلية . فالاحساس فيها ضعيف ، لذلك فان الحرق البسيط الذي يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً بخـــلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد الى الانسجة لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كبيراً[1] .

●

(١) استعنا في هذا الفصل بنصوص من كتاب (الأديان في القرآن) .

(١٣)

حرص الاسلام على الحيلولة دون رفع محمد الى مرتبة الآلهة « فقد أعلن الاسلام صراحة ان محمداً بشر عادي ، وانه عبد الله ورسوله ، ولا سيطرة له على الناس « لست عليهم بمسيطر » وانه لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ، بل كثيراً ما عوتب النبي في القرآن عتاباً شديداً »[١].

أما المسيحيون فقد خلطوا بين الخالق والمخلوق فصادموا العقل والفطرة، « ولقد كانت[٢] ولادة عيسى من غير أب مثار خلاف واسع بين اليهود الذين تطرفوا الى الجهة السفلى فزعموا انه لقيط . وان امه بغي وبين المسيحيين الذين تطرفوا الى الجانب الآخر فزعموا انه إله في صورة بشر .

أما المسلمون فقد توسطوا فنفوا عن أمه الزنا . وبذلك خالفوا اليهود . كما نفوا عنه الالوهية . وبذلك خالفوا النصارى . وفرق المسلمون بين الخالق والمخلوق ، وبين الالوهية والنبوة .

●

أما الاسلام فقد اعترف بالأديان المنزلة كلها ، واعترف بالرسل . أما

(١ و ٢) من بحث للاستاذ عبد الحي العمراوي عن الفكر الإسلامي .

اليهودية والمسيحية فلم يعترفا بالإسلام ، وبينما وضع الاسلام نظاماً للتعايش مع الاديان . ورفض رفضاً باتاً اكراه أحد على الخروج من دينه . فقد جاء في الانجيل « اجبروهم على اعتناق دينكم » وحرص المسلمون على حماية كنائس المسيحيين وبيع اليهود ، ونهى من قتل رهبانهم وصبيانهم ونسائهم . وحفظ لهم أداء طقوسهم ، أما اليهود والنصارى فعاملوا المسلمين أقسى معاملة في مثل هذه المجالات .

الباب الثالث

الإسلام والأديان

الفصل الأول

معالم الاسلام

التوحيد :

(١) الإيمان بالله وحده دون اشراك او تثنية او تعدد .

(٢) الإيمان برسالة جميع الانبياء والرسل والكتب المنزلة .

(٣) الاقرار بوحدة البشرية ووحدة الدين ، ووحدة الاخلاق وثباتها . انكار مفاهيم الحلول والاتحاد ، وإقرار وحدانية الله ، وتفرده بأنه سبحانه الاول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، وان هذا الكون كله من صنعه . وهو ليس متحداً به .

وقد جعل الاسلام العلاقة بين الانسان وربه علاقة مباشرة بدون وساطة . والتوحيد هو العامل الاول الذي يعطي المسلم شعور العزة والكرامة ، والارتفاع على الاحداث والاخطار .

(٢)

الجمع بين العقيدة والتشريع والاخلاق في كل متكامل والربط بينها بحيث لا يجوز تجعل تجزئة هذه العناصر الثلاثة . ولذلك لم يفرق الاسلام بين العقيدة كعبادة ـ والشريعة كقانون ـ والأخلاق كسياج كامل تتحرك فيه كل القيم ـ وفرائض الإسلام لا تزيد عن الطاقة ـ ولا يقر الاســلام الإسراف ولا البخل .

(٣)

حــرية الفكر :

بروز قاعدة حرية الفكر : « لا إكراه في الدين » وأكبر تحرير للفكر في الاسلام هو تحريره من الوثنية والمادية ، والإسلام أول من علّم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين فيكون المسلم صحيح الاسلام . وفي نفس الوقت حر الفكر .

(٤)

لا تزر وازرة وزر أخرى :

ليس الانسان مسؤولاً عن خطيئة أحد ، وليس هناك خطيئة لأحد مهما كان ، تنسحب على الناس جميعاً ، او البشرية كلها ، بل ناط الاسلام بكل انسان تبعة أعماله وتصرفاته .

وقد أقام الاسلام حرية الاختيار . وتبعة الأعمال ، وقرر ان الاصل في الانسان الخير على خلاف ما تقول به أديان أخرى ، من أن الانسان خلق خاطئاً ، او كان في اول أمره إنساً بينما يقرر القرآن ان الانسان خلق طاهراً وخلق تاماً . وليس في الاسلام ان الخطيئة موروثة في الانسان قبل ولادته . ولا انه يحتاج الى التوبة عنها الى كفارة من غيره .

يقول جوستاف غرونباوم : ان الانسان الاسلامي على خلاف غيره لا ينوء تحت وطأة الخطيئة الاصلية التي تحكم عليه وعلى نفسه بالسوء والفساد .

(٥)

في الاسلام ترابط بين العقيدة والاخلاق . فلا تنفصل الاخلاق عن العقيدة ، ولا تقرر الاخلاق الا من داخل إطار الايمان بالله .

(٦)

الجهـــاد :

الجهاد : ذروة سنام الاســـلام وأعلى مقرراته وفرائضه . والحرب في الاسلام جهاد مقدس في سبيل الدين والحق ، ودعوة الى احترام العهود والوفاء بالمواثيق ، ولا تستخدم القوة الا لرفع ظلم او اصلاح معوج .

والسلم في الاسلام قاعدة ، والحرب لا تكون الا لضرورة ، والاسلام لا يقاتل غير المسلمين الا اذا حاربوا دعوته . وقاوموا فكرته ، واعتدوا على أرضه ، وعمدوا الى إيذاء أهله . ولا يمنع من إقامة العلاقة معهم اذا لم يحاربوا الاسلام والمسلمين .

(٧)

الايمان بالآخرة :

الإيمان بالآخرة والبعث والجزاء . وان الدنيا هي دار التجربة والعمل والايمان بارتباط الدنيا والآخرة .

(٨)

المسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي :

اقرار المسؤولية الفردية ، والالتزام الاخلاقي وهما موضع الحساب . كما قرر الاسلام المسؤولية الكاملة للطبقة المستضعفة في ان تأخذ وترد : والرقابة في الاسلام لا تأتي من شخص على شخص ولا من هيئة على هيئة . وانما هي رقابة المسلم لربه .

(٩)

الجمع بين الثبات والتطور : فهناك الثوابت التي لا تتغير ، وهي الاصول التي تقوم عليها حركة الاجزاء .

(١٠)

الشريعة الاسلامية : شريعة عالمية صالحة لكل زمان ومكان وهي إطار

ثابت القوائم مرنة وأصول عامة . وقواعد كلية لا تقبل التطور او التغيير . وهي تبيح حرية الحركة ، وتسمح بالتشكل من الداخل على النحو الذي يوافق ، ويجوز فيها الاجتهاد بين عصر وعصر وبيئة وبيئة أخرى . وقد فتح الاسلام للناس باب الاجتهاد في تفهم الحقائق . والشريعة الاسلامية جعلت الجزاء مقتصراً على صاحب الذنب وحده ، ولم تشدد كاليهود، ولم تتساهل كالنصارى ، بل وقفت موقف التوسط فأباحت المنفعة وحرمت الضارّ .

(١١)

للمعرفة جناحان : روح وعقل ، او وحي وفكر . الوحي أساس : والعقل في حدود مهمته وقدرته خادم للوحي . أساس منهج المعرفة : المفهوم القرآني . وليس منهج الفلسفة . وقد دعا الاسلام الى المطالبة بالبرهان والدليل ، ونهى عن تحكيم الهوى او العصبية في الكشف عن الحقيقة . وقد فتح الاسلام باب الاجتهاد في فهم الحقائق . فلم يقصرها على طائفة خاصة من الناس .

وقرر دستور العلم فدعا الى عدم الانخداع بالأوهام ، ولا يغتروا بالظن . وأن يسألوا أهل الذكر ، ولا يقولوا بغير دليل . وان يعملوا عقولهم فلا يقلدوا أحداً ، وان يكونوا أحراراً في النظر لا يصدهم عن ذلك شيء . وقرر الاسلام ان لا كتمان للعلم : بل دعوة الى اذاعتـــه وبثه في الناس . وعقاب من يكتمه . ولم يبطل حرية البحث بل أطلقها ، وجعل السلطان للحجة والبرهان ، ودعا الى التحرر من التبعية والتقليد .

(١٢)

العالم ليس سرمدياً ولا أزلياً ، بل هو حادث ، وكل شيء فيـــه له أجل مقرر .

(١٣)

فصل الاسلام بين الالوهية والبشرية ، كما فصل بين الله والعالم . ولا يقر الاسلام : الاشراك والتناسخ او الحلول والاتحاد . وليس هناك من يسقط عنه التكليف ، ولو بلغ أعلى درجات العبادة .

(١٤)

أقام الاسلام : أصول الاخوة العالمية ، أساسه الترابط والمساواة ، هادماً للعبودية ولنظام استعلاء الطبقة الخاصة ، لاغياً للرق والسخرة ، ومحرراً للعبيد ، ومدخلاً اياهم بشتى الأساليب في نطاق الإخاء الانساني .

والاسلام لا يقر أي فروق في الجماعة علىأساس اللون او الجنس او اللغة . وقد سوّى بين الأجناس . فلا يرى لأبيض على أسود فضلاً الا بالتقوى . وأقام وحدة عالمية تجمع مختلف العناصر والاقوام، بصرف النظر عن الفوارق في اللون او الدين او اللغة .

ويعارض الاسلام نظرية ان يكون هناك جماعة معينة بينها دين الله عقداً خاصاً ليكون مسودة على العالم ، ويقرر ان عقد الله مع الناس هو التقوى . وبذلك شجب الإسلام الدعوة العنصرية القائمة على الدم والانساب . ومنع

التفاضل بهما . ولم يجعـــل الانساب والدماء ميزاناً لتقدير الناس والناس في الاسلام تتكافأ دماؤهم وأموالهم .

(١٥)

اعترف الاسلام بالرغائب البشرية وأباحها في إطار الضوابط الشرعية والاخلاقية ، والاعتراف بالخطأ ، وتقدير مدى الطاقة ، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وهناك المغفرة والعفو . « **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه** » وفي نفس الوقت الذي اعترف الاسلام فيه بالرغائب البشرية . حرر الانسان من عبادة الشهوة ، او عبادة الاجساد ، او عبـــادة الفرد ، او عبادة ما سوى الله الواحد الأحد الحق . فقد دعا الاسلام الى تهذيب مداخل هذه الشهوات ومخارجها فوقف بها عند الحد الذي لا يؤذي الفرد ولا المجتمع . ويبيح قسطاً معتدلاً من المتاع داخل ضوابط تحول دون تحطم الشخصية الانسانية .

(١٦)

الدعوة الى الانفاق .

(١٧)

تفرقة واضحة بين البيع والربا ، تحريم تام للربا ، « **وأحل الله البيع وحرم الربا** » .

(١٨)

قرر الاسلام ان للمجتمعات نواميس ثابتة ، وان للوجود الانساني سنناً : هي سنن الله في الكون . هذه السنن التي لا تبديل فيها ولا تغيير ، وهي التي تحكم الحضارات والمدنيات وقد جاء في القرآن قبل أن يتخيلها أهل الارض تخيلاً : **« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »** .

(١٩)

إقرار مفهوم «التقدم» على انه تقدم جامع ، مادي ومعنوي معاً . وليس تقدماً مادياً خالصاً وانه خالص لله . **« تلك الدار الآخـــرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً »** .

والنجاح المادي يقره الاسلام ويرتضيه . ولكنه لا يراه غاية في ذاته ، بل هو مرتبط بالتبعية الادبية والغاية من مختلف أنواع النجاح ان يكون خلقياً .

الاسلام لا يعارض التقدم ، بل يدفع اليه دفعاً . فهو يدفع الى التمييز العلمي والعقلي ، والنظر في ملكوت السموات . وقد حمل على الجهل والخرافة والكهانة والسحر .

(٢٠)

ليس هناك أثيوبيا خيالية : بل هناك واقع متصل بطبيعة الانسان ، لا يدفعه إلى الزهادة والاعتزال ، ولا يدفعه الى التحلل والترف . وليس في

الاسلام تناقض بين المثل الأعلى . والواقع العملي للناس . ولا ما يصادم العقل البشري ، او الذوق او الفطرة ، او العلم .

(٢١)

هناك ترابط واضح بين العروبة والإسلام ، وبين الارض والأمة . وهناك وحدة الفكر التي تضم المسلمين جميعاً وتوجههم في اتجاه واحد ، قائم على التكامل والعدل والحق .

(٢٢)

لا يقر الإسلام الزهادة والرهبانية بمعنى اعتزال الحياة . وليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولكن الزهادة هي أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك .

وأقوى صور الزهد هو التضحية بالنفس في سبيل الجماعة . وقد دعا الاسلام جميع أبنائه الى الاندماج في المجتمع ، وقهرهم قهراً على الاخذ من منافع الدنيا بنصيب . وكل إيقافٍ للحياة على العبادة والزهد والنسك مخالفة صريحة لمفهوم الاسلام لأنه ابتعاد عن الحياة العملية التي هي المحك الرئيسي الدقيق لمعرفة مدى إيمان الانسان بالإسلام . ويدعو الإسلام الانسان الى الزهد في وسط مغريات الحياة وليس بالعزلة عنها . وقد دعا الاســـلام الى حفظ الدنيا وتنميتها في إطار التقوى وتوجيهها الى الله .

(٢٣)

ربط الاسلام بين المادي والمعنوي ، ولم يهمل الجانب المادي في سبيل

الجانب المعنوي ، ولم يحتقر الامور الدنيوية في سبيل إعلاء الروحيات . والاسلام لا يحتقر الامور الدنيوية . ولكنه يرمي الى منهج جامع بين الدين والدنيا بعيد عن النفعية والرهبانية . (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) .

(٢٤)

الفرد جزء من المجتمع . والمجتمع هو كل الأفراد : فالمجتمع للفرد والفرد للمجتمع . لم يضح الإسلام بالفرد من أجل المجتمع ، ولا بالمجتمع من أجل الفرد ، وإنما أقام منهما معاً نظاماً متسقاً متكاملاً فيه التقاء كامل وتوازن واضح .

وقرر الاسلام تضامن المجتمع في المسئولية عن كل أفراده . وتحمل الضعفاء والفقراء ، وأقام العدل الاجتماعي على أساس التضامن والمساواة والأخوة .

الاسلام يفرض كفالة مشتركة بين أهله . ويجعل العجزة والضعفاء والمحرومين موضع تقدير كبير ، ولا يطالب بإسقاطهم او قتلهم ، بل على العكس يطلب لهم حمايات وضمانات كاملة . ويعتبرهم موضع الرزق « **إنما ترزقون بضعفائكم** » .

(٢٥)

في الاسلام يلتقي الدين بالعلم . والاسلام هو الذي دفع المسلمين الى الخروج من دائرة المنهج اليوناني القياسي الى انشاء منهج التجريب . فأنشأ

المسلمون : المنهج العلمي التجريبي . وقد دعا الاسلام الى النظر في الكون ، والتأمل في الكائنات ومعرفة أسرار الوجود .

وقد جعل الاسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وفرض على الامة ان ترتب أقواماً لتعليم الناس . وحث الإسلام على العناية بتنمية العقل الانساني . وقد فضل الله العلم على العبادة وفضل العلم على إطلاقه (علم الدنيا وعلم الدين) . ومن هنا كشف الاسلام عن حقيقة هامة هي : انه لا يعارض بين حرية الفكر وبين ان يكون المفكر متديناً .

وقد وصل المسلمون الى غاية الغايات في العلم والثقافة . وظل مجرى عقولهم قائماً على الإيمان بالله . والعلم في الإسلام يزكو بالإنفاق . وقد أخذ الله الميثاق على من يعلم أن يبين ما يعلم للناس . وقد أطلق الإسلام حرية البحث، وحث على الاجتهاد، وقرر ان للمخطىء أجرين اذا أصاب وأجرين اذا أخطأ وحرم التقليد .

ويحرر الاسلام دستور العلم فدعا الى عدم الانخداع بالأوهام او قبول الظن ، او اعتبار أي قول بغير دليل ، ودعا الى استعمال العقل وسؤال أهل الذكر . فلا يقلد أحد أحداً . وان يكونوا أحراراً فيالنظر لا يصدهم عن ذلك شيء .

(٢٦)

اعترف الاسلام بناموس الترقي: طالب الاسلام بترقية الشخصية الانسانية بالضرب في الأرض وتعرف أحوال الامم وطبائعها . ودراسة ما هي عليه. واعتبر ان الانسان مسوق الى غايات من المدنية بعيدة لم ينلها اليوم . وجعل للعاملين المخلصين ثواباً وأجراً : من سَنّ سنّةً حسنة فله أجرها وأجر من

عمل بها . كما دعا الإسلام الى تعمير الأرض واستخراج كنوزها وذخائرها . والتنافس في الصنائع والعلوم النافعة .

(٢٧)

أقام الاسلام الفطرة . ودعا الى نقائها . وشـــدد بالنهي عن إفسادها بالتعاليم الضارة . ونبّه الى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة ، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داعٍ لنحله .

(٢٨)

دعا الاسلام المسلمين الى التحري عن الحق ، ودعاهم الى ان يغيروا رأيهم اذا ظهر لهم وجه الصواب ولا يأنف المسلم ان يأخذ الحقيقة من أي واحد يأتيه بها ولو كان مخالفاً له في دينه ولغته . وألا يتعصب لرأي ولا مذهب تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من خطأ .

(٢٩)

جعل الاسلام ضوابطه في الاساس مستهدفة عدم استهلاك الانسان لطاقاته الجسدية والمادية بالدعوة الى القصد لا الإسراف .

(٣٠)

أكد الاسلام قيام الصلة بين الانسان وخالقه دون وساطة أحد من الناس .

(٣١)

أكد الاسلام انه ليس فيه سرّ ولا تناقض ولا أمر يعرفه أحد من دون المسلمين جميعاً .

(٣٢)

ليس في الاسلام رجل دين له حق يزيد عن حق الانسان العادي ، ولا يخول الاسلام لطائفة من الأمة حق السيطرة عليها في الاعتقادات والمعاملات.

(٣٣)

تكريم الانسان وتحريره من الرق والعبودية ، ورفعه الى درجة تليق به بوصفه مستخلفاً في الارض .

(٣٤)

قرر الاسلام ان المال وسيلة لا غاية ، وطريق لا هدف، وان المال وحده والإنسان مستخلف فيه استخلفه للانتفاع به وتوجيهه في سبيل الله ومصلحة المجتمع . وقد كرم الإسلام العمل والانفاق والمال تطهره الصدقة ، والزكاة ركن وهو نظام للتضامن الاجتماعي . ويرمي الاسـلام الى تداول المال بين الناس دون تداوله بين طائفة خاصة . وقد قيد الشرع حق التصرف بالانفاق. بمنع السرف والتقتير . وقيد تنمية الثروة بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار .

كما تضمن الدولة من لا مال عنده ولا عمل ، وتتولى إيواء العجزة وذوي العاهات . وأنكر الإسلام احتكار الثروة في طبقة واحدة . وانكر احتكار التجارة في الأسواق العامة . ويمنع كنز الذهب والفضة ، ويحرم أكل أموال الناس بالباطل .

(٣٥)

أبرز معطيات الاسلام : الايجابية المتفائلة برحمة الله ، وليس في الاسلام طابع الانهزام او اليأس او التشاؤم الذي نراه في الفكر الغربي .

(٣٦)

دعا الإسلام الى المطابقة بين الكلمة والسلوك . والإيمان والعمل ، وربط بين العقيدة والعلم وجعل العلم متطلعاً الى معرفة الله .

وقد اتصل ذكر الإيمان في القرآن بذكر العمل الصالح أكثر من خمسين مرة « **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » ولا ريب ان أخطر الأخطار هو انفصال العلم عن العمل . وبقاء العلم دون ممارسة في العبادة او المعاملات او تحول الإيمان الى ايمان زهادة وليس الى إيمان اجتماعي .

والاسلام لا يريد المفاهيم والأفكار بمعزل عن العمل والتطبيق وإنما يريدها قوى دافعة لبناء حياة كاملة في إطارها وضمن حدودها .

(٣٧)

أعطى الاسلام المرأة مكانتها الاسلامية وحقها في أن تملك وتزاول التجارة

وتعقد العقود وتملك كل أنواع الملك ، ولها ان تنمي أموالها . ولا تحرم المرأة حقها الا اذا ثبت انه يلحق ضرراً بالمجتمع . وقد رد عنها الاسلام كثيراً من الاخطار . فقرر عدم كفاءة الفاسق للزواج بالمرأة العفيفة ولقد حرص الاسلام بمقرراته للمرأة ان يجعل منها حصناً للاسلام لا ينال . ولما كانت المرأة تضمن استمرار النوع فانها من أقوى الحواجز التي تحمي قواعد الاسلام من التحلل والانهيار .

(٣٨)

سيادة الإنسان في الاسلام : ليس في سيادته جسماً ومادة ، بل في سيادة القيم الانسانية فيه .

(٣٩)

جعل الإسلام الجزاء مقتصراً على الذنب وحده ورفع أساليب الظلم القديمة ، وحرم في الحرب قتل الشيوخ والأطفال والنساء والزهاد .

(٤٠)

دعا الاسلام الى الأخذ بالأسباب ، فان الله ربط الاسباب بالمسببات .

(٤١)

ليس في الاسلام طبقة تدعي رجال الدين لهم في علاقتهم بالاسلام حقوقاً ليست لغيرهم وإنما يوجد علماء متخصصون في الدين .

(٤٢)

يقوم الاسلام على فكرة التضحية والتقوى بينما يقـــوم الفكر الوثني على فكرة الرفاهية ويعدها المثل الأعلى له مما يتعارض مع البذل والفداء .

(٤٣)

التكوين الفردي في الاسلام أساس التقدم وليس التقدم العلمي .

(٤٤)

قدرة الاسلام على اعطاء مفهوم الحركة والتقدم والنماء والتوليد ، والأخذ والعطاء . وعلى امتصاص كل ما يزيده قوة ، وطرد كل ما لا يتفق مع طابعه .

(٤٥)

أقام الانسان الوحدة الانسانية على أسس جديدة . قوامها الأخوة العالمية والتسوية بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات ومحو العصبية الوطنية وقتل النّعْرة الجنسية . وتعد سفرة الحج عاملاً قوياً في تطبيق مبدأ الوحدة الانسانية .

(٤٦)

أقام الاسلام نِسباً محددة لكل ناحية من نواحي الحيـــاة ومطلباً من مطالبها . وقرر ترتيبها بحسب أهميتها فجعل لكل من العبادة والجهاد والزكاة

والكسب حصة ونسبة . وجعل للجسم والعقل والمال واللذة واللهو والعمل وضعاً ومقداراً .

(٤٧)

دعا الاسلام الى الانصاف من النفس : وإقرار الحق بالنسبة للقريب والبعيد وجعل شرعته تتساوى أمامها الأمير والاجير . « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** » وهو في هذا يواجه خطأ الحضارات التي تنصف أهلها ولا تنصف الغير ، وعبر الرسول عن هذا عندما جاءه من يلتمس تخفيف العقوبة عن المخزومية التي سرقت وحكم الرسول بقطع يدها حين قال: (إنما أهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

الفصل الثاني

التوحيـــد

جاء الاسلام مجدداً دعوة التوحيد التي هي الكلمة الاولى في كل أديان السماء ، والاساس الثابت لكل الاديان ، والحقيقة الخالدة التي انحرفت بها تفسيرات الدين في بعض الأديان فخرجت عن أصلها الاصيل .

ولقد كانت البشرية منذ أقدم عهودها على التوحيد الخالص ، وان الوثنية كانت عرضاً ملازماً لها . وليس كما تحاول بعض النظريات المطروحة الآن في مقارنات الاديان والتي تقول بالتطور من الوثنية الى التوحيد .

وقد أثبتت الابحاث التاريخية والعلمية والانثربولوجية نظرية التوحيد ، وأكد هذا أكبر باحثيها من أمثال الدكتور ماكس مولر فتكشف اللغة السنسكريتية في قوله : « ان الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص . وان الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين بغياً بينهم ،

وفي ذلك دحض لفكرة النشوء والارتقاء التي تدعي ان الناس عبدوا الاصنام أولاً ، ولم يصلوا الى التوحيد الا أخيراً .

ولا ريب ان عقيدة الوحدانية هي أرقى ما وصلت اليه الانسانية . وقد أكد هذا المعنى العلامة «لانج» الذي اعتمد في رأيه عن التوحيد بما كشفه «هويت» عن الموجود الأسمى في قبائل استراليا الجنوبية الشرقية واستراليا والإله الأسمى لدى قبائل افريقيا وذلك في قوله : « ان كل انسان يحمل في نفسه فكرة العلية . وان هذه للفكرة كافية لتكوين العقيدة ان ثمة آلهة صانعة وخالقة للكون . وان كل انسان لديه فكرة عن صنع الاشياء ، انه يعتقد في وجود صانع يفعلها ، ولا يستطيع هو ان يفعلها نجد لدى الاهالي القدماء الاعتقاد في خالقه » .

●

وحقيقة التوحيد التي جاء بها الاديان المنزلة ، وأكدها الاسلام ، أسقطت النظرة كانت موجودة حول الإله : الإله المخيف الجبار الذي يشعر أمامه بالضعف والذل والخوف من غضبه ، وأقام المفهوم الحقيقي لله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يقبل التوبة ويدعو الى المغفرة ولا يجعل التكليف إلا على قدر الاستطاعة حيث لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وكما حرر الاسلام البشرية من فكرة الإله الغيور : إله الحرب كذلك حررها من تعدد الآلهة ، وأحل الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وقد أشار المؤرخ توينبي الى هذا المعنى حين أشار الى إله المسيحية : الذي يوصف بأنه إله مخلص يضحي بنفسه فداءً للبشر وقال: ان الاسلام أعاد توكيد وحدانية الله في مقابل الضعف البادىء في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية . وأشار الى ان المسيحية لم تلبث ان تغلبت

فكرة اليهودية عن الإله الغيور ، وهي فكرة قادت المسيحية الى التعصب الأعمى عوضاً عن فكرة المسيحية ويقول : ان هــذه الردة قد كبّدَت المسيحية خسارة روحية وجسمية ، ويعني هــذا ان المسيحية الجديدة قد وامت بين فكرتين متناقضتين: (الاولى) فكرة البطش وعدم التسامح وهي صفة إله اليهود (يهوه) ومن سماته الغضب والقســوة والغيرة . و(الثانية) فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية .

●

ويشير الباحثون الى أن الانحراف الذي أصيبت به البشرية قد أدخلها في تعدد الآلهة « حتى[1] أصبح هــذا التعدد عاماً في جميع الثقافات القديمة : قال به القدماء المصريون وقال به الآشوريون والبابليون والفرس والهنود والصين واليونان على اختلاف في عدد الآلهة ومكانهم واختلاف في تصور صلة الآلهة بعضهم ببعض ، او صلتهم بالبشر » .

●

ولقد كانت الفلسفة اليونانية وثنية متعددة ، وكان مفهومها عن الله مضطرباً غاية الاضطراب : « ليس في اسلوبها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنح والرحمة . لم تثبت له الا الخلق الاول . ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ونَعَتت الصفات . وقررت كليات كلها حطّ من قدر الخالق وقياس على الخلق ، ومفهوم أرسطو يخرج الإله عن دائرة تدبير العالم ، بل حتى عن مجرد العلم .

●

---

(١) دكتور ابراهيم بيومي مدكور في بحث عن الفلسفة الاسلامية .

ولقد انحرفت اليهودية عن مفهوم التوحيد الذي جاء به موسى، واصطنعت مفهوماً مغايراً[1] فاليهودية تعد الله فكرة مجردة ، وقوة خارقة مخوفة ، حتى انها لا تنطق ذكر اسم (يهوا) حين يرد في النص رهبة ورعباً وتنطقه باسم آخر هو (أدوناي) حين تقول المسيحية بأن الله تجسد في السيد المسيح . وان الله نزل الى الارض بصورة انسان ، وبذلك خرجت اليهودية الى التجريد ، وخرجت المسيحية الى التجسيد . وهناك أديان أله رسلها ودعاتها بعد موتهم وعبدوا : فأله بوذا وزرادشت والمسيح . ومن هنا كان حرص الاسلام على ان لا ينحرف الى التجريد او التجسيد . وان يؤكد الفوارق بين الالوهية والنبوة ، وكان تأكيد محمد ﷺ الدائم وتأكيد القرآن على انه بشر يوحى اليه .

---

(١) دكتور اسحاق موسى الحسيني .

(٢)

الوثنية « هي[١] أحط أنواع الشرك . وقد ذكرها القرآن أكثر من غيرها، لأنها كانت منتشرة في العالم قبل الاسلام ، طقوسها تحكم الخضوع المشين والعبودية الضالة للأصنام على انها تنفع وتضر وعلى انها يقصد اليها في قضاء الحاجات » .

وأهم ما تمثله الوثنية[٢] « ان المعبود فيها محسوس ومن طبيعة المحسوس ان يكون متعدداً ومتغيراً وغير مستمر النفع والضرر » .

ومن هنا توصف الشعوب الوثنية بأنها ضعيفة الإدراك وبدائية . وقد كانت آلهة الوثنية متعددة ، ومن هنا هاجم الإسلام تعـــدد الآلهة ، ودعا الانسان الى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة ، وجعل الطاعة لغير من يجوز عليه التغير والفناء ، ولا ريب ان تشخيص المعبود يؤدي الى تقليل قداسته ، وارتفع بالبشرية عن عبادة الشخص المحدود المتغير الفاني ، وفي هذا إشعار الانسان بكرامته . وتأليه البشر انما يعني التبعية للشخص دون المبدأ . وقد ارتبط تعدد الآلهة بعبادة الابطال

---

(١) مولاي محمد علي (الدين الاسلامي) حـ ١ .

(٢) دكتور محمد البهي .

منذ وقت بعيد ، وقد تراوحت الوثنية بين التعدد والتثليث . ويرجع ارتباط عبادة الابطال بالتثليث الى ان الجماهير كانت تعبد البطل الذي يقوم بعمل ما ثم يتخذ البطل له روحه فتحتل معه مكان الالوهية . ثم تصل البطولة الى أكبر أبنائه . فيتم الثالوث ، والبابليون هم أول من قال بالثالوث في الألف الرابع قبل المسيح . وكان البابليون يدينون بتعدد الآلهة .

ولقد ظلت البشرية تتراوح في الوثنية بين التعــــدد والتثليث حتى ردها الاسلام الى التوحيد ، ومن هنا يمثل الاسلام أعلى مراحل ارتقاء البشرية الى الرشد والنضوج ، وقد جاء القرآن واضحاً في موقفه مع الوثنية المتعددة بكل أنواعها وجاء بالحقيقة الكبرى الناصعة ، فقرر ان الاله واحد . ونفى كل أنواع التعدد ، وقرر انه لا يشبهه شيء من خلقه ، وانه متصف بالكمالات كلها منزه عن النقائص كلها . وقرر انه غير مستطاع للعقل البشري ان يدرك كنه ذاته وحقيقة صفاته . كذلك تناول القرآن مختلف الشبهات التي لصقت بمعنى الالوهية من أدران الامم السابقة . فكشف عن زيفها ونقضها ، ودعم ذلك بالحجج الدامغة ، وأكد الحقيقة التي تقررها الفطرة عن صلة الانسان بالله . وكيف انه مربوب الله . وان الله مع الناس أينما كانوا وانه هو الذي يرحمهم ويهديهم .

●

وتنحصر العقائد الوثنية في أمرين[1] : الاول تأليه الطبيعة او جزء من أجزائها كالشمس او القمر او بعض انواع الحيوان . والثاني : تأليه البشر (فرداً او اسرة او جماعة) . وذلك كعبادة الملوك والقادة ، والانبياء والابطال والقديسين والاولياء . « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم** » وقد عبـــد الرومان واليونان والمصريون والفرس

---

(١) محمد المبارك .

والهنود أبطالهم وملوكهم : عبدوا الفرعون والقيصر والامبراطور والبرهمي، وهناك تأليه بعض الكائنات الخفيـــة كالملائكة والارواح والجن . وهناك أيديولوجيات حديثة تعبد الدولة ، او تؤله العقل .

●

والشرك من انحرافات الوثنية « ومدلول[1] الشرك هو إشراك غير الله مع الله في الألوهية والربوبية والاتجاه والطقوس مع الاعتراف بالله كما يمكن ان يفهم من معنى الكلمة ، او الجمع بين الاعتراف بالله كإله أعظم وبين عبادة الملائكة شفعاء مع جعل الاوثان رموزاً مادية لهؤلاء وقد ارتبطت الوثنية بالأصنام وبناء الهياكل التي عرفت في مصر وأثيوبيا والشـــام وبابل وعرفها الفراعنة والآشوريون واليونان والرومان . وكان الآشورين صنم لكل كوكب ولم يترك المصريون شيئاً إلا ألهوه .

●

---

(١) دروزة عصر النبي .

(٣)

يقـول الفريد مز في كتابه : El, Yahve, et Jessus (ايل ـ يهوه يسوع) ان يسوع ألغى الاعتبار اليهودي وأعاد اعتبار (ايل الكنعاني) الفينيقي الذي عرفه العبرانيون بعد مجيئهم الى أرض كنعان .

وان يهوه هو الإله الصحراوي الضيق الآفاق : الإله الذي كان يتميز بقسوة وعصبية قبيلته وان (ايل الكنعاني الفينيقي) كان حياً زمن يسوع ، وان تعاليمه التي كان قد طمس اليهود معالمها عادت مرة اخرى الى الظهور على يد يسوع . ومعنى هذا ان رسالة يسوع وتعاليمه وفكرته عن الله وعن الانسان لم تكن تَمُتُّ بصلة الى الدين اليهودي » .

ومهما يكن مفهوم الفريد مز فانه يتفق مع تاريخ الأديان في ان اليهودية حرفت مفهوم الإله وان السيد المسيح جاء مصححاً لمفهوم الله سبحانه وتعالى الذي جاء به ابراهيم وموسى : الله الواحد ، غير ان تفسيرات المسيحية للإله الواحد وللتوحيد لم تلبث ان انحرفت فأقامت اليهودية الإله القومي الخاص . وأقامت المسيحية الإله المجسد . ومن هنا فقد جاء الاسلام مصححاً للانحرافين .

جاء الاسلام مصححاً ما انحرف (من أصول الدين الحق . وقد قضى الاسلام على الوثنية التي كانت سائدة في بيئته) وتصدى لليهودية والنصرانية فرد أصولهما الى حقائقها . وقوم نظر الآخذين بها ونسخ ما بطلت الحاجة

اليه منها . ودعا العالم كله الى وحدة الدين ووحدة الوجهة والغاية مؤسساً دعوته على أصل ثابت : هو ان الله واحد ودينه لجميع خلقه واحد . « وهذا يعني ان الاديان متحالفة . فانما حدث ذلك من فعل قادتها والقائمين بشرحها وتأويلها فطالب كل آخذ بها بالرجوع الى أصلها . وأصلها هو الاسلام الذي أوحي الى كل الرسل السابقين والى خاتمهم محمد على فترة منهم وشفع هذا البيان الحاسم بنظام اجتماعي محكم أقامه على الفطرة والعقل وأودع ذلك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

●

وقد أثبت القرآن ان السيد المسيح عيسى بن مريم « بشر » وانه رسول مؤيد بوحي إلهي وانه نادى بعقيدة التوحيد . فدعا الى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وقرر انه لم يقتل ولم يصلب بل وقاه الله .

وقد عرض القرآن زيف عقيدة التثليث على أي نحو من أنحائها : وأنكر دعوى ألوهية المسيح او بنوة المسيح . وأعلن مفهـــوم العبودية : عبودية الناس والانبياء لله سبحانه وتعالى ، مزيفاً نظرية الأبوة المدعاة « **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم** » « **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد** » « **ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** » « **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا** » .

●

وقد أثبت عشرات الباحثين ممن راجعوا هذه العقائد انه ليس[1] في كتب

---

(١) الأديان في القرآن .

النصارى ما يدل على ان المسيح قال بهذه الأقانيم الثلاثة بل فيها ما يدل على انسانيته وبشريته وعبوديته ووحدانيته لله وان المتصفح للانجيل ليرى في عبارات صريحة واضحة ان الله واحد وان عيسى مرسل وانه ابن الانسان لا ابن الله .

●

وقد أوردت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية تحت مادة (ثالوث) : ان عقيدة الثالوث وإن لم تكن موجودة في العهد الجديد (الانجيل) ولا في أعمال الآباء الرسوليين ، ولا في تلاميذهم الأقربين . الا ان الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستنتي الواقف مع التقليد يزعمون ان عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحية في كل زمان رغماً من أدلة التاريخ التي ترينا كيف ظهرت هذه العقيدة . وكيف تمت وكيف علقت بالكنيسة بعد ذلك ؟ نعم ان العادة في التعميد كانت ان يذكر اسم الأب والابن والروح القدس ، ولكن هذه الكلمات الثلاث كانت لها مدلولات غير ما يفهمه الآن نصارى اليوم .

وان تلاميذ المسيح الاولين الذين عرفوا شخصيته وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد انه أحد الاركان الثلاثة المكونة لذات الخالق . وما كان بطرس أحد حوارييه يعتبره الا رجلاً موحى اليه من عند الله .

وكان الشأن في تلك العصور ان عقيدة انسانية عيسى كانت غالبة مدة تكون الكنيسة الاولى من اليهود المتنصرين ،فان الناصريين والاثيوبيين وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية ، اعتقدت ان عيسى انسان محض مؤيد بالروح القدس ، وما كان أحد اذ ذاك يتهمهم بأنهم مبتدعون او ملحدون » .

●

والتثليث[1] في العقيدة المسيحية هو لون من الوان العبادة الوثنية والشرك، فهو ليس بطارىء على العقيدة المسيحية، ولكنه يمتد بجذور عميقة في أرض العقيدة الى الوثنية العالمية القديمة ويتصل بها بأقوى الوشائج والصلات.

فالعقيدة المسيحية التي زعمت ان الله ثلاثة أقانيم: (أب وابن وروح قدس) هي نفس العقيدة التي كان يدين بها قدماء المصريين في ثالوثهم (ايزيس وأوزوريس وحورس) وهي نفس الثالوث الجاهلي العربي (اللات والعزى ومناة) وهي نفس الثالوث البرهمي في الديانة الهندية (براهما وسيفا وفشنو) وهي نفس الثالوث الإلهي لقبائل البانتو الافريقية: (ميزيمو وبيبو ومولنجو).

ويقول سير أرثر فندلاي: ان نفس العبارات التي قيلت لأوزوريس نسبت الى السيد المسيح ولما أضيف اسم عيسى الى قائمة الآلهـــة المخلصين أصبحت كل القصص التي قيلت عن الآلهة الوثنية تقال بالمثل تماماً عن عيسى المسيح: ومنها قصة الولادة من العذراء، قصة المحاكمة قبل الموت، طريقة الاعدام، طريقة القيامة، طريقة الصعود، قصة القيامة بالجسد.

---

(١) الأديان في القرآن: محمود بن الشريف.

(٤)

والاسلام يبرىء السيد المسيح من الصلب ، ويقرر في وضوح وتأكيد ان المسيح لم يقتل ولم يصلب : « **وقولهم إنا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه** » .

وقد شكلت نهاية المسيح على هذه الصورة لتتفق مع فكرة الفداء والخطيئة ، والاسلام يقرر انكار هذا المفهوم من أساسه : مفهوم انه نزل ليفتدي البشر ورضي بأن يصلب ويعذب ليكون فداء عن أخطاء البشرية .

وكثير من العقول المسيحية المتحررة أنكرت فكرة صلب المسيح من أمثال مرقيون وستروس ورنيان وقالوا : ان سمعان القيرواني رضي ان يصلب بدلاً من المسيح ولذلك جعل الله هيئته مثل هيئة المسيح .

ويقرر الباحثون : ان[1] عقيدة الفداء والصلب في المسيحية مردها الى العقيدة الوثنية في الديانة البرهمية التي سبقت المسيحية بأجيال ، وأوضحت المقارنات ان الهنود يعتقدون ان كرشنا صلب ومات على الصليب كما يقول

---

(١) الأديان في القرآن لمحمود بن الشريف ، وراجع محاضرات النصرانية لأبي زهرة ، واظهار الحق لرحمة الله الهندي ، والأسفار المقدسة للدكتور وافي .

المسيحيون . وان الهنود الوثنيين قالوا عن بوذا انه ابن الله وانه تجسد بواسطة حلول روح القدس في العذراء ماريا . كما ان النصارى قالوا ان المسيح ابن الله وانه تجسد بواسطة حلول الروح القدس في العذراء مريم .

وتمتد عقيدة الحلول المسيحية الى عقائد الصابئين الذين يقولون بالحلولية . وهم الذين يزعمون وحدة الإله ، وانه يحل في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها ويتشكل بأشكالها .

ولا يقر الاسلام ما يسمى بـ «الخطيئة الاصلية» التي ارتكبها آدم وورثها عنه البشر وينكر وجودها كلية ويحرر العقل البشري من شرورها التي توالت مدى القرون ونشأت من أجلها الحروب والمعارك .

فالقرآن يشير الى ان آدم عصا ربه فغوى ، وان الله قبل توبته ، ثم اجتباه فتاب عليه وهدى . والإسلام يقرر انه ليس هناك خطيئة موروثة . وان أعمال الآباء لا يؤخذ بجريرتها الابناء . وان كل امرىء بما كسب رهين . وذلك يتعارض مع التفسيرات التي ليست من أصول رسالة المسيح ، والتي تدور حول خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالنزول الى الارض ، وتعرض لغضب الله فعوقب بالامراض والموت . ثم شمل الغضب ذرية الانسان ، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله هذا وان كافة الانبياء والرسل الذين جاؤوا قبل المسيح كانت مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح .

ومن هنا فان الانسان يولد مذنباً خاطئاً حاملاً لما يسمى بخطيئة آدم وان صلب المسيح انما وقع للتكفير عن خطيئة البشر ، وان الله كان على ان يعاقب ذرية آدم بسبب هذه الخطيئة لولا توسط ابن الله ووحيده وقبوله ان يظهر في شكل انسان ثم يصلب ليكفر عن خطيئة البشر . وتعتمد الكنيسة في عملية الإنقاذ على رموز دينية تعرف بالاسرار السبعة . وعن طريق ممارسة تلك

الاسرار تحتضن الكنيسة المسيحي من المهد الى اللحد . وان التعميد هو السر الذي قصد به الى إزالة الخطيئة الاولى ونهج الولادة الروحية الثانية. وتذهب تفسيرات المسيحية الى أن الطفل شرير بطبعه وانه يولد محملا بكثير من الشرور والآثام فيجب ان يقمع ذلك بالشدة والعنف وان يسلك به سبيل التعذيب والإيلام .

وقد نسف الاسلام هذه المفاهيم وزيفها وكشف عن انها ليست من اصول الدين الحق ، وانما من أوهام البشرية التي حملها بعض الدعاة وانها تتعارض مع الفطرة والعقل .

وقد كشف الاسلام عن الحقيقة في ان كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه . وقد استمد جان جاك روسو وجون لوك هذا المعنى من مفهوم الاسلام فقال روسو معارضاً تفسيرات المسيحية ان الطفل خير بطبيعته وان عقليته كالصفحة البيضاء يسطر عليها المرء ما يشاء .

وقد كان لمفاهيم الخطيئة أثرها البعيد في الأدب والفكر الغربي مما لا يزال قائماً وممتداً الى الآن،وأبرز هذه الآثار خلق مذهب التشاؤم الذي كان مصدر روح السلبية واحتقار الانسان .

ويرسم الدكتور محمد مندور الصورة المسيحية للمثل الأعلى فيقول : ان مفهومهم يقوم على أساس ان الطبيعة البشرية فاسدة : أفسدتها الخطيئة منذ نشأتها . ومن ثم فواجبنا ليس إصلاحها بل القضاء عليها ، لإعادة خلقها ، يجب ان يقبل في أنفسنا الرجل القديم بتعذيب الجسم ، أعني ان نموت لنحيا من جديد حياة أخلاقية . وان تربية الفرد ليست في تمهد ميوله بالنماء ، بل في اقتلاع ميله الاساسي الى الاثرة وتطعيمه بميل جديد مضاد للطبيعة ويقول في الحق ان النظرية تكلف الطبيعة البشرية فوق ما تستطيع بحيث لا يمكن

إملاؤها على الاغلبية من البشر[١] .

ومن هنا تبرز للخطيئة آثار بعيدة المدى في الفكر الغربي كله وفي الفلسفات والمذاهب والايديولوجيات الحديثة جميعاً . ذلك ان التعاليم الاخلاقية المسيحية في ضوء مفهوم الخطيئة تنص على بغض الجسد وعلى الغلو في كبح شهوات البدن الطبيعية . وهذه من شأنها ان تؤدي الى افساد أخلاق الافراد وتعلمهم النفاق والكذب وإرغامهم على مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة . ومن هنا كانت الرهبانية وأخطارها البعيدة المدى . ومن هنا فان هذا التحول الخطير في تفسيرات المسيحية المعارض للفطرة والعقل قد أحدث آثاراً بعيدة المدى .

أما الاسلام فيرد المسائل كلها الى طبائعها الأصيلة . فالخطيئة في لغة العرب الجاهليين . ثم في لغة المسلمين لا تحمل شيئاً من معانيها ولوازمها في لغة النصارى ، وان كان اللفظ واحداً ومعصية آدم عند المسلمين كسائر المعاصي تمحوها التوبة ، وخطيئته كسائر الخطايا تغسلها المغفرة . والمغفرة يملكها الله تعالى . وقد تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وهدى ، فكانت توبة آدم ماحية لمعصيته في الدنيا والآخرة لا تستتبع عقوبة باقية . وان الله سبحانه كتب في صحف ابراهيم وموسى : **« أن لا تزر وازرة وزر أخرى »** فلا يرث مولود خطيئة والد (وان ليس للانسان الا ما سعى) وان هذا الضرب من الخطيئة لا أصل له في عقيدة المسلم ، بل هو منهي عن ان يعتقد توارث الخطيئة[٢] .

والمعروف ان فكرة الخطيئة قال بها (بولس) ولم تلبث بعض المجامع ان

---

(١) الدكتور مندور : من المواطن القديم .

(٢) محمود محمد شاكر : الرسالة ١٩٦٤ .

اعتبرتها جوهر الايمان المسيحي وقد ارتبطت في التفسيرات المسيحية فكرة الخطيئة بفكرة الخلاص .

وهنا يبدو الفارق الواضح بين نظرة الاسلام ونظرة المسيحية الى الانسان: فالمسيحية ترى ان الانسان مخطىء بطبيعته ومحتاج الى غفران الخطيئة بالفداء. أما الاسلام فيرى ان الانسان حر الارادة، وان ارادته تلزمه التبعة والمسؤولية أمام ربه والالتزام الاخلاقي أمام الناس . وان ذلك كله يرتبط بالبعث والجزاء الأخروي .

(٥)

فرق الإسلام بين الالوهية والنبوة تفريقاً واضحاً ، فالله هو خالق كل شيء والنبي بشر من خلق الله ، منحه الله هبة ميزته عن الناس ، حيث اختصه الله بالوحي اليه ليحمل رسالته الى الناس . وقـــد أشار القرآن (وهو كلام الله المنزل) وخاتم كتبه والنص الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن الأنبياء والرسل جميعاً هم من خلق الله . وأنهم لا يملكون أن يدعوا الألوهية (وما كان لنبي أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) وقـد أرسل الله لكل أمة رسولاً من أنفسهم، وأيدهم بالبينات والمعجزات الباهرة، وقد اختارهم الله من صفوة خلقه وأعدهم اعداداً خاصاً يؤهلهم لحمـل الرسالة الخطيرة . وهي دعوة الناس الى التوحيد ، وما من رسول أرسل إلا وقد أوحى الله اليه . وأنزل معه صحفاً أو رسالة أو كتاباً . وغاية إرسال الرسل من الله هي اقامة الحجة على العباد .

والوحي مصدره الوحيد هو الله . ومن هنـــا فليست النبوة كالبطولة ، وليس الوحي كالإلهام الذي يكون لغير الأنبيـاء . وليست الرسالة او النبوة مما يكتسب بالرياضات او المجاهدات وليس النبي او الرسول زعيماً أو مصلحاً او عبقرياً استطـاع أن يستوعب فكر عصره . وحمل لواء الدعوة لإصلاح المجتمع ، كما يتردد في مفاهيم الفلسفة المـادية المنكرة للغيبيات ، والأنبيـاء معصـومون عن ارتكاب الذنوب وعن التحريف، وإن كانوا كبشر يتمـرضون

للمرض والضعف والموت . ويجوز في حقهم الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ويستحيل في حقهم : الكذب والخيانة والكتمان والبلادة .

وقد أوضح الاسلام مفهوم النبوة على نحو بعيد كل البعد عن الشبهات والريب . وأكد القرآن صفة النبي بما يجعله (بشراً يوحى اليه) وذلك لتحرر العقل البشري من أي تداخل بين الألوهية والنبوة. وإفساحاً للمسافة الشاسعة بينهما . فهو يوحى اليه بإذن الله ويعطى المعجزات بإذن الله . وما جعل الله لبشر من قبله الخلد، ويجوز في حقه ما يجوز في حق البشر من الأكل والشرب والنوم واليقظة والزواج والتوالد. فهو بشر من حيث يستحيل عليه أن يكون إلهـا ، ثم هو يتميز عن البشر بهذه الأمانة التي حمله الله إياها . وله مظهران أساسيان: الوحي والمعجزة والوحي شرعاً معرفة يجدها النبي في نفسه مع اليقين أنها من قبل الله تعالى بواسطة سمع أو غيره أو بلا واسطة. والمعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي على يد مدعي النبوة موافقاً لدعواه على وجه يعجز المنكر عن الإتيان بمثله. وأن الله تعالى هو الذي يخلق المعجزة مباشرة وبدون واسطة ليبين للناس صدق رسله ، ويفتح لهم باب النظر فيما جاؤوا به . والعصمة من شأن الأنبياء والرسل الذين اختارهم الله لرسالته ونزههم عن الشبهات وعصمهم من المعاصي[1] .

والفرق واضح بين النبوة والعبقرية ، ذلك أن العبقرية هي أمر دون النبوة وهي من الذكاء والبراعة والقدرة على اكتساب الزعامة والتصدر في مجال الفكر أو العمل وهي تختلف عن النبوة وتقل عنها وهي أقرب الى الإلهام والقدرة على الابتكار وحل الأمور في براعة ومرونة . والعبقرية أطلقها العرب على الإلهام بغير نبوة ، وأثر عن الرسول قوله : لقد كان فيما قبلكم محدثون (أي ملهمون في إصابة الحق والصواب وفي حل المعضلات وفي ابتداع ما لم

(١) رسالة في التوحيد : كمال الدين الطائي .

يسبقوا اليه) . فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب .

وفي صحيح مسلم : ملهمون : وهي الإصابة بغير نبوة . وقد وصف الرسول عمر في بعض المناسبات بالعبقرية « ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غزباً . فلم أر عبقرياً يفري فريه » ومن هنا فإن العبقرية التي يوصف بها عمر لا يجوز أن يوصف بها النبي المؤيد بالوحي ، وسيدنا عمر قمة القمم في باب العبقرية . ولكن أين العبقرية من النبوة .

والفرق كذلك بين الوحي والإلهام واضح . فالوحي مصدره الوحيد هو الله ، والإلهام اكتساب وهو لغير الأنبياء . وقد وصف الإلهام بأنه وجدان يملأ النفس وينساق الى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى ، أما الوحي فإنه يكون مصحوباً بيقين النبي بأنه من قبل الله تعالى . ولقد خفي على بعض الناس الفارق العميق بين النبوة وبين الملك . ومن ذلك انه لما أسلم ابو سفيان ابن حرب ليلة الفتح ، قال النبي للعباس خذ أبا سفيان وقف به عند خطم الجبل وذلك ليرى جيش الفتح . فمرت كتائب الله وفيها الكتيبة الخضراء ، فلم يتمالك أبو سفيان أن قال : لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما . فقال له العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان ، نعم والله إنها النبوة ، وهكذا تليق البطولة بعلي والزعامة بمعاوية والقيادة بخالد والعبقرية بعمر . ولكن النبي يصبح أكبر من ذلك بكثير وأسمى من أي مصلح او زعيم او قائد او عبقري[1] .

---

(١) راجع بحث الدكتور محمد احمد الغمراوي (مجلة الشبان المسلمين ١٩٦٧) .

(٦)

والسيد المسيح عيسى بن مريم انسان ورسول ، قدر الله سبحانه ولادته على نحو خاص ليكون نبراساً على قدرة الله التي تضع السنن والقوانين وتستطيع أن تخرقها حين تشاء . وليعلم الناس ان الله على كل شيء قدير ، وان ما كانت تذيعه الفلسفة اليونانية من ان الدنيا تتحرك في حدود قوانين صارمة ومنطق محدد . هو زيف من شأن الله تبارك وتعالى ان يتجاوزه .

وان المراجعة الواضحة لهذه التفرقة بين الالوهية والنبوة والانفصال بينهما تكشف عن مكانة السيد المسيح الحقيقية . وتكشف عن ان مسيح الاناجيل ومسيح بولس شخصان لا يتفقان .

وقد أشار الى هذا المعنى كثيرون في مقدمتهم الدكتور راشد شماس كارليل الذي قال : ان قراءته للكتاب المقدس أثبتت ان المسيح ليس إلهاً ولم يدع الالوهية . والحق ان ترجمة السيد المسيح الموجودة في الاناجيل كتبت بعد وفاته بوقت طويل ، هو مائة سنة على الاقل ، وان تاريخ ولادة المسيح قد غيرت مراراً الى ان استقر الامر على انها وقعت يوم ٢٥ ديسمبر وهو أحد الاعياد الدينية المماثلة في الدولة الرومانية . وانه ليس هناك من المادة التاريخية ما يعين على رسم صورة كاملة لحياة السيد المسيح . وان جوانب كثيرة ما زالت غامضة وغير معروفة . أين هذا من تلك الدقة العجيبة في

مقررات ووقائع سيدنا محمد ﷺ حتى ليمكن القول انه ما من حدث صغير او كبير في حياته الا استوعبته السنة . ويدهش لهذا كتّاب الغرب أنفسهم ويجعلونه موضع مقارنتهم وتعليقهم فيقول (رلور ندياسورت سميث) في كتابه محمد والمحمدية : قد لا نعلم من سير الأنبياء الا شذرات، الا نبي الاسلام فأمره واضح ليس فيه سرّ مكتوم عن أحد ، ولا ثمة ينبهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، والأمر كله واضح وضوح النهار كأنه الشمس عند الضحى يتبين تحت نورها كل شيء .

●

أما حياة السيد المسيح فان هناك ثلاثة آراء يرويها المؤرخون حولها .

(١) رأي يقوم على التفريط في حق المسيح عليه السلام فيذهب الى حد القول بأنه شخص غير تاريخي . وان صورة المسيح التي تريد الكنيسة ان تنقشها في عقول الناس وقلوبهم . انما هي صورة مزوّرة ورثها الناس عن الوثنيات القديمة وان كل ما في المسيحية له أصل في ديانات الوثنيين التي جاءت قبل المسيحية بألوف السنين . ويقول بهذا الرأي : ج.م. روبرلشون ، وجان هارنكتون ، والدكتور فريزر و ج.د. بارسونا وادورد كانيتر .

(٢) والرأي الثاني : قائم على الإفراط في حق المسيح عليه السلام ورفعه الى منزلة الألوهية .

(٣) والرأي الثالث : قائم على أساس الاعتدال فيعترف المسيح بالوجود التاريخي وينزهه وأمه عليهما السلام عن الصفات المريبة ويحفظ له المكانة التي وضعه بها الله عز وجل .

●

ويضع الاسلام مفهوم العبودية لله مصححاً لمفهوم الابوة ، فالآب الكبير لا وجود له في الإسلام ولا وجود للإله الخاص ولا للإله المضحي بالفداء من أجل الخطيئة . ويؤمن المسلمون بأنه لا (إله) إلا الله وحـــده الرحمن الرحيم . وان التثليث والأبوة والخطيئة والفـــداء تتعارض مع التوحيد الخالص .

(٧)

يقرر الاسلام حقيقة أساسية ينفرد بها في مقارنات الاديان . تلك هي انه ليست هناك وساطة بين الله وعباده فليس الاسلام هيئة لاهوتية او رجال دين يكون بيدهم الشفاعة او الوصاية او الولاية او التخليص بين الله وعباده ، ويقرر الاسلام ان الصلة بين الله والانسان لا فجوة فيها ولا حلقة مفقودة على حد تعبير بعض التفسيرات ، ومن هنا فلا يعترف الاسلام بهيئة كهنوتية . ولا مؤسسة ولا حكومة ثيوقراطية على النحو الذي عرفته أوربا في القرون الوسطى .

وفي بعض الاديان « ادعى رجال الدين ان الله اختصهم من بين عباده ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس ، وقد طلبوا من الناس الخضوع والطاعة العمياء ، وحالوا بينهم وبين الكتاب المقـــدس وحرموا عليهم النظر في الكائنات وفهم أحداث العالم ، وتعصبوا للنصوص الدينية وفسروا كل شيء على مقتضاها » .

ومن هنا وضعت هذه المؤسسات أصول العلم وفروعه وفصلت في جميع المسائل الجوهرية كخلق الانسان وطبيعته . والغاية من حياته . ونتج عن

هذا اعراض عن الدنيا وكراهية لها . وعمّت الخرافات والكهانة . وكانت أخطر النظريات التي قدمتها هذه الفلسفات والتفسيرات :

ان الانسان مؤلف من عنصرين : هما النفس والجسم ، وان هناك نزاعاً مستمراً بينهما . وان الكمال الروحي الذي ينشده الإنسان لا يتم له الا اذا فارقت الروح الجسد . وان هذه النظرية المرتبطة بنظرية الخطيئة ما تزال تلاحق الفكر الغربي وتؤثر فيه آثاراً بعيدة المدى .

وقد ارتبط وجود المؤسسة بالفـــداء والاسرار السبعة وعظمة الرئيس الأعلى . وقد قيل ان كنيسة روما أسست بتفويض من المسيح نفسه ، وقد أصدر الامبراطور عام ٤٤٥ قراراً يجعل رئيس أساقفة روما رئيساً عاماً للكنائس المسيحية : وقد استولى جريجوري رئيس أساقفة روما على السلطة السياسية (٤٤٠ – ٤٦١) في روما ، ومنذ ذلك الوقت ظل السلطان في يد البابوات اثني عشر قرناً « ومن ثم استولت كنيسة روما على السلطة السياسية للامبراطورية الى جوار السلطة الروحية . وكونت الكنيسة بذلك دولة ، وادعت الحق في أن يمتد حكمها فيشمل جميع المسيحية في كل البقاع . وان مكانتها أسمى من مكانة الملوك والأباطرة ، وان البابا له السيادة العليا في القضاء والادارة . وانه المشرّع والمفسر النهائي للكتاب المقدس ، ومن ثم سيطرت الكنيسة على القضاء . واستعملت حق الحرمان كأكبر عقوبة تنزلها بمخالفيها . واجتمعت في يد الكنيسة جميع شؤون الاسرة كالزواج والطلاق . وعدّ رجال الكنيسة أنفسهم ممثلين لله . فأخذوا حق قيادة أفكار الناس وأعمالهم » .

وتعتقد الكنيسة الكاثوليكية منذ القرون الاولى ان البابا معصوم من

الخطأ في أمور الإيمان وآداب الدين . وفي ظل هذا النظام حملت الكنيسة لواء حدثين من أخطر أحداث التاريخ . الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش .

●

ولقد اتجهت الكنيسة منـــذ ان بلغت ذروتها الى اضطهاد مخالفيها . وقامت بتعميد ألوف الناس قسراً ودفعة واحدة . كما انها دست في الكتب الدينية معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، كما دسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس . وذكره بعض شراح التوراة والانجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية . وصاغوها صيغة دينية وعدّوها من تعاليم الدين وأصوله التي يجب الاعتقاد بها . وأبين كل ما يعارضها[1]. وكان من نتيجة ذلك انه حين أعلنت الكشوف العلمية « قامت قيامة الكنيسة وكفروا العلماء واستحلوا دماءهم وأموالهم . وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب ـ كما يقـــول البابا ـ أولئك الملحدين والزنادقة . فجدت واجتهدت ان لا تدع في العالم النصراني عرقاً نابضاً ضد الكنيسة . وأثبتت عيونها في طول البـــلاد وعرضها وأحصت على الناس الأنفاس ويقدر ان من عاقبته هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلثمائة ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء كان منهم العالم الطبيعي برونو . وعوقب العالم الطبيعي الشهير (غاليلو) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الارض حول الشمس »[2].

●

---

(١) الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

(٢) نفس المصدر .

وهكذا يبدو طابع الاسلام الذي قام وانتشر من غير هيئة لاهوتية ولا رجال دين . والذي قرر أساساً « انه لا وساطة بين الله وعباده » يبدو هذا الطابع واضحاً جلياً فيما رفع به الاسلام البشرية الى الأمام خطوات وحررها من قيود . وان إلقاء نظرة واحـــدة على الصراع الذي قام في أوربا بين الكاثوليكية والبروتستانتية ليكشف عن صورة مريرة مظلمة أشد قساوة وعنفاً ، وتمثل معركة سانت بارتلمي صورة واحدة من صور هذه الحركة التي امتدت عامين متواليين .

وقعت معركة سانت بارتلمي في القرن السادس عشر وفي عام ١٥٧٢ على التحقيق . وفقدت فرنسا بها زهرة رجالها من أهل العقل والفطنة والحرية والعلم والصناعة .

وقد جاءت نتيجة ظهور المذهب البروتستانتي الذي ظهر في ألمانيا في أوائل القرن السادس عشر وامتد الى سائر ممالك أوربا . وقد حدث أن انحاز في فرنســـا الى البروتستانت كل من كان ناقماً على سلوك الكنيسة الكاثوليكية اذ ذاك . هنالك جرت مقتلة عامة على يد الكنيسة الكاثوليكية ، فلما دقت الكنائس أجراسها ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧١ كان ذلك إثارة للجنود والمتطوعين بالبدء في الفتك بالبروتستانت . فدهمـــوا بيوتهم وفي أيديهم المشاعل تضيء الطريق في الليل الدامي ، وأخذوا يفتكون بالأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله في تاريخ البشر ، حيث بقروا بطون الحوامل وأخرجوا الأجنة ثم ألقوها للكلاب والخنازير . وكانوا يسلمون الاطفال الذين في المهد للصغار الذين في سِنّ العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جزّاً من أعناقهم في أسواق باريس . ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء . وعجت الاصوات الى السماء ، وتكرر حدوث ذلك في كثير من مدائن فرنسا ومن أعجب ما وقع ان الكنائس دقت مرة أخرى في اليوم التالي . فظن اتباع الحقد الديني بأن ذلك كان أمراً مجدداً

باستئناف القتال فأنحوا على إخوانهم قتلا ونهبا وتمثيلا بأشد مما فعلوا بالأمس.
واستمرت المجزرة الى اليــــوم الثالث ، ثم استحالت الى مذابح فردية
طوال شهري سبتمبر واكتوبر في باريس وغيرها .

هذه الصورة القاسية مضافة الى الصور الاخرى تكشف عن مدى ما قدمه
الاسلام بالتوحيد الى البشرية .

(٨)

وموقف الاسلام من عقيدة البعث متسق مع طبيعته ومنهجه وتكامله ، وحيث تحاول التفسيرات اليهودية ان تنكر البعث والجزاء الأخروي لتلغي المسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي . وتطرح مفاهيم التحلل والترف والعبء من الحياة دون تقدير لمهمة الانسان في الحياة . ومسؤوليته في المجتمع وارتباط عمله في الدنيا بالمرحلة الأخيرة من حياته وهي مرحلة الجزاء الأخروي .

وعقيدة البعث انما تمثل واحداً من المفاهيم الاساسية لترابط الدين والمجتمع ولتكامل الشخصية الانسانية في رسالتها وغايتها ، وانها عميقة الجذور في هذا التركيب بحيث لا يمكن فصلها عن الدين الحق . وهي علامة واضحة على واقعية الاسلام ونظرته الى حياة الانسان ككل متكامل وفهم عميق لحقائق الحياة الانسانية التي تجمع بين الجوانب المادية والروحية معاً .

فالاسلام لا يقر «الرهبانية» التي تعزل الانسان عن طيبات الرزق ، ولا يقر في نفس الوقت الإباحة والتحلل الذي يحطم كيان الانسان ، وهو حين يفعل ذلك انما يضع الانسان في مكانه الحق من حيث هو بشر له أمانته ومسؤوليته وإرادته الحرة وحسابه وجزاؤه على أعماله .

ولا ريب ان محاولة التشكيك في عقيدة البعث انما تهـــدف الدعوة الى التحلل ، ودفع الناس الى الشهوات ، وتدمير الضوابط التي تحول بينهم وبين

الفساد والإباحة « فلا يرى المرء ان له حياة الا هذه الحياة ، وانه اذا لم يمتع نفسه بكل الشهوات خسر خسراناً مبيناً فاندفع يقترف هذه الشهوات من كل سبيل » ومن حيث يفقد الانسان الايمان بجزاء الاعمـــال فانه لا ريب تستوي عنده الحسنة والسيئة ، واذا سقطت عنده عقيدة البعث . وآمن أن الحياة تمضي بلا جزاء فان غرائزه تتفتح الى التهام كل شيء .

ولا ريب ان الايمان بعقيدة البعث والجزاء الأخروي هو باعث الحيوية والعامل في استمرار حركة الحياة نحو هدفها وغايتها . والانسان مع هذه العقيدة يذكر دوماً ان الجزاء واقع لا محالة . ومن هنا شدد الاسلام كثيراً على قضية البعث واليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء ، ووضعها دائماً نصب الأعين والعقول والافهام . بحيث تجري من خلالها كل أعمال الدنيا . وقد قرر الاسلام ان البعث ليس الا خلقاً جديداً ، ليس بينه وبين الخلق الاول أدنى فرق ، والقادر على الخلق الاول قادر على إعادة الخلق والبعث بالروح والجسد وحياة الآخرة بالروح والجسد وان الله يجمع الاولين والآخرين في يوم مقداره ألف سنة .

●

وان الدين الحق يلتقي في عقيدة البعث واليوم الآخر مع الفطرة والعقل. ذلك ان النفس الانسانية تشعر شعوراً عميقاً بأن وراء هــــذه الحياة حياة أخرى « تتحقق فيها العدالة التي فقدت في الدنيا ، وينال فيها الانسان جزاء عمله ، وان الله سبحانه وتعالى اذا أراد ان يقنع البشر بأمر ما فانه يغرس فكرة الاقتناع به في غرائزهم . وان الشوق الى الخلود إحساس شائع في نفوس البشر .

ولا يمكن ان تكون غاية الانسان الذي وهبـــه الله العقل والعلم ، وكشف أسرار الكائنات وحمله الأمانة ، كغاية سائر الحيوان ، بل

تقتضي حكمة الله ان يجعل وراء هـــذه الحياة : حياة أخرى يستثمر فيها أعماله . ويوفي فيها أجره وجزاءه[1] .

ويقول أمير علي : عقيدة الحياة بعد الموت تقوم على أساس ان كل انسان سيكون ملزماً بأن يقدم حساباً بعمله وافياً ، وسعادة او شقاء الأفراد تعتمد على الطريقة التي أنجزوا بها فرائض خالقهم . وان نهاية العالم متفق عليها في كافة الديانات والمذاهب ، وان الحياة الاخرى بعد فناء العالم قد اتفقت عليها جميع الكتب السماوية المنزلة .

(١) التصوير الاسلامي .

(٩)

لا يقر الاسلام وحدة الوجود ، ولا الاتحاد او الحلول والتناسخ . ذلك ان القول بوحدة الوجود نفي للألوهية ، وإثبات للكائنات وحدها ، وان وحدة الوجود تعبير عن نظرية مادية الكون التي تقول بأنه مادام لا يوجد شيء وراء هذا العالم فان القول بأن الله داخله هو صورة أخرى للقول بنكرانه .

والقول بوحدة الوجود تفكير هندي قديم ، وأصحابه يتصورون ان العالم أزليّ أبديّ ، وان الارواح تخرج من أجسادها لتعود في أجساد أخرى وقد تكون أجساد حيوانات، وان قصة الحياة تدور فيهذا النطاق المحصور. وتبدأ من حيث تنتهي ، بل ان الباحثين المسلمين يرون ان القـــول بوحدة الوجود هو مذهب يأتي على الاخلاق من قواعدها ، اذ لا معنى المسؤولية الاخلاقية التي هي مناط الثواب والعقاب وكيف يكون أخلاقياً من يقول : ما دام الله قد اتخذني مظهراً له وهو الذي فعل حقيقة ما يظن انه فعل لي . فكيف يستقيم ان أكون أنا المسؤول[١]. وان المسلمين يؤمنون بأن هناك

---

(١) الدكتور محمد يوسف موسى : كتابه : « فلسفة الاخلاق في الاسلام » .

واجب الوجود وممكن الوجود : أما واجب الوجود فهو الله سبحانه وتعالى الذي لا يسبقه شيء وهو واحد سرمدٌ لا يحدّه زمان ولا مكان .

أما ممكن الوجود فهو كل ما يصدر عن شيء يسبقه .

●

ويرى المسلمون ان فكرة الحلول تنقض رسالة الاسلام في وحدة الله وتنزيهه عن الخلق وهي لكونها تستتبع فكرة التناسخ تجعل من الله موجوداً منتقلاً . وذلك يتنافى مع بعض صفاته : كالبقاء والقيام بالنفس . ومن هنا فان نظرة الغربيين الى التصوف تنبعث من معنى جزئية المسيحية في مقابل تكامل الاسلام . وان الوقوف عند الصفاء الروحي للفرد ينقص مفهوم الاسلام الكامل المترابط . وان فكرة الحلول انما تزكي فكرة تأليه عيسى المسيح لأنها لا تفصل بين الله والكون ، او بين الألوهية والنبوة ، او بين الله الخالق والإنسان المخلوق .

●

كذلك يرفض الاسلام مفهوم الاتحاد : الذي يعني اتحاد المخلوق بالخالق ، او حلول الخالق في المخلوق ، او تجسد الخالق وهي من المعتقدات التي تناقض مبدأ التوحيد . وفي الإسلام توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية . أما توحيد الربوبية فهو من عمل الإله : كالخلق والاماتة والرزق وقد أقرّ به المشركون في عصر النبي فلم ينفعهم ذلك .

أما توحيد الالوهية فهو من عمل الانسان كالعبادة بجميع أقسامها .

ويدخل فيها الاستعانة والاستغاثة والعبادات التي لا توجه إلا لله تعالى .
وهو ما لم يقر به المشركون في الجاهلية . فأخذوا يوجهون العبادة الى
أصنامهم فلم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية وبقي كثير منهم على الشرك
ومات عليه .

ولا ريب ان الاقرار بتوحيد الربوبية أمر فطري . وان الشرك
أمر طارىء .

(١٠)

ويقف الاسلام موقفاً واضحاً متميزاً من مفهوم المثل الأعلى في مواجهة مختلف المفاهيم التي تقدمها العقائد في هذا المجال . فالله تعالى « هو[1] المثل الاعلى لكل من آمن بالإسلام . فمن اهتدى بهدي الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ومحاولة التحلي بصفاته الحسنى » .

أما المسيحية فهي تصور المثل الأعلى « في القديس المتبتل الذي يقضي حياته كلها في التأهب للآخرة ، فيعيش زاهداً في طلب الدنيا . او راهباً يعتزل الناس في دير متجلبباً بصفات الدعة والمسكنة والحلم والصبر ولين الجانب ونحو هذا من فضائل سلبية ، بل يتقبل ظلم الناس ويتحمل إهانتهم راضياً مسروراً ، بل لا يقنع بهذا وانما يرغم نفســـه على حب ظالميه وأعدائه والمعتدين عليه ويستغفر ربه من أجلهم[2] » .

أما الاسلام فلم يصور المثل الأعلى في انسان ، بل صوره متمثلاً في الله سبحانه وتعالى وفيه يجتمع من الكمالات المطلقة أقصى ما يستطيع عقل بشري ان يتصوره ، ومن يتطلع الى مثل أعلى يهتدي بهديه كان عليه ان

---

(١) دكتور توفيق الطويل — مبحث مطول عن المثل الأعلى في فلسفة الاخلاق .

(٢) نفس المصدر .

يقتدي بالله تعالى في صفاته الحسنى ، « ولله المثـــل الأعلى » النمل « ولله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » الروم .

●

أما الفلسفات فقد أخذ فريق بفكرة الواجب عن طريق العقل وهو (فريق المثاليين) وقد أخذ فريق الواقعيين بفكرة المنفعة وهي المنفعة النسبية المتغيرة بتغير الزمان والمكان .

ولم تلبث الفلسفة الاوربية ان ثارت على المثل الأعلى المسيحي ودعت الى مثل أعلى قاس عنيف مستمد من مفهوم الإله اليهودي : فأعلن نيتشه صورة السوبرمان التي تمثل (الانسان[1] الطاغية المستبد الأناني الجبار الذي يعتصم بالظلم والقسوة والجبروت ويحتقر الصبر والحلم والدعة . ويطالب بالقضاء على الضعفاء والمرضى والمحتاجين) حتى لا يبقى الا الأقوياء كما يحدث في عالم الحيوان . وقد قسم الاخلاق الى أخلاق عبيد وأخلاق سادة . أما أخلاق العبيد فهي أخلاق المسيحية من صبر وحلم ودعة . أما أخلاق السادة فهي ارادة القوة والعزم واحترام الظلم والقسوة . وأقام الاخـــلاق أساساً على الاثرة والأنانية ، وكان هذا هو نقطة التحول في الفكر الغربي من المفهوم المسيحي الى المفهوم اليهودي التلمودي الوثني الذي نزلت الاديان لمحاربته والقضاء عليه وإرساء مفهوم تكافل المجتمع وترابطه بكل عناصره الضعيفة والقوية والغنية والفقيرة .

وهكذا طرح الاسلام مرة أخرى على البشرية مفهوم المثل الأعلى القائم

---

(١) دكتور توفيق الطويل – نفس المصدر .

على الرحمة والتكافل واحتمال المجتمع لكل طبقاته . واذا كانت الرحمة في المسيحية رأس الكمالات . واذا كانت القوة عند نيتشة قمة الفضائل ، فقد جمع الله تعالى بين الرحمة والقوة في تعادل وتوازن ، فالله تعالى رحمن رحيم ، ودود غفور ، وهو تعـــالى في نفس الوقت قوي قادر منتقم قهار جبـــار ، وصفات الرحمة والمحبة فيه تعالى لا تطغى على صفات القوة والجبروت .

كما أن صفات القوة والجبروت لا تطغى على صفات الرحمة والمحبة والغفران والله تعالى يأمر عباده بمزاولة حياة القوة والبطش ، حين يدعو الداعي الى الى القوة والبطش ومباشرة الرحمة والحنان حين تمس الحاجة الى الرحمـــة والحنان . قال : « **عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء** » وهو يصف عباده برد العدوان وان حرم عليهم الا يبدأوا بالاعتداء . « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم** » « **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا** » . وقد دعا الى المصابرة والمرابطة والاعداد والثبات .

المصابرة : هي مغالبة الاعداء بالصبر على المكاره في الحرب .

المرابطة : هي الإقامة في الثغور مترصدين للعدو متأهبين للغزو .

الإعداد : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .

الثبات : اذا لقيتم فئة فاثبتوا .

وبهذا رفض الاسلام الاستكانة والخنوع والذلة والمسكنة . وأكد سبحانه وتعالى فكرة القصاص : « **كتب عليكم القصـــاص في القتلى :**

الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » « ولكم في القصاص حياة » .

وهكذا « جمع الاسلام بين الرحمة والمحبة والجنان ، ودعا الى القوة . وحذر المؤمن من استخدام قوته في الاعتـداء على غيره . وان أوجب عليه ان ينهض لرد العدوان[1] » .

---

(١) نفس المصدر .

خاتمة

قدم الاسلام «التوحيد» الى البشرية من جديد بعد ان انحرفت في طريق الوثنية والشرك والتعدد ولا ريب ان البشرية بالتوحيد قد تحررت من آصار قيود العبودية الفكرية والاجتماعية . وبالرغم من ان الاديان السماوية جميعاً قد دعت الى التوحيد الخالص . فان الاسلام قد بدأ مجدداً لهذه الدعوة بعد ان بعد بها العهد حتى يقول جوستاف لوبون : انه يمكن للاسلام ان يدعي شرف كونه اول من أدخل التوحيد الى العالم ، ويرى بارتلمي سانهلير : ان دعوة التوحيد التي حمل لواءها الاسلام قد أطلقت العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة فارتفع الى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هـــذه الحياة وانه خلّص الفكر البشري من وثنية القرون الاولى . واضطر العالم الى ان يرجع الى نفسه ، وأن يبحث عن خالقه . ويرى العلامة مسمر : ان التوحيد الذي هو أساس الدين الاسلامي ، كان السبب الأول في نجاح دعوة محمد . وان إعلان محمد هذا التوحيد في عصر ملّت فيه الأمم خرافات علم اللاهوت كان أفضل ما جاء به وأفعله بالعقول حتى انه ما يكاد يفوه بالدعوة الى توحيد الله حتى استثار بدعوته تلك : العالم كله . وفضل الإسلام يظهر بما فاه به «محمد» وهو يسقط الاصنام التي كانت حول الكعبة

(جاء الحق وزهق الباطل) وقوله : (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى او لعمل صالح كلكم لآدم وآدم من تراب .

ويرى هاملتون جب : ان عقيدة التوحيد التي جاء بها الاسلام هي أروع الأمثلة على فكرة توحيد العالم ، وان في بقاء الاسلام أمل العالم كله . وان شعيرة الحج تمد عاملا قوياً في تطبيق مبـــدأ توحيد العالم فهي رمز للإخاء الذي يربط المسلمين بعضهم ببعض دون تفرقة لونية او عنصرية .

•

ومفهوم التوحيد في الاسلام آية من آيات النقاء والنصاعة . فالله سبحانه وتعالى هو خالق الانسان وخالق الكون والموجودات «والله وراء الموجودات جميعاً وفوق العالم كله ، والإدراك الانساني يخطو في تصوره خطوات . ومع ذلك لم يكشف عن ذاته وحقيقته كما هي . والله واحد : والوحدة هنا دليل على الاطلاق . وعدم القابلية للتجديد ، كما ان التشخيص هناك في الوثنية آية على التعدد والكثرة » والله سبحانه هو واضع نواميس الكون وهو القادر وحده على خرق هذه النواميس وهو الذي يحيط بالعوامل التي لا تخفى على البشر . وأبلغ مثل لتصور الله سبحانه وتعالى هو : **« ليس كمثله شيء »** وهو يمسك هذا النظام المترابط في كل لحظة . وانه لو تخلى عنـــه لتلاشى وانتهى والعالم كله من خلقه ولكنه لا يدور بنفسه . **« ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا »** المسلمون يعتقدون ان الله يعمل في العالم دائماً . فكل ما يصير وكل ما يتجدد من عمله مستمر **« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين »** وفي ذلك دحض لشبهة القول بأن الله يعلم الكليات فحسب « والله في الاسلام : هو الواحد

الأحد الفرد الصمد ، لا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئاً . والله هو العدل والحق ، وهو الأول والآخر » .

وتستلزم فكرة التوحيد الخالص الى جانب الاعتراف بأن الله هو خالق السموات والأرض الايمان بالوحدانية . وهو ان يكون الحكم لله وحده في حياتهم ومجتمعاتهم . وان يتلقوا منه الحلال والحرام ، وان يكون هو وحده مرد أمورهم كلها في الدنيا والآخرة ، وان يتحاكموا الى شريعته[1] وان على المسلمين إفراد الله بالألوهية والإقرار له بالعبودية ، وان الاسلام وحدة لا تنفصم ، عبادة (سواء أكان عبادات أم معاملات) فالعبادة تتناول حياة الانسان العملية .

وقد قرر الاسلام « ان هناك ألوهية[2] وعبودية . «ألوهية» ينفرد بها الله سبحانه وعبودية يشترك فيها كل حيّ وكل شيء ، كما قـرر تفرد الله سبحانه بخصائص العبودية وتجرد العبيد من هذه الخصائص . ان من مقتضيات توحيد الألوهية إفراد الله سبحانه وتعالى بخصائص الألوهية في تصريف حياة البشر كإفراده سبحانه بخصائص الالوهية في اعتقادهم وتصورهم وفي ضمائرهم وشعائرهم على السواء .

●

ولقد كان الانسان ــ في محاولة الفكر البشري خارج مفهوم الدين الحق ، غير قادر على تصور الألوهية على حقيقتها ، ويحول بينه وبين التصور الحقيقي عجزه عن التخلص من الهوى . والمطامع والشهوات . وتلك من طبائعه التي لا مفر منها ، ولذلك فقد جاءت الفلسفات والمذاهب كلها قاصرة عن بلوغ

---

(١) دكتور محمد البهي ،

(٢) راجع كتاب التصور الاسلامي .

حقيقة الالوهية عجزاً مصدره قصور العقل البشري نفسه . والهوى الذي هو أخطر تحديات مناهج المعرفة ، ذلك ان هوى الانسان من شأنه ان يحول دون التصور الصحيح لله تبارك وتعالى ، ومن هنا جاء الفارق بين الله الحق ، وبين الإله او الآلهة . ومن هنا كانت الحاجة الدائمة السرمدية الى الأديان ، للتعرف الى الله سبحانه تعرفاً صحيحاً . ولما كان البشر عاجزين عن التخلص من الاهواء ، وكانت عقولهم غير قادرة على التفكير في ذات الله . فقد أمرنا الاسلام بأن نفكر في خلق الله .

ولا ريب ان كل الاديان السابقة للاسلام جاءت بالتوحيد الحق بالله إله العالمين . والإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من جزاء . ولكن التفسيرات التي وضعت قد حرفت هذا المفهوم .

ولا ريب ان التوحيد الذي جاء به الاسلام قد لقي معارضة شديدة من كثير من العقائد التي سبقت الاسلام لأنه جاء فاصلاً في قضايا كبرى قامت عليها أعمدة تلك التفسيرات المذهبية أهمها :

(أولاً) إنكار الوساطة بين الله والعباد .

(ثانياً) إنكار فكرة تعذيب النفس والزهد في متاع الحياة الدنيا .

(ثالثاً) إقامة الفاصل الواضح بين الالوهية والنبوة وبين الله سبحانه الخالق وبين العالم المخلوق .

ولا ريب ان التوحيد هو المصدر الاول للقضاء على العبودية والعنصرية والوثنية جميعاً فهو الذي حمل لواء المساواة بين الناس وجعلهم من درجة واحدة . وهو الذي أقر حرية الفكر وفتح لها الآفاق ودعا الى التخلص من عبادة الاصنام وتأليه الفرعون والقيصر والامبراطور والبرهمي وعبادة الاحبار والرهبان ، والتحرر من الاساطير والسحر . كما أنكر التوحيد : جزئية

الدين كرسالة أخلاقية ، او كعبادة فحسب ، وهو الذي حمل لواء التكامل بين العقيدة والشريعة والاخلاق وجمع بين الدين والدولة ، وألغى فكرة الأبوة ، وفكرة الصراع بين الجسد والروح . وربط بين الفرد والمجتمع والعقل والقلب والدنيا والآخرة وقرر انه ليست هناك خطيئة أصلية . ولا جزاء للبشرية من أجل خطيئة آدم التي تاب الله عليه منها . وكما فصل الاسلام بين الله والعالم ، فصل بين الالوهية والبشرية . فلا يمكن ان يرقى الانسان الى مرتبة الالوهية . وكذلك ألغى الوساطة بين الله والعبد ، وهو لا يقر الوسائط سواء عن طريق الصالحين او الوسائل الروحية وفضلاً عن ذلك فان الاسلام لا يقر مظهراً إنسانياً لطبيعة إلهية . كذلك أنكر ان يسقط التكليف عن أي مسلم مهما بلغ درجة من الإيمان والتكليف لم يسقط أبداً ، بل لم يسقط عن النبي الذي هو أرقى المسلمين إيماناً .

●

والله خالق الانسان هو صانع المنهج للانسان وللبشرية . ومن هنا يشجب الاسلام خطأ الادعاء بأن الانسان يستطيع ان يعرف طريقه دون معين خارجي من وحي ودين ، والادعاء بأنه قادر على أن يكون راشداً بغير مرشد .

●

ولا ريب ان الايمان بوحدانية الله يحرر الانسان من العبودية للبشر ، او العبودية لشيء من الاشياء . « وقد علم الاسلام البشر أصول السعادة الحقيقية التي لم تكن معروفة عند المصريين او اليونان او الرومان وأهمها صقال العقول بصقال التوحيد الخالص وتطهيرها من صدأ الخرافات والاوهام ليكون الفكر مستقلاً فيما يعتقد يرفض التقليد ويعتمد على البرهان » .

وقد بين ان للكون سنناً ونواميس ثابتة ينبغي ان يهتدي بها الانسان في سيره العلمي والعملي دون ان تنسيه هـــذه السنن والنواميس موجدها الحق ، وقدرته بالمعجزة على خرقها متى شاء .

والاسلام في مجموعه متكامل متوازن قوامه التوحيد ، وهو بذلك ليس مزجاً ولا تركيباً على النحو الذي عرفته العقائد حيث يقال : ان عقيدة الغربي ما هي إلا مزاج الفلسفة اليونانية والقانون الروماني والدين المسيحي .

ومن هنا يبدو ان الدين ليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي خرجت من الارض ولكنه حقيقة من الحقائق الكبرى التي يعجـــز الانسان عن تشكيلها . والذي هو في حاجة الى هداها : والتي هي عطاء الله سبحانه وتعالى للانسان : « **لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** » ومن الحق ان يقال ان الاسلام جاء بما يعد تصحيحاً للتفسـيرات التي وقعت فيها الاديان والعقائد ، ورداً حاسماً لكل ما أثير من شبهات وانحرافات وأخطاء مما كان قبل الاسلام وما وجد بعـــده كذلك . وصدق ربعي بن عامر الذي قال للفرس : « إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله . ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ومن ضيق الدنيا الى سعتها » .

الفصل الثالث

تمدين البشرية وتحرير الانسان من العبودية

لا ريب ان التوحيد هو الذي حرر العقل من الوثنية ، وحرر البشرية من العبودية لغير الله ، والاسلام هو الذي فتح الطريق الى تمدين الانسان وتحريره عقلياً وجسدياً ، وكسر ذلك الحاجز العبودي الذي أقامته الحضارات الفرعونية ، والفارسية ، والهندية ، والرومانية ، واليونانية . وبررته الفلسفات والأديان والعقائد التي قامت على نظام الطبقات .

فالإسلام هو الذي أعطى البشرية المدنية . وحرر الحضـــارة من قيود الوثنية والعبودية ، وحرر العلم من المادية . وردّ المناهج الاجتماعية والفكرية جميعاً الى ان تكون خالصة لله .

ولقد جاء الإسلام والبشرية تقاسي أشد ألوان الظلم والاستبداد والعبودية . وتهين الكرامة الانسانية فيها امتهاناً مذلاً لا مثيل له .

- البراهما سادة والباقي عبيد .
- في فارس عبادة الامبراطور .
- في اليونان والرومان عبادة القيصر .
- في مصر عبادة الفرعون .

وفي كل مكان لا يصح للعبيد ان يصبحوا براهمة او سادة او قياصرة . ذلك ان الطبقة مصدرها العرق وسيادة الجنس . وقيـــام الطبقات مرتبط بنصوص مقدسة لا يصح إزالتها ولا تغييرها ، والطبقات العليا لا تعمل لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية . واذا وضع العبد في موضع السيادة فهو عبد. واذا وضع السيد في موضع العبـــد فهو سيد . والبرهمي اذا ولد وضع في الصف الاول من صفوف الدنيا ، وكل ما في الدنيا ملك للبرهمي وللبرهمي اذا افتقر ان يملك مال العبد الذي هو عبـــد له . وفي فارس كان الناس ينظرون الى ملوكهم على انهم آلهة اصطفاهم الله للحكم بين الناس . وليس للناس قبلهم حقوق، ومنها ولدت نظرية الحق الإلهي في عهد الملوك الساسانيين، وكان الأكاسرة يزعمون ان لهم الحق وحدهم في ان يلبسوا تاج الملك بما يجري في عروقهم من دم إلهي .

أما عبودية الرومان فهي شيء مرير ، وهي امتداد لعبودية اليونان التي دافع عنها سقراط وأفلاطون وأرسطو .

وفي الامبراطورية الرومانية دافع عن النظام العبودي شيشرون وتاسنيناس وسنكا . وقد عرف عن الرومان القسوة التي لا تعرف الحدود والظلم الذي يصل الى أبعد الدرجات في معاملة العبيد وبيعهم بيع السلع، وكان الرومان[1] يعتبرون أنفسهم سادة العالم بالحق المقدس، وكان هدفهم غزو العـــالم ،

---

(١) علي ادهم : بحث عن قسوة الرومان .

والاستيلاء على كل خيرات الأرض . ولم يحجموا في سبيل ذلك عن أي عمل ، واستباحوا كل خطة واستحلوا كل منكر . وكثيراً ما كانوا يذبحون سكان المدن التي يستولون عليها ويقتحمونها كما تذبح الشاة بعد جلدهم وضربهم ضرباً مبرحاً . ولما كثرت المصارعات واتسع مجالها : كان الأسرى لا يقتلون وانما يسلمون للمدن المختلفة لاستخدامهم في الالعاب .

وفي المدن المحصورة كانوا يجمعون ما بالمدينة من المؤن والعتاد ، ويحرم العبيد من الطعام ويضطرون الى أن يعيشوا على الحشائش والاعشاب ، وكانوا يعمدون الى رمي العبيد الى الوحوش الضارية . والاستمتاع بمرآها . وهي تفترس الآدميين ، وكان الإعدام بالالقاء الى الوحوش في عهـــد الامبراطور أغسطس قيصر : عقوبة قانونية ، ولما صدرت القوانين بتخفيف الأحكام عن العبيد . كان ذلك عملاً اقتصادياً ، فقد قلت المصادر التي يجتلب منها الرقيق بعد استقرار الامبراطورية. وفي نفس الوقت الذي بدأت تتحسن فيه أحوال العبيد تزايدت صرامة العقوبات وطرائق تنفيذها وأساليب الاعدام كانتزاع اللسان وصب القصدير المغلي المذاب فيأفواه المجرمين . هذا فيما يتعلقبالعبيد. أما للرقيق فقد كان أشد قسوة .

يقول سيد أمير علي : العادة السائدة قبل الاســـلام ان أسرى الحرب يقطعون بالسيوف ثم يصير نساؤهم وأولادهم عبيداً أرقاء . ولكن محمد (ص) نهى عن ذبحهم والتمثيل بهم ، وأمر بأن لا يبقى في الأسر الا من أخذ في حرب نظامية حتى تدفع له الفدية ، وتعد الفدية وتحرير الاسرى في الاسلام من الاعمال الصالحة . ولم يسمح بحال من الأحوال بفصل الوالدين عن أولادهم، واذا حملت امرأة أسيرة في طفل من سيدها تصير حرة ، ويصـــير للطفل حقوقه الشرعية على الوالد . وعليهم ان يقارنوا بذلك ما كانت عليه أوربا في القرن الخامس عشر .

●

وفي الامبراطورية الرومانية قبل الاسلام : كان الامبراطور ليس أي مخلوق على وجه الارض مساوياً له، لم يكن في نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس ، والامبراطور كان يعد في الحقيقة إلهاً : الإله قيصر .

وقد أقيمت العبادة للقيصر على انه ضرورة لإدامة الدولة التي كانت هي العالم .

أما الأديان فقالت ان الامبراطور انسان ، وان الحكومة ليست أزلية او مطلقة التصرف . غير ان العالم الغربي لم يلبث ان انتقل من نفوذ القيصرية الى نفوذ البابوية التي يجمع فيها شخص واحد سلطتي الحاكم والبابا .

●

أما الرق فقد أباحه كتاب العهد القديم ، وقد انتشرت تجارة الرقيق في العالم كله على أيدي اليهود . ولما جاءت المسيحية أقرت ما كان موجوداً في القانون الروماني : ولم يكن القانون الروماني يعتبر الرقيق انساناً له شخصية ذات حقوق على الانسانية ، بل يعتبره شيئاً من الاشياء كسائر السلع التي يباح الاتجار بها .

يقول الدكتور جورج بوست في كتابه (قاموس الكتاب المقدس[1]) « ان المسيحية لم تعترض على العبودية من وجهها السياسي ولا من وجهها الاقتصادي . ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم في آدابهم من جهة العبودية حتى ولا على المباحثة فيها . ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد . ولا حركت العبيد الى طلب الاستقلال ، ولا بحثت عن مصادر العبودية ولا عن قساوتها ، ولم تأمر بإطلاق العبيد حالاً ، وبالإجمال لم تغير النسبة الشرعية

(١) ص ٦٠ و ٦١ طبعة بيروت سنة ١٩٠١ .

بين المولى والعبد بشيء ، بل بعكس ذلك أثبتت حقوق كل من الفريقين وواجباتهما » .

ولا ريب ان الرسالة التي جاء بها السيد المسيح كانت تحمــل كل معاني مقاومة العبودية . ولكن تفسيراتها التي عبرت أوربا كانت خلواً من ذلك المفهوم ، وتقول موسوعة (بيير لاروس) أكبر موسوعة في القرن التاسع عشر (١٨٧٠ م) .

لا يعجب الانسان من بقاء الاسترقاق واستمراره بين المسيحية الى اليوم فان نواب المسيحية يقرون على صحته ويسلمون بمشروعيته .

وقال القديس توماس : ان الطبيعة خصت بعض الناس ليكونوا أرقاء . ونادى (بالي) من كبار الفلاسفة بصحة الاسترقاق ومشروعيته واستنــد في مشروعيته الى الاصحاح الحادي عشر .

وقال الاسقف الالماني بوفييه : بعدالة الاسترقاق في فتاواه اللاهوتية . ووافق على وسائل النخاسة . وكانت اليهودية تعتبر الرق من أصول الثروة .

وكان المصريون يستحلون ظلم غير المصريين ، وكانوا يعاملون الرقيق معاملة سيئة . ومن ذلك تسخير الألوف المؤلفة في بناء الاهرام . وهكذا لا تجد شريعة وضعية او تفسيراً محرفاً لدين ، قبل الاسلام يساوي بين الناس ، او يرفع الإصر والأغلال عن الطبقات الفقيرة والعاملة والمستفيدة .

ويؤكد الباحثون استفحال ظاهرة الرق في العالم قبيل الاسلام بصوره شاملة ، وفي المجتمعات الحضارية الاربعة الكبرى الفرس والروم والفراعنة والهنود ، حيث كان العبيد يشكون ظلم الأمراء واستعباد السادة .

ويقول ناجي معروف في كتابه «اصالة الحضارة العربية» ان الاغريق لم

يكن الرق محرماً عنـــدهم ولم يكن مستنكراً ، وكان فيلسوفهم أرسطو يقول : خلق العبد للخضوع والطاعة وعلى الأحرار ان يستكثروا منهم ، وكان يرى ان الرقيق هو الآلة الحية التي لا ينبغي للمواطن الحر ان يتأولها . والرقيق في رأيه من وسائل الانتاج الضرورية التي لا غنى عنها للمدنية . أما أفلاطون فكان رأيه ان يكون الرقيق من غير اليونان . ولم تنكر اليهودية ولا المسيحية ذلك الاسترقاق ، ولا تلك العبودية ، بل كانت اليهودية تشجع المتاجرة بالرقيق . ولا سيما اولئك الذين تعمل على إخضاعهم من الاوربيين وتصدرهم الى بلاد المشرق ليباعوا في أسواق النخاسين ، وكان النخاسون من اليهود في اوربا يسرقون النساء والاطفال لبيعهم في الاسواق .

وقد ازدهرت تجارة الاوربيين بالرقيق الابيض والاســـود على أيدي المسيحية قروناً عدة ولا سيما في عهد الفتوحات والاستكشافات في افريقيا وآسيا وامريكا من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر .

وكان مونتسكيو القانوني الفرنسي الكبير يرى انه من المستحيل ان يرثي الانسان للافريقيين ذوي البشرة السوداء ، وانه لا يمكن للمرء ان يتصور ان الله سبحانه وتعالى وهو ذو الحكمة السامية قد وضع روحاً طيبة داخل جسم حالك السّواد . وقد تابع الغربيون بعـــد المسيحية سياسة روما وأثينا العبودية . وسخر الغربيون الرقيق وأذلوهم . وكانوا يقتنصون الناس لتشغيلهم في مستعمراتهم . ويسنون القوانين التي تمين موقفهم من أسيادهم وتحـــرم عليهم الوظائف والزواج والتعليم . اهـ .

أين هذا من مفهوم الاسلام لتحرير الرقيق والانسان عامة حيث يقول عمر : (لا تضربوا وجوههم وأبشارهم ولا تجلدوا العـــرب فتذلوها) او قول ابن خلكان : (ان البشرة السوداء لا تقلل من شرف النفس الطاهرة ولا تنقص من علم العالم ولا من سمو المفكر) ومن قلب الانسان انطلقت

صيحة الحرية والكرامة التي غيرت وجه أوربا والفكر الغربي كله والإسلام هو الذي حرر العبيد في كل مكان وألغى ما بين الأسود والأبيض . وألغى أوضاع البشرية التي تجعل للجنس او للمال او العرق والعنصر المقام الاول .

وقد عرفت البشرية قبل الاسلام ضروباً من الرذائل وامتهان حرية الانسان وكرامته ، وكان الناس على اختلاف عناصرهم يجعلون الحق للقوة . فكان القوي يتحكم في الضعيف فيسخره لمنفعته او يبيده . وكانت الشعوب الضعيفة تخدم الشعوب القوية تحت تأثير الأسر المكتسب بحق الفتح ، وكان الناس يعتبرون عبيداً لحكوماتهم . وكان الناس يسرق بعضهم بعضاً فيؤخذ الأبناء والبنات من أحضان آبائهم كرهاً ليباعوا في الأسواق . وكان الناس لا يعتبرون للمرأة حقاً فلا يعلمونها ولا يورّثونها . وكان الناس يستحلون دماء بعضهم لمجرد اختلافهم في العقائد[1] .

---

(١) بتصرف عن بحث لفريد وجدي .

(٢)

جاء الاسلام فألقى الضوء الكاشف في أعماق هذا الظلام . وكانت دعوته في صميمها الى توحيد الله وتحرير الانسان ، فألغى العبودية وقاوم الرق ، ودحر الظلم وأعلن الأخوة العالمية ورفع راية الوحدة البشرية فوق الألوان والدماء والأجناس ، ووضع قاعدة العتق وتحـــرير الرقيق والقضاء على السخرة .

وقد صور هذا المعنى العلامة فيشر في كتابه « تاريخ أوربا » وفي بيان حسن قال : « أفاق العالم الغربي على نور الاسلام وكان يغط في نوم الجهالة والظلام » .

وقد كان الاسلام العامل الاول في القضاء على الرق بوضعه في مجال التصفية . وأول عوامل التصفية انه جعل له مدخلاً واحداً هو الجهاد . وألغى مداخله الاخرى المتعددة . ومنها البيع والمقامرة والنهب والسطو ووفاء الديون والقرصنة ، فألغى الإسلام كل هذه المداخل ما عدا مدخل الجهاد . ثم وضع تنظيماً لأسرى الحرب . كما اعتبر الاسلام الرق عارضاً وعمل على إزالته . وفي نفس الوقت الذي دعا فيه الى حسن معاملة الرقيق ، دعا الى مكاتبة العبد لتحريره بدفع مال يقدمه لسيده . ولم يكن من اليسر ان يبطل الاسلام الاسترقاق لأنه كان ظاهرة قائمـــة في المجتمع البشري ، ولكنه وضع

خطة[1] للقضاء عليه بالتدريج وبعد تربية النفوس على احترام الانسان وتحديد ما له من حقوق وما عليه من واجبات . وقد وضع الاسلام قواعد عامة في هذا السبيل :

أولاً : حسن معاملة من تحت أيديهم من الرقيق : فعلى المسلمين ان يمسكوهم بمعروف ويعاملوهم بالحسنى .

ثانياً : الترغيب في تحرير الرقيق : فقد نص القرآن على إيجاب تحرير الرقيق (سورة التوبة – سورة النور) وجعـــل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب ، وجعل الاسلام تحرير الرقيق فدية عن أمور كثيرة ، وبذلك عجل بإخراجهم من دائرة الأسرى . وكان الأسرى قبل الاســـلام يلبثون آماداً طويلة وقد يسترقون الى الابد . وقد جعل[2] الاسلام من مكارم الأخلاق : فكاك العاني وهو الاسير وإطلاق سراحه ، وحرص على فك الرقاب بأن جعله من أبواب الزكاة وجعل عتق العبد كفارة عن الذنوب والآثام . وكفارة عن عقوبات القتل الخطأ ، وكفارة عن الحلف بالأيمان . كما جعل العتق كفارة عن الظهار وعن الإفطار في رمضان .

ومن تشريعات الاسلام لتحرير الرقيق : شراء جميع العبيد الذين هم بيد غير المسلمين من أموال الزكاة وعتقهم في سبيل الله . كما قرر الاسلام تكافؤ الحر والعبد (من لطم مملوكاً له أو ضربه فكفارته عتقه) ومنع الاسلام التفريق بين العبد وعائله ، وألزم السيد إكساء عبده وإطعامه . ومنع عُمَر ببيع أمهات الاولاد . ونهى الرسول عن مخاطبة العبد بكلمة عَبْدِ أو أمة . ونهى العبيد ان يخاطبوا سادتهم بكلمة رب .

---

(١) اصالة الحضارة العربية : ناجي معروف .

(٢) نفس المصدر .

ثالثاً : وضع قاعدة المعاملة بالمثل في الحروب الدولية فيما يتعلق بالأسرى، ومبدأ الاسترقاق . وجعل الاسترقاق الشرعي ما يقع في حروب يراد بها إعلاء كلمة الله .

رابعاً : ليس في التشريعات الاسلامية نص واحد يأمر باسترقاق الناس او اتخاذهم عبيداً او الاتجار بهم في أسواق النخاسين .

خامساً : أعلن الاسلام إطلاق سراح أعدائه اذا أسلموا حالاً .

فعل المسلمون هذا بينما لم يفكر الغرب في تحرير الرق إلا في القرن السابع عشر . أي ان الاسلام سبقهم في ذلك بنحو ألف سنة . ومع ذلك فقد ارتدت أوربا في العصر الحديث الى الدعوة لسيادة الأجناس، وغالت في ذلك غلواً شديداً . وكانت عملية تهجير الزنوج السود من افريقيا الى العالم الجديد التي شملت عشرات الملايين من أكبر المآسي التي تدخل تحت أسلوب النخاسة . وما يزال ملايين الزنوج يعاملون حتى الآن بمنتهى القسوة في العالم الجديد . وقد أشار المؤرخ الزنجي دوير الى أن عدد الزنوج الذين اختطفتهم النخاسة لحساب المستعمرين بلغ مائة مليون زنجي . وقد استمرت هذه التجارة أربعة قرون وارتكبت فيها من الفظائع ما لا يمكن تصوره .

وتقول السيدة بنالكدرين تروبه في كتابها (تاريخ الزنوج) ان قصة تجارة الرقيق الإفريقي تمثل سجلاً من أحلك السجلات في تاريخ العالم الغربي . فقد كان النخاسة الذين يعملون لحساب المستعمرين يقومون باصطياد الاطفال والشباب من حقول الذرة . وذلك بمطاردتهم جماعات حتى يسقطوا في الشباك . ثم يحملونهم الى الموانىء حيث تنتظرهم السفن الانجليزية ويحشرون فيها بالآلاف . وقد ربطوا بالحبال حتى لا يلقوا بأنفسهم الى الماء[1] .

---

(١) نقلاً عن حسن درح : مجلة الكويت ١٩٧٢ .

يقول ويستر مارك : ان المؤرخين الغربيين بالغوا في زعمهم ان الكنيسة عاملت الرقيق برفق ، فقد جاء القرن الثالث عشر ، وللسيد على عبده الحق المطلق في إحيائه وإهلاكه،وكان يباع في جميع بلاد النصارى كما تباع السلع ، وكانوا يمنعونه من تعلم القراءة والكتابة،ويعاقب من خالف ذلك عقاباً شديداً.

ويشير سامي داود الى فشل الكنيسة في القضاء على التفرقة العنصرية في أوربا في ضوء نظام الاقطاع الذي عانى في ظله سواد الشعب قساوة كبيرة من الحكام . وحيث كانت أوربا تقيم الأبراج لأمراء الاقطاع الذين كانوا يفاخرون بأنهم أميّون لا يقرأون ولا يكتبون .

يقول : عندما نادى الاسلام الى المساواة بين الشعوب والاجناس أمام الدولة وأمام الله ، نادى بتحرير العبيد بمجرد قيام الدولة الاسلامية . وكان نفس النداء قد ظل يقرع أسمـــاع أوربا قروناً طويلة عن طريق دعاة المسيحية والمبشرين بها . والرجل المسيحي الابيض يعيش بنفس عقليته الوثنية وتفكيره العنصري : وكانت الكنيسة في أوربا هي التي تحمي الحق المقدس للملوك والأشراف فتقر بذلك التفرقة العنصرية وتعترف بشرعية السبي والاستعباد وإغلاق السجون والمطابق على العبيد والمستضعفين » .

(٣)

ويتصل بعبودية الرجل في مجال الحضارات الخمس الكبرى : (اليونان ، والرومان ، والفرس ، والفراعنة ،والهنود) عبودية المرأة في مجال البغاء . فقد كانت المرأة تقدم الى المعابد . وكانت الديانة البابلية توجب على بعض الفتيات ممارسة البغاء إكراماً للآلهة . وكانت الديانة توجب بأبغض أدوارها على كل امرأة على الأقل نظرياً أن تمارس البغاء باعتبار انه من الشعائر الدينية ، وفي بعض أنحاء الهند كانوا ينظرون الى البغاء هذه النظرة ويعتبرونه من الفروض الدينيـة .

واليهود كانوا يمارسون البغاء ويقدسونه . وكانت مصر وفينيقية وآشور وبلاد الكلدان وفارس وغيرها تقيم الشعائر الدينية الممزوجة بجميع ضروب الخلاعة والفســـاد ، وكانت عبادة إيزيس وسولك وعشـتروت ومليته وغير هذه من أحط ضروب الخلاعة وأقبحها بل ان المعابد الخاصة بتلك الآلهة لم تكن سوى مسارح لأحط ضروب الشعائر الشهوانية التي كان القوم يمارسونها باسم الدين .

وقد أنشىء معبد خاص باسم أفروديت . وهي من أساطير القوم . وهي إلهة الشهوات وزخر المعبد بكاهنات يمارسن البغاء باسم الدين .

وفي العصر الروماني أنشىء نظام الكاهنات العذارى لخدمة المعابد . ولما

جاءت المسيحية وقفت موقف الرأفة بمحترفات البغاء ، وعملت الامبراطورية الرومانية على إعادة الحقوق المدنيـــة والاجتماعية لمحترفات البغاء . وتزوج الامبراطور يوستنانوس بالبغية (بثودورا) .

وقد اعترف آباء الكنيسة وفي مقدمتهم القديس أغسطينوس بأن البغاء شرّ لا بد منه وبأن إزالته بتاتاً قد يفضي الى انتشار الرذيلة على وجه أشد ضرراً بالمجتمع .

●

أين هذا من موقف الاسلام من المرأة ومن إكراهها على البغاء ومن تحريرها ن قيود الإذلال والعبودية .

يقول سيد أمير علي : ليست المرأة أتعس حظاً مما هي فيه عند الأمم المسيحية . وما هو مركز المرأة الشرعي حسب الدين حتى في أول البلاد النصرانية تقدماً .

ان المرأة المتزوجة لم تكن لها حقوق مستقلة عن زوجها الى زمن قريب حتى في انجلترا ، على أن الرسول الذي ظهر في بلاد كانت تُوأد فيها البنت حية . وفي عصر لم يعرف في أي بلد آخر أي نظام وأي طائفة تحول المرأة الى حق ، فسواء كانت فتاة او عذراء او زوجة او أم ، هذا النبي أكسب المرأة حقوقاً لم يعترف بها الا بضغط شديد لدى الأمم المتمدنة فيالقرن التاسع عشر وكفى محمداً فخراً حتى لو لم يفعل أكثر من ذلك في سبيل الانسانية ، بيد ان المرأة المسلمة يعتبرها المتفقهون في الدين أحسن حالاً من المرأة الاوربية .

ولقد لبث ملوك النصارى وزعماؤهم يرغمون المرأة على التزوج بمن يشاؤون من رعاياهم عدة قرون بعد ظهور الاسلام . بينما كان الاسلام قد أعطى المرأة

البالغة الحق في أن تتزوج بإرادتها ، وان لا يتدخل الزوج في ثروتها . كما انه لا يسوغ له ان يسيء معاملتها بالطرق الوحشية . فهي متى كانت بالغة سن الرشد تتصرف في جميع شؤونها وثروتها كما تشاء بدون تدخل زوجها او ابنها . فاذا ذهبنا ننظر الى صورة المرأة على الإجمال قبل الاسلام وجدنا صورة قاتمة مهينة « كانت المرأة من أهل أثينا ، وهم اكثر الأمم القديمة مدنية وعلماً تعتبر من سقط المتاع حيث كانت تباع وتشرى في السوق ، كما كانت منزلتها في الدرك الأسفل ، انما كانت تعتبر رجساً من عمل الشيطان لا شأن لها ، وكان مصرحاً للواحد من أهـــل أثينا ان يتزوج بأي عدد يشاؤه من النساء وكان (ديموشيننس) يفاخر بأنه توجد في أمته ثلاث طبقات من النساء ، كانت طبقتان منها تعتـــبران الزوجات الشرعيات والشبيهة بالشرعيات .

أما في (اسبارطة) فقد كان مصرحاً للمرأة ان تتزوج بأكثر من رجل ، وكانت جميع النساء تقريباً يمارسن هذه العادة . وكانت عادة تعدد الزوجات موجودة في البلدان المجاورة لدولة الرومان وكان من أثر الفتوحات التي قام بها الرومان مضافاً اليها الرفاهية التي تمسكوا بأذيالها ، اذ نالوا ذلك المجد الباذخ ــ كل هذه الاسباب جعلت عقدة الزواج المقدسة مجرد كلمة من قبيل لغو الكلام عند الرومان ، غـــير ان كبراء روما أرادوا ان يتمتعوا بمزايا الحرية وترفها فانغمسوا في شهوات الحب والهوى ، فأفضى ذلك الى ان أصبح الزواج أشبه بالفسق العادي . ثم ان الحكومة اعترفت بالزنا في قوانينها فصار هذا نظاماً مرعي الجانب ، وقد أفضت حرية النســاء وانفصام عرى الرابطة التي كانت تربطهن بالرجل تنقل المرأة بين أحضان الرجال ، كل ذلك أفضى الى عادة تعدد الزوجات ، ثم ان اتخاذ الخليلات لم يكن قاصراً على الطبقات الارستقراطية ، حتى ان رجال الاكليروس أنفسهم كانوا يتخذون

لهم أكثر من زوجة شرعية او غير شرعية بالرغم مما تقضي به قداستهم .

●

جاء الاسلام والبشرية على هذا النحو من عبودية الرجل وعبودية المرأة ، فلم يلبث ان فرض للمرأة حقاً وحرية وكرامة ومكانة لم تكن تحـــلم بها ، حيث أعلن الاسلام حقها في الحياة وحريتها في الزواج والتملك ، وإدارة عملها ، وجعل للرجل عليها درجة واحدة ، فهو قد نقلها من حيث كانت لا تحتسب عادة إلا من متاع الرجل الى حيث جعلها شخصية كاملة ، ورفعها من حيث كانت مستعبـــدة في البغاء والرقيق الى حيث جعلها تستطيع ان تختار لنفسها زوجها . ثم وضع لها الحدود التي تحول بين الناس وبين استعبادها وامتهانها. فنهى عن ان تستغل او تسترق او تقدم للبغاء « **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً** » ونهى عن وأدها « **إذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت** » وكرمها وحصنها وجعل هناك قانوناً للدخول عليها : ثلاث عورات ، يستأذن فيها عليها ، ودعا الى تعليمها وفرض لها في الميراث وجعل لها نصف شهادة الرجل، ووضع حداً للتعدد حيث كان لا حد هناك للتعدد . وحرم زواج الأخت او الأم او زوجة الأب والأخت في الرضاعة . وأقام لها نبراساً من الكرامة والخلق والحفاظ على العرض لا يرقى اليه نظام ولم تصل اليه مدنية ما .

لقد رفع الاسلام شأن المرأة الى مرتبة عالية بعـد ان انحط مقامها الى الدرك الأسفل عند اليهود ، وعرب الحاضرة . اذ كانت الآنسة بمثابة الخادمة حتى في دار أبيها عنـــد الموسويين ، وكان لأبيها الحق في بيعها . اذا كانت قاصرة ، فاذا توفي يحق لأخوتها الصبيان ان يفعلوا بها ما يشاؤون . ولم تكن

لترث شيئاً الا اذا لم يكن للوالد ذرية من البنين . أما عرب الجاهلية فقد كانت المرأة تعتبر عندهم من سقط المتاع، وكانت جزءاً لا يتجزأ من ثروة أبيها او زوجها ، وكانت أرامل الرجل يصرن إرثاً لابنه او بناته كأي جزء آخر من التركة ، لذلك حرم الاسلام بتاتاً نكاح المقت ، وهو اقتران المرأة بابن بعلها ونحو ذلك . وقد وصل شأن انحطاط المرأة عند عرب الجاهلية الى وأدهم بناتهم وهن على قيد الحياة ، فحرم الاسلام هذه العادة ، وكانت منتشرة بين عرب قريش وقبائل كندة . واعتبرها من قبل الظلم والاعتساف، وكان العرب يعملون بها ، اذ يقدمون بناتهم قرباناً للآلهة اقتداء ببعض الأمم. وكان مقام المرأة منحطاً في الهيئة الاجتماعية في دولتي الفرس والبيزنطيين ، وقد حمل المتعصبون المتحمسون على المرأة حملة شعواء ، وهم الذين صاروا القديسين فيما بعد لدى العالم المسيحي فقالوا : انها مثار الشرور ، ونسوا ان الشرور التي نسبوها الى المرأة ليست إلا نتيجة تضليل أفكارهم . في ذلك الحين حين سقطت الهيئة الاجتماعية في حمأة الرذائل من جميع الجهات وارتفعت الأصوات مستغيثة بأن التجارب برهنت على فساد كل النظم والشرائع القديمة ثم ظهر محمد صلى الله عليه وسلم بتعاليمه للملأ الأعلى داعياً للخير وهو يقول : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) .

كرم الله مقام المرأة بصفتها طاهرة نقية وزوجة صالحة ، وقد حرمت القوانين الاسلامية بتاتاً عادة الزواج المشروط ، وخول الاسلام المرأة حقوقاً لم تكن لها من قبل ، وأكسبها مزايا لا تعرف قيمتها حق المعرفة إلا بعد زمن طويل ، فقد ساوت الشريعة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية والأعمال . ونهت عن تعدد الزوجات ، اذ حددت عددهن ، وقضت على

على الرجال بالمساواة التامة بينهن « **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة** » « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** » .

فالعدل هنا هو العدل التام ، وما ورد في القرآن في هذا الصدد انما يقصد به النهي عن هذه العادة[1].

●

أما بالنسبة لتعدد الزوجات فقد كانت عادة تعدد الزوجات منتشرة في جميع الأمم الشرقية القديمة . فان ممارستها بواسطة الملوك والأمراء الذين يقدسهم الناس جعلها أمراً مقدساً في نظر الشعوب ، وقد ظلت هذه العادة منتشرة بين الهندوس منذ العصور الخالية . وكان للرجل مطلق الحرية في أن يتزوج بأي عدد من النساء، وكان تعدد الزوجات شائعاً عند الاسرائيليين قبل عصر موسى . وان محمداً قد جاء وتعدد الزوجات منتشر ليس بين قومه فقط بل كان منتشراً أيضاً بين الأمم المجاورة لهم حيث كانت هـــذه العادة شر آفات الهيئة الاجتماعية .

نعم ان قوانين الدولة المسيحية حاولت ملاشاة ذلك الشر ، ولكنها لم تنجح في ذلك . وظل تعدد الزوجات معمولاً به بدون واق منه . وكانت النساء التعسات اللاتي كان ذلك من سوء حظهن، وفي إيران لم توجد قاعدة مرعية في قوانينهم المقدسة تحدد تعدد الزوجات اللاتي يحق للرجل التمتع بهن . فقد كانوا ينغمسون في حمأة اتخاذ الخليلات . وعلاوة على شيوع عادة تعدد

---

(١) سيد أمير علي : المرأة في الاسلام .

الزوجات عند العرب واليهود الأقدمين . فقد جرت عليهم عادة أخرى : هي الزواج المؤقت فأفضت الى الفوضى الاخلاقية وانتشار الفساد[1] .

نعم لقد جاء الاسلام ولا حدّ لتعدد الزوجات فحدد هذا التعدد وجعله في أربع ، ثم وضع له قاعدة صعبة تحول دون التعدد جملة . **« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »** .

---

(١) المصدر السابق .

(٤)

ان أعظم معطيات الاسلام في مقارنات الاديان هو القضاء على الاباحية والرهبانية جميعاً فقد كانت استباحة المحرمات والدعوة الى شيوعية النساء والاموال وإباحة نكاح البنات وغيرها مما يدعو اليه كثير من الملل والنحل وتفسيرات الاديان . وأحل مزدك شيوعية النساء والمال ، فاعتنق مذهبه آلاف النســـاء إرضاء لشهواتهن ، وقامت مجتمعات على الإفراط في اللذات واللهو الخبيث وخاصة حضارات فارس واليونان والهند والرومان .

وفي نفس الوقت قامت تفسيرات لبعض الاديان على قمع الشهوات وتجريد النفس وزجرها عن كل رغبة من الرغبات الطبيعية القائمة في الكيان البشري، ومنها أديان لم تكن لها عقيدة في الإله . كالبوذية والبرهمية . ومنها أديان سماوية انحرفت عن غايتها ، وقد اتسمت هذه الدعوات بالسلبية وحطمت المجتمعات التي عاشت فيها حين دعت الى قتل الرغبات الطبيعية في الكيان الانساني ، وأنكرت ما في الحياة من زينة ومسرة ، وقالت بأنه لا خير في الجسد لأنه محل العاهات وانه لا قيمة للأفراح والثروة والجاه والملك، ودعت الى قضاء الايام في استعجال الموت تحت الشمس المحرقة ، وفي الزهد عن ملاذ الدنيا . وترك العمل رغبة في استعجال الفناء .

وقام في أثينا وأوربا والهند والصين وافريقيا واستراليا قبل الاســـلام

ما يسمى بالبغاء المقدس حيث كان مفروضاً على الفتاة ان تقدم عذارتها الى الإله ، وان تبغي مرة في الهيكل لتجمع مبلغاً من المال فتقدمه الى الهيكل وتخرج ، ويحدث هيروديت ان الجميلات لم يكن يُطِلْنَ الإقامة ، ولكن الفتاة الكئيبة المنظر كانت مضطرة للبقاء سنوات لجمع المال . وكان هناك بغاء الضيافة : فاذا جاء ضيف كان على صاحب الدار ان يقـــدم له أخته و زوجته او ابنته او خادمته ، هكذا كانت الصورة مظلمة قاسية الظلمة ، حافلة بالشر والإثم ، وثمة مقارنات تعتمدها بعض المراجع الغربية يمكن ان نلقي الضوء .

يقول معجم الفلسفة : ان القرآن يختلف عن التوراة في انه لا يجعل ضعف المرأة عقاباً إلهياً . كما ورد في سفر التكوين (٣ – ١٦) ومن الخلط ان ننسب الى شارع عظيم كمحمد ، مثل تلك المعاملة المنكرة للنساء .

والحقيقة هي ان القرآن يقول « **فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** »

ويقول بول دي ركلا : الإسلام هو الدين الوحيد (بين جميع الأديان) الذي أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب الى الفسق والفجور ، ويكفيه فخراً انه قدس الانسال وعظمها ليرغب الرجل في الزواج ويغرض عن الزنا المجرم شرعاً وتشريعاً ، وان الاسلام قد حلّ بعقلية عادلة عالية أغلب المسائل الاجتماعية التي لم تزل للآن تشغـــل مشترعي الغرب بتعقيداتها .

ويقول واصف غالي : ان كثيراً من رجال الاديان الاخرى، وكان أحدهم (سان بونا فتيور) يقول لتلاميذه : اذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً . بل ولا كائناً وحشياً . انما الذي ترون هو الشيطان بذاته ، والذي تسمعون هو صفير الثعبان .

« أما محمد » فهو يعدّ بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين ، ان لم يكن اكبرهم فقد كان بهن رحيماً وعليهن حليماً ، وكان ليّن الجانب كثير العطف عليهن ، عظيم الاحترام والتكريم لهن . ولم يكن ذلك خاصاً بزوجاته ، بل وذلك كان شأنه مع جميع النساء على السواء .

والحق ان نظرة واحدة الى الامم في اختيار المرأة تكشف عن مدى عمق مفهوم الاسلام وأصالته فقد كان كسرى اذا تزوج اختار المال وكان قيصر اذا تزوج اختار الجمال ، وكانت الجاهلية تختار النسب . أما الاسلام فقد اختار الدين : (تنكح المرأة لمالها او جمالها او جسمها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

واذا كان الاسلام قد أعطى كلا من الرجل والمرأة هذا المنهج الكريم ، وأباح للرجل الحرية في الطلاق والتعدد وعقد الزواج فان ذلك يفسر – على حد قول العلامة محمد أسد – السبب الذي من أجله تعتبر الشريعة الاسلامية « الزنا » من أقبح الآثام ، ذلك ان تجاه هذا التسامح وهذه الحرية لا يمكن ان يكون هناك إطلاقاً أي عذر للوقوع في حبائل العاطفة او الشهوة » .

•

وكان للاسلام في تكريم الانسان : الرجل والمرأة على حد سواء موقف آخر غاية في السماحة والحسم ذلك موقفه من الخمر .

يقول محمد أسد : ان انفراد الاسلام بتحريم الخمور : مزية لا تجدها في كتب الديانات الاخرى ، بل ربما تجد في بعضها تشجيعاً على الخمر ، كقول القديس بولس لتلميذ له : خذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك ، كما تجد فيها حادثة تحويل الأواني المملوءة ماء الى خمر ، فلم يكن يبلغ المسلمين تحريم الله للخمر حتى أريقت أدنانها وأكوابها فسالت بها الشوارع أنهاراً .

ويقول هنري دي كاستري : ان أحدّ سـلاح يستأصل به المسلمون ، وأمضى سيف يقتلون به هو الخمر ، وقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا ان يتجرعوه فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوه لأصبحوا أذلاء لنا ، كتلك القبيلة التي شربت خمرنا وتحملت اذلالنا . وان الواجب على المسلمين أن يحتفظوا بما حظرتهم الشريعـة عليهم من تعاطي المسكرات . فان في هذا المنع قوتهم ، وان هذه القوى كانت فيما مضى عظمة الاسلام لم تندثر ، بل ان بقاياها آخذة بالمحافظة على المدنية الاسلامية .

●

ولقد عرفت أوربا من بعد كيف كرم الاسـلام المرأة ورفع شأنها في الأدب العربي . وكيف عرف الناس في جميع الأجناس لأول مرة بعد الاسلام الحب الطاهر ، ولم يكونوا يعرفونه قبلا[1] والشعر الجاهلي لم يصور لنا الحب إلا لهفة على تلك المرأة والاستمتاع الحسي بها ، فلما ظهرت العقيدة الاسلامية ، نزهوا المرأة عن ان تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة . وظهر الحب العذري وتخطى الحدود ، وانتقل الى أوربا ، وكان كما قص بعض نقاد الغرب الشرفاء : أهم عامل في تهذيب النفوس وتهيئة السبل للانتقال بالبشرية من العصر الوسيط الى العصر الحديث . والعرب منذ فجر الاسلام لم يعرفوا نظام الحريم ، ولم تحجب المرأة وجهها بالنقاب إلا نادراً ولم تتوار خلف جـدران منزلها ، كانت تحصل على ما يحصل عليه الرجال من علم ، وعرفت قبل المرأة الاوربية كيف تتميز بميزات معنوية .

يقول بيرونكس في كتابه (القصة في سبعة قرون) لقـد غفلت المرأة الاوربية عن حقيقة لو فطنت اليها "لتَهَنْهَت" من كبريائها ، فهي لم تبتدع

---

(١) محمد مفيد الشوباشي : رحلة الادب العربي الى اوربا .

أسباب رقتها ولكنها ورثتها عن المرأة العربية . ومن الأخطاء الشائعة نسبة الحب الطاهر المنزه عن النزوات الجسدية الى أفلاطون . ومصدر الخلط هو استهتار أفلاطون بازدراء ماديات الحياة . وقد يخطر بالبال في بعث الحب الطاهر الذي عبر عنه شعراء (التروبادور) انه يرجـــع الى المسيحية ولكن تعاليم الدين المسيحي لم تغير في واقع الأمر شيئاً من التقاليد الهمجية والأخلاق البربرية الوثنية التي سيطرت على أمراء أوربا وسراتها قبل اتصالهم بالعرب ، فقد اضطرت الكنيسة الى التغاضي عن ذلك ، والكنيسة كانت واقعة تحت سيطرة الفكر الإغريقي ، ومن المعروف أن فريقاً من قساوستها كان يتعصب لأفلاطون . وفريقاً آخر كان يتعصب لأرسطو فطغت معتقـــدات هذين الفيلسوفين وتعاليمها على معتقدات الكنيسة وتعاليمها ، وكان أغلب المشتغلين بالأدب من رجال الكنيسة . ولكنهم ظلوا متأثرين بالفكر الإغريقي مقتصرين على الكتابة باللغة اللاتينية .

ويقول روبير بريفو : ان فلسفة الفضيلة : فلسفة الحب التي طال ارتباطها بالشعر العاطفي المقتبس من الاندلس ، والتي سادت دوائر الحب في بروفانس قد استمدت من الاسلام أصولها . والشعراء التروبادور المتتلمذون على الشعراء العرب لم يحيدوا عن استغلال الفلسفة الصوفية التي لم يكن في وسعهم الا ان يستعينوا بمذاهب الطهر والعفة . وكذلك حرصوا على ان يستمدوا العواطف التي طبعها العرب بالطهر من الشعر الأندلسي القادر على تزويد فنهم بأناقة خاصة واذا سقطت شوائب شعر المديح المتصل بخلق الممدوح ، كشفنا عن عالم من نواحي الخير في النفس البشرية يسلط الضوء على سجاياها ، ويحلل نوازعها الطيبة ، وان قصة عنترة هي أول صيحة يطلقها الفن الانساني ضد العبودية والتفرقة العنصرية .

والمرأة العربية تتصف في أغلب القصص العربية بالوفاء وتتولد محنتها

عادة من رقة إحساسها ، وينشب الصراع في نفسها بين عاطفتين كلتاهما نبيلة فان المرأة الإغريقية تتصف بالغدر في أغلب مآسي الإغريق وتستسلم للرذيلة دون أية مقاومة ، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط النزوات . فها هي ذي (هلينية) تخون زوجها في قصة (طروادة) وتبيد شعوباً بأسرها وتدمر بلاداً عن آخرها .

(٥)

ان انكار الاسلام للرهبانية هو جزء من رسالته الى تحــــرير الانسان من العبودية وتمدين البشرية بعد ان ظلت محجوزة طويلاً وراء أســــوار الظلم والقسوة والحرمان ، متأرجحة بين (الاباحية) التي فرضتها اليهودية التلمودية وبين (الرهبانية) التي جاءت بعــدها . والرهبانية (Monastieism) نظام خاص اتبعته جماعات دينية مراعية فيه شرائط الفقر والعزوبة والطاعة العمياء . والانقطاع عن الدنيا والأخذ بقواعد النسك . وقد عرفت الرهبانية قبل المسيحية في الهند وفي أقاليم آسيوية أخرى . وقد عرف اليهود هــذا النظام قبل العهد المسيحي . ثم ظهر ثانية في المسيحية عندما امتنع الرجال والنساء عن الزواج وأكل اللحوم ، ووقفوا أعمارهم على ضروب من العبادات وقد بدأت دعوتهم في مصر في منتصف القرن الثالث . وانتشرت في غربي أوربا في عهد القديس (أسناثيوس) ثم القديس (بندكتوس) الذي وطد دعائم هذا النظام في الغرب .

وقد أورد المؤرخون انه في عام ٣٥٦ للميلاد كان في أحد الأديرة عشرة آلاف راهب وعشرة آلاف راهبة . وقد أشار (جوليزليروي) في بحث له عن الرهبانية في الشرق : ان الكنيسة القبطية تأثرت بعقائد قدماء المصريين، ولما عرف المسيحيون ان الجسد زائل ، والروح باقٍ ، احتقروا متاع الدنيا

واعتبروه عيباً يجب الخلاص منه حتى لا يقف حجر عثرة في طريقهم للخلود، وهذا يفسر ترك الكثيرين لعالمنا هذا ورحيلهم الى الصحراء حيث بدأوا حياة جديدة في مقابر قدماء المصريين وحولوها الى خلايا للرهبنة .

ويقول الأستاذ ليكي : مؤلف كتاب « تاريخ أخلاق أوربا » لقد زاد الرهبان زيادة عظيمة وعظم شأنهم واستفحل أمرهم ، واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس حتى روى المؤرخون انه كان يجتمع أيام عيد الفصح خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب .

ولقد كان تعذيب الجسد أخطر أعمال الرهبانية . فمنهم من يقف على قدم واحد ثلاث سنين . ومنهم من يحمل نحو قنطار من حديد ، وكانوا لا يلبسون وإنما ينشرون شعرهم الطويل ، ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، ويسكنون في مغارات السباع ، والآبار النازحة والمقابر ، ويأكلون الكلأ والخنافس ، ويعدون طهارة الجسم منافية لبقاء الروح ، ويتأثمون من غسل الأعضاء ، وكان أتقاهم هو أوغلهم في النجاسات والدنس ، ومنهم من لم يمس الماء جلده طوال عمره . ومنهم من لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة . وكانت نتيجة الرهبانية انحلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل عادت فاستحالت عيوباً ورذائل ، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها ، وكان من نتائجها ان تزلزلت دعائم الحياة ، ويقول السيد أبو الحسن الندوي معلقاً : وقد عجزت هذه الرهبانية الغالية ان تعدل شرّه المادية الاوربية او تكبح جماحها وغلواءها : لقد حاولت النصرانية الرومية تغيير الفطرة وإزالتها . وحملت النفوس ما لا طاقة لها به ، فرغبت فيه كردّ فعل ضد المادية الطاغية واحتملته كارهة ثم تخلصت

منه وثارت عليه ، ولم تقدر النصرانية بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع ان تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم . فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً الى جنب بل الأصح ان الرهبانية كانت معتزلة في الصحارى والفلوات لا سلطان لها على الحياة ، وكانت حركة الخلاعة والإباحة زاخرة طامة في المدن والحواضر » .

وقد كان للرهبانية أثر خطير على المجتمع نفسه . فقد هجرت هذه الجموع الضخمة زوجاتها وأولادها وتركتهم في شظف من العيش فخلفوا « الأمهات ثكالى والأزواج أيامى ، والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ويتوجهون قاصدين الصحراء ، وكانوا يفرون من ظل النساء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون ان مصادفتهن ، في الطريق والتحدث اليهن ولو كن أمهات وأزواجاً ، أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية[1] . ومن ناحية أخرى كانت الأديرة مثلاً غاية في السوء لكل خلق كريم . تقول دائرة معارف لاروس ص ٨٩٨ ج ٣ : ان الرهبان لم يراعوا الرهبنة حق الرعاية .

وفي القرن الحادي عشر كان الرهبان الشرقيون الذين أخذوا على أنفسهم أن يعيشوا بلا زواج لا يجسرون ان يدخلوا الى أديرتهم الإناث من الحيوانات بسبب ما يحتمل ان ينتج من ذلك من الخطر على أرواحهم ، ومع ذلك فلا يخفى اليوم انهم لم يقوموا بما تعهدوا به من العفاف بين رجال الدين من الجنسين .

---

(١) ليكي نقلاً عن ابي الحسن الندوي (ماذا خسر العالم) .

فقد قال (دوبرتو) بعد ان زار الأديرة في النمسا وفي الممالك الاخرى التابعة للملك فردنان الأول : انه رأى مائة وعشرين ديراً تحتوي على ٤٣٠ راهباً و ١٦٠ راهبة و ١٩٩ سرية و ٥٥ امرأة متزوجة و٤٤٣ طفلا . وقال انه يخشى ان يتكلم عن راهبات زمانه تفادياً من ان يظن انه يتكلم بإسهاب ومجون . ونددد بالأديرة ، وحمل حملة شديدة الطعن جداً على أديرة زمانه ، وتاريخ دير (دورياك) الذي تكلم عنه المسيو رولوز في تاريخ باريس ١٨٢٣ يعطي فكرة عن الأديرة الفرنسية في القرن السادس عشر .

ثم قالت دائرة المعارف : « ليست هذه الأمور من الشؤون المنعزلة ولا الخاصة بزمن دون زمن . ففي الأزمنة القديمة لام القديس (سريابين) والقديس (بازيل) عذارى زمانهما اللاتي وقفن حياتهن على الله على ما يظهر من عدم عفافهن .

ورأى (جان كريزستوم) : انه لا يكفي قتل الراهبة التي تخون عفافها. بل رأى ان تقطع الى نصفين ، او تدفن حية مع شريكها في الإثم .

ولقد أحسنت بعض الطوائف المسيحية كالبروتستانت وغيرها بإبطال عادة الرهبنة بتاتاً والسماح لرجال الدين بالزواج ، فان الزواج لا يعتبر مبعداً عن الله بعد ما ثبت ان أكثر المرسلين كانوا ذوي حاجات . ولم يمنعهم زواجهم من طاعة الله[1] .

●

---

(١) من بحث في السياسة الاسبوعية (نوفمبر سنة ١٩٢٨) .

أما الاسلام فقط ربط بين الحياة الدنيا وبين الآخرة ، وأباح للانسان طيبات الدنيا من زواج وزينة ومتاع وطعام من مصادر الحل ووفق ضوابطه التي أريد بها تكريم الانسان وحمايته ودعم بنائه النفسي والاجتماعي. ولم يجعل الحياة الدنيا قاصرة على العمل للآخرة .

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق »
« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »
« يا أيها الذين امنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » .

وفي هذا المعنى يقول الإمام العامري في الإعلام في مناقب الأعلام . لو أراد الله تعالى لعباده حملهم على إهلاك أنفسهم لما علمهم صنعة لبوس لتحصنهم من بأسهم . ولما جعل لهم سرابيل تقيهم الحر . ولما هداهم لصنوف العقاقير النباتية ليستشفوا بها من الآلام المعترية » ان أحق الأديان بطول البقاء ما وجدت أحواله متوسطة بين الشدة واللين ليجد كل من ذوي الطبائع المختلفة ما يصلح به حاله في معاده ومعاشه ، ويستجمع له فيه خير دنياه وآخرته . « وكل دين لم يوجد على هذه الصفة ، بل أسس على مثال يعود بهلاك الحرث والنسل فمن المحال ان يسمى ديناً فاضلا . ذلك مثل ما تمسك به رهبانية النصارى من هجران المناكح والانفراد في الصوامع ، وترك طيبات الرزق ، وما يتعاطاه الصديقون من الثنوية من حمل الأنفس على الوجاء والخصاء وملازمة المسكن والراحة دون غيرها من حركات العمارة وما انتهجه نساك الهند من إحراق الأجساد والتردي من الجبال وترك عمارة الارض » .

وهكذا وقف الاسلام من البشرية موقف الكرامة والعزة والسماحة .

فاذا تحدث عن الرهبانية كانت كلمته مثلاً من أمثلة القوة وبناء الشخصية . « رهبانية أمتي الجهاد » ولقد يحاول بعض المتعصبين ان يرسموا للرهبانية هالة مضللة في محاولة لإعلائها . وهي محاولة ضد الفطرة والعقل والعلم .

يقول عمر الامري : لم ينقض رفض الاسلام الرهبانية شيئاً من سمو معتنقيه لأن إيجابيته تنزه الله عن أن يخلق شيئاً ويأمر بخنقه وإزهاقه . إنما يرسم له المسالك المشروعة التي يلبيها تلبية سليمة كريمة . حيث يشعر الانسان في ظل الإسلام بانفتاحه الحضاري على الكون وتمايشه معه في كل مرافق حياته الخاصة والعامة . والحق ان يقال ان المسيحية أدخلت الى أوربا الاديرة . وان الوثنية اليونانية أخرجتهم من مفاهيم الإسلام .

واذا كانت رهبانية الاسلام الجهاد فقد حفظ التاريخ للمسلمين صفحة باهرة في بناء الفروسية ودفعها الى العالم كله منهجاً من أعظم مناهج النبل والوفاء .

يقول سان هيلد : ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها في القرون الوسطى في تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم . والرفعة بها الى حيث الانسانية والنبالة ، وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً .

ويقول (اتيان دينيه) هذه الظاهرة على نحو آخر فيقول : لقد حفظ لنا التاريخ في سجلاته عن فروسية العرب وروحها العالية جميع

الأدلة العظيمة الموشاة بالرقة والتهذيب . لقد هذب الاســـلام فروسية العرب وطهّرَها وأدخل مبادئها الى اوربا . ولم يوحِ الاسلام بالرهبنة بل حرمها .

ان الفروسية ونبل قصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان. ولكنها كانت معروفة عند العرب وهذبها الاسلام وطهرها .

(٦)

من أعظم ما دعا اليه الاسلام من أجل تمدين البشرية وتحرير الانسان : « الإخاء الإنساني » وليس هناك أدنى مبالغة في ان أوربا والعالم كله لم يعرف الاخوة الانسانية الا بعد أن حملها له الإسلام .

يقول عبد الكريم جرمانوس : ان أوربا لم تعرف فكرة الإخاء بين الناس إلا بعد الثورة الفرنسية بينما دعا الاسلام اليها وطبقها المسلمون قبل ثورة فرنسا بنحو ألف عام : لقد كانت فكرة المساواة والشورى من ابتكار القرآن ، عرفتها أوربا في القرن السابع عشر بينما هي من حقائق الاســـلام وأصوله منذ نشأته . ولم يعـــرف حكام أوربا الاشتراكية الا في السنوات الحديثة . بينما سبقهم الاسلام الى المساواة بين المسلمين وأهل الكتاب (يهوداً ومسيحيين وغيرهم) فأقام بذلك نظام العدل الاجتماعي واستمتع في ظله كافة الناس بكل الحقوق السياسية . ومن الحق ان دعوة الاسلام : « كرمت الانسان وحققت انسانيته وأوجدت له طريقاً جديدة عرف بها النور الذي أضاء الحياة »[١]. وما تزال فكرة الاخوة الاسلامية الى اليوم أملاً يشغل قلوب المصلحين ويأخذ بالبابهم ، وبعد كل المحاولات التي يجريها العالم اليوم ،

---

(١) دكتور عبد الرحمن علي الحجي : الحضارة الاسلامية .

وتفشل في إقامة الاخوة العالمية ما زال الاســـلام هو المرجى لتحقيق ذلك .

يقول هاملتون جب في كتابه : (وجهة الاسلام) ولكن الاسلام ما زال في قدرته ان يقدم للانسانية خدمة جليلة ، فليس هناك أي هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة . فالجامعة الاسلامية العظمى في افريقيا والهنـــد وأندونسيا ، بل وتلك الجامعة الاسلامية الصغيرة في الصين او في اليابان لتبين كلها ان «الاسلام» ما زال له القدرة على أن يسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فاذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء الى الاســلام لحسم النزاع .

ولا ريب ان الاخوة الاسلامية العالمية انما تقوم تحت القانون الاخلاقي العام[1] فهي اخوة عالمية ليست مبنية على الثقافات ، بل على القانون الاسلامي الموحد .

●

والحق ان «الاسلام» حين جاء بالإخاء الانساني انما كان ذلك رداً حاسماً على «العنصرية» التي كانت طابع البشرية كلها ومنطق حياتها خلال ذلك العصر الطويل الذي انحرفت فيه مفاهيم التوراة وتحولت من سماحة الإخاء الى إعلاء العرق والجنس والدم والشعب المختار . فهي رسالتهم الى البشر أجمـــع . والمعروف ان التوراة صهرت الحقائق التاريخية في قالب يؤكد العنصرية

(١) كما وصفها الدكتور الفاروقي .. بحثه عن الحنيفية .

اما القرآن فقدمها في قالب الإخاء الانساني ومنها أصبحت التــــوراة دعوة عنصرية أما الاسلام فهو دعوة الى الإخاء الانساني .

وقد جاء الاسلام ماحياً التفاخر بالأنساب ، داعياً الى العودة الى وحدة الجنس البشري الأولى : « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى » أما الغرب فقد عجز تماماً عن فهم الإخاء الانساني لأنه استمد مفاهيمه من التلمود وفلسفة اليونان . فقد وجد اليهودية تقول بإعلاء الدم والجنس . ووجد أرسطو يبرر طموح الإغريق لسيادة العالم وينادي بأن جماعات معينة تولد حرة بالطبيعة وأخرى تولد لكي تكون عبيداً وكان الفرس يعتقدون هذا الاعتقاد . أما في العصر الحديث فان صوت العنصرية قد ارتفع وساد ، وجاء الاستعمار فحوّل نظام العبودية الى نظام مقدس . وفي تأييد هذا النظام والدفاع عنــه ابتكر المفكرون وعلماء الاجتماع اسطورة شبه علمية لتبرير العنصرية ثم تبين انه ليس هناك أساس علمي لتصنيف الأجناس تصنيفاً عاماً على أساس من العنصرية .

وهبّت ريح التعصب الجنسي على أوربا بكراهية لكل الاجناس الملونة وارتفعت الدعوة الى عظمة الجنس الجرماني وتفوق الآرية والنوع الانجلوسكوني والجنس اليهودي .

وبقي الاسلام وحده صاحب الدعوة الحقة الى الإخاء الانساني . يقول أرنولد توينبي : لقد اتصل المسلمون البيض مع الزنوج الأفارقة ومع الشعوب الداكنة اللون في الهند منذ البداية . واستمروا في تعزيز ذلك الاتصال وحتى اليوم فان البيض والسود يندمجون تحت راية الاسلام عبر القارة الافريقية والهندية طولاً وعرضاً . وقد برهن المسلمون البيض عن تحررهم من أي

شعور عنصري بأقوى البراهين والحجج حيث انهم قد زوجوا بناتهم بالمسلمين السود .

ويقول برنارد لويس : كل المسلمين البيض كانوا متحررين من عقدة التحدي اللوني ضد الأجناس غير البيضاء لا يقسمون الناس الى أبيض وأسود بل الى مؤمنين وكفار ، كانوا متحررين كل التحرر من أي شعور بالتحيز في اللون موجه ضد جيرانهم الأكثر سمرة في الجنوب .

ولقد وضع الاسلام التقوى كقاعدة أساسية بديلة للون والجنس، والقرآن كان ضد القبلية والعنصرية وأحل العقيدة بديلاً من العنصرية ، ولقد قال المقوقس لبعض المسلمين : كيف ترضون ان يتزعمكم رجل أسود . قالوا له رغم انه أسود فهو أفضلنا منزلة وذكاء وحكمة « لأن السواد غير مزدرى بيننا » . وما يزال هذا المعنى واضحاً في مجتمع الاسلام حتى ان ماكوم اكس الزنجي الافريقي المقيم في الولايات المتحدة يقول في مذكراته : لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج من كل أقطار الدنيا ، كانوا من كل الألوان، من الشقر زرق العيون ، الى الأفارقة سود البشرة ، ولكننا جميعاً كنا نشارك في نفس الطقوس مبدين روح الوحدة والاخوة التي ساقتني تجاربي في أمريكا الى اعتقاد انها لن يمكن ان توجد بين البيض وغير البيض .

« وفي مجتمع الاسلام في الحج : حيث لا يشعر أي أحد بأي تمييز ، لا توجد عقدة الاستعلاء ولا عقدة النقص . فان الذين هم من جنس واحد يتجاذبون الى بعضهم إرادياً وطبيعياً » .

●

ولم يقف الاسلام عند حد طرح فكرة الاخوة العالمية الانسانية كمذهب فكر . ولكنه طبقها كمنهج حياة فان الفاتحين المسلمين ما لبثوا ان اندمجوا في الأمم التي فتحوها وربطوا بينهم وبين جميع العناصر والأجناس برباط المصاهرة والاندماج ، وجعلوا وحدة الفكر والعقيدة والدين ومنهج الحياة أساس الوحدة الحقيقية .

(٧)

منح الاسلام البشرية المنهج العلمي التجريبي ومنهج المعرفة المتكامل القائم على الترابط بين الروح والجسد ، ولقد نزل الاسلام محرراً للعقـــل مكرماً للانسان وسرعان ما انتقلت مفاهيمه شرقاً وغرباً حتى وصلت الى أوربا التي لم تعتنقه ديناً ولكنها تأثرت به فكراً وعلماً وثقافة ومنهجاً غيّر كثيراً من مفاهيمها وطبيعة حياتها ونظام مجتمعها .

لقد حرر الاسلام الفكر الاوربي من وثنية الفكر الاغريقي ومن عبودية المجتمع الروماني ومن تفسيرات الأديان التي لا يقبلها العقل او تقرها الفطرة . وهو الذي حرر العقل الاوربي وأخرجه من نفوذ الكنيسة وأسرارها . ومن كل ما يتصل بالأساطير والسحر والخرافة .

وهو الذي أعطى البشرية «التجزئة» وكان الفكر اليوناني قاصراً على «القياس» وأول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

ولا ريب ان نظريات الحرية والتقدم والعـدل الاجتماعي تبلورت من بعد أن استمدت أسسها من الاسلام. ثم تشكلت من بعد وفق طوابع ومجتمعات الغرب . وأبرز ما قدمه الاسلام : أخلاقية الحيــاة والاجتماع والسياسة ، ومفهوم الرحمة والتسامح والعطف مع أهل الكتاب والعدالة مع المسلمين .

ولقد كانت دعوة الاســـلام الى تمدين البشرية بتكريم الانسان وإلغاء العبودية . وتحرير الفكر وفي نفس الوقت كانت دعوته الى العلم مصدراً لبناء الحضارة . ولقد جعل الاسلام القيم الخلقية عماد بناء الحضارات ، فاذا ما انهارت هذه القيم انهارت الحضارة . وقد جعل الصدق والمساواة والتواصي بالحق وتطبيق العدل على المسلم وغير المسلم والصديق والعدو عماد الحضارة . وأي حضارة بغير مدنية مستمدة من الإيمان بالله والعدل الاجتماعي والإخاء الانساني هي حضارة مادية معرضة للسقوط والانهيار ، وان سقوط الاخلاق هو أول أسباب سقوط الحضارات . «**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القـــول فدمرناها تدميراً** » وبذلك فان أعظم ما أعطاه الاسلام لأوربا وللبشرية :

= المدنية في تحرير الانسان وتمدين البشرية = الحضارة في بناء المنهج التجريبي

ولا ريب ان ثورة اوربا على الكنيسة انما كان مصدرها هو اتصالها بالحضارة الاسلامية في الأندلس وتأثرها بمظاهر الحرية الفكرية والاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون « ولقد لبثت أوربا ثلاثمائة سنة تقتبس من الإسلام : اللغة والعلوم[١]» . ويبدو أثر الاسلام واضحاً في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر ، وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة . والمعروف ان رجال الدين قد[٢] دسّوا في كتبهم الدينية المقدسة تعليقات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية ، لم تلبث ان تعارضت مع ترقي العلم . فقد جعلوا الدين في وجه العلم الحديث بمعانيه الجديدة المعارضة لما دوّنوه . ومن ثم نشأت أزمة الخلاف بين الدين والعلم . ولم يلبث الدين ان انهزم في هذه القضية .

---

(١) من بحث لاتيان ديليه .

(٢) ماذا خسر المسلمون للندوي .

لقد اضطهدت الكنيسة العلم في وقت بدأ علماء الطبيعة والعلم يزيلون سلاسل التقليد الديني فزيفوا هذه النظريات الجغرافية وانتقدوها ، في صراحة تامة . وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية ، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون فاستحلوا دماءهم وأموالهم وأنشأوا محاكم التفتيش التي تعاقب أولئك الملحدين والزنادقة الذين هم منتشرون في المدن وفي البيوت فاجتهدت ان لا تدع في العالم النصراني عِرْقاً ينبض ضد الكنيسة وبثت عيونها في طول البلاد وأحصت على الناس الانفاس . وقد عاقبت هذه المحاكم ٣٠٠ ألف أحرق منهم اثنان وثلاثون ألفاً أحياء ، منهم العالم الطبيعي برونو وعوقب العالم الطبيعي جاليلو بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الارض حول الشمس . وليس أدل على مقاومة النصرانية للعلم من انها أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ، ثم ان نيوفيل بطريرك الاسكندرية أحرق باقي المكتبة ، وما من عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق دون فريق ونازع فيها فريق إلا سالت الدماء ، ولا يوجد في التاريخ ذكر للعلم بعد ظهور المسيحية . وبدأ النزاع بين العلم والدين في أوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في الاندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية . وأنشئت محاكم التفتيش وحرق الكودينال اكسمينس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربي بخط القلم . وقد رأت النصرانية ان علوم الأوائل خطر عليها فأحرقتها في كل مكان : مكتبة الاسكندرية عام ٣٩٠ الميلاد ، مكتبة القسطنطينية عام ٤٧٦ للميلاد . وعمل (لاون اللوزرياني) على إحراق ما بقي من الكتب ٧٤٠ ميلادية .

وكان في هيكل أبولون بمدينة روما مكتبة من أنفس الكتب في عهد أوغسطوس فأحرقت وحرم الناس منها وبقي نزر قليل من الكتب هي التي أحياها العرب والتي اعتصروا ما فيها من علوم اليونان فحرروها وصححوا أخطاءها وانطلقوا منها الى بناء المنهج التجريبي الذي أهداه الاسلام

للحضارة العالمية . « وكان الاتجاه الى المنهج التجريبي الذي يصطنع الملاحظة والتجربة في دراسة الظواهر الجزئية ، توطئة لوضع القوانين العامة التي تفسر الوقائع الكونية[1] .

ومن رواد هذا المنهج : جابر بن حيان والحسن بن الهيثم . وقد اهتم علماء المسلمين بنقد المصادر وتحليلها والإبانة عن أخطائها ومغالطاتها . وتحدثوا عن الملاحظة الحية وأنكروا دورها في دراسة الظواهر الطبيعية . وأوصوا بإجراء التجارب العلمية متى تيسر ذلك ، والصعود من الدراسة التجريبية للظواهر الجزئية الى وضع قوانين عامة تفسر هذه الظواهر . ومع تمكن المسلمين من وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر . فقد كانوا يديرون ذلك في إطار الإيمان بالله . ذلك ان حضارة الاسلام لم تقم على العلم وحده ، ولكنه العلم في إطار العقيدة ، وان قيم الاسلام لم تكن حائلة دون التقدم العلمي ، بل كانت على العكس من ذلك مصدراً من مصادرها . فقد جمع الاسلام بين حرية الفكر واستقامة الدين .

ولقد بلغ المسلمون في خطواتهم العلمية مدىً واسعاً . فقد استطاعوا تصحيح أخطاء ابقراط وجالينوس ، خطأ (ابن النفيس) جالينوس وقال ان التشريح يكذبه ، وصححوا أخطاء طب ابقراط وفلك بطليموس وصيدلية ديسفوريدس ، وفلسفة أرسطو نقدوا آثارها وفحصوا حقائقها في ضوء الملاحظة الحسية والتجربة العلمية .

وقد فطن[2] المسلمون قبل أن يفطن المحدثون الاوربيون الى عدة أمور :

---

(١) توفيق الطويل — العرب والعلم .

(٢) بتصرف عن بحث الدكتور توفيق الطويل .

أولا : الى قصور الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفرط صغرها ، او بعدها . فعوضوا قصور الحواس باختراع أجهزة وآلات تمد في قدرتها على الإدراك . (وكان ابن الهيثم يستعين في دراسة انتشار الضوء وانعكاساته بآلات يقوم بصنعها او يشرف على صنعها) .

كما خلف ابو القاسم الزهراوي مئات الرسوم لآلات تستخدم في الجراحة والتخدير وترك علماء المسلمين في الفلك مراصد مزودة بعشرات الرسوم لآلات وأجهزة .

ثانياً : الاهتداء الى التجربة العلمية ومعرفة دورها في البحث العلمي . فلم يكتفوا بمراقبة الظاهرة وتسجيل حالها ، بل تدخلوا في سيرها ليلاحظوا في ظروف هيؤوها بأنفسهم وأعدوها بإرادتهم . وسماها (جابر) : التدريب وسماها (ابن الهيثم) : الاعتبار .

ثالثاً : فطنوا فوق ذلك الى ان الغرض من الدراسات التجريبية هو وضع القوانين العامة التي تفسر الظواهر تفسيراً عملياً[1]. وبالجملة فقد قرر الاسلام دستور العلم : دعا الى عدم الانخداع بالأوهام او قبول الظن ، ودعا الى اعمال العقل وسؤال أهل الذكر وإنكار التقليد وحرية النظر . وقد أطلقت الدولة الاسلامية الحرية للعلم ، وكفلت لأهله الأمان بينما أدخلت أوربا العلماء في زمرة المارقين من الدين ، وقدمتهم لمحاكم التفتيش، وخاصة بالنسبة لنظرية دوران الارض التي كانت موضع أخذ وردّ بين علماء العرب ، ولا يعرف ان أحدهم أصابه ضير بسبب تأييده او معارضته لها[2] .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

ولقد كان العلماء في العالم الاسلامي موضع التقدير والتكريم . وكانت حرية الفكر تسمح بأن يقول كل باحث ما يشاء دون ان يتعرض لأي خطر ، ولقد ظل الحلاج (وهو رجل مجوسي الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالأسرار) دون ان يتعرض له حتى ضبط بينه وبين الجبائي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة فكان هو السبب الحقيقي في محاكمته .

وقد بلغ الخلفاء بالعلم والعلماء منزلة التقديس ، وسار الملوك المسلمون على سنن واحدة في نشر العلم والحث عليه وإعزاز أهله ، والبذل لهم ، وبناء المدارس وخزائن الكتب . وبلغوا في ذلك غاية ليس وراءها غاية[٣] .

ولا ريب أن العلم لم يرتق في أوربا إلا بفصل الدين عنه بينما العكس في الاسلام . فان رقي العلم كان مصدره الاسلام نفسه الذي دعا الى النظر في آفاق السماء والارض . واعتماد البرهان والدليل ، وقد سمي دستوره الكتاب وكانت أول آياته اقرأ وأقسم الله في إحدى سوره بالقلم وانه هو سبحانه الذي علم بالقلم .

●

لقد كانت أوربا خالية تماماً من العلم في فترة العصور الوسطى . يقول الدكتور توفيق الطويل : لا يعدو الحق من يقول ان العلوم الطبيعية

---

(١) عبد الوهاب عزام - (الرسالة ١٩٤٤) .

والفلسفية لا وجود لها في حياة اليهود منذ مطالع القرن الثاني حتى أواخر القرن الثالث عشر لميلاد المسيح إلا في بلاد الاسلام ، ففي ظل سماحة ورعاية خلفائه نبغ اليهود حتى بلغوا الذروة[1]. وان الحضارة في الأندلس قدمت للبشرية منجزات رائعة ، كان بالربض الشرقي من قرطبة (١٧٠ امرأة) كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . وكان في الأندلس أيام الحكم الثاني المستنصر سبعون مكتبة عامة[2] . وان في كل الاندلس لم يكن يوجد رجل أمي بينما لم يكن يعرف الكتابة والقراءة في أوربا كلها إلا الطبقة العليا من القسس[3] . كانت أوربا تذخر بالجهل بينما كانت الأندلس تحمل أمانة العلم . وكان شارلمان وغيره يحاولون ان يتعلموا كتابة أسمائهم[4] .

●

وعلى هذه الحقيقة يشهد كثيرون يقول فون كريمر : ان العقل العربي يبدو في ذروة نشاطه حين يكون في حقل المعرفة التجريبية ، يباشر دراسة في ضوء الملاحظة والاختبار ، فالعرب يبدون نشاطاً واجتهاداً يثيران الدهشة حين يقومون بملاحظات الظواهر وتمحيصها وجمعها وترتيب ما هدتهم اليه التجربة . ولما كانوا أصحاب ملاحظة دقيقة ،

---

(١) بحث الدكتور توفيق الطويل .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب .

(٣) دوزي .

(٤) مونكي : شمس الله .

وأهل تفكير مبدع أصيل ، حققوا في مجال الرياضيات والفلك نجاحات رائعــة .

•

ويقول سيديو : الحركة العلمية عند العرب تتميز بالانتقال من المعلوم الى المجهول والتحقيق الدقيق في ظواهر السماء . ورفض كل حقيقــة كونية لم تثبت إلا عن طريق الملاحظة الحسية .

ويصل بريفولت في كتابه : (Making of Hwnanitiy) الى الذروة حين يقرر : ليس ثمة ناحيــة واحدة من نواحي الازدهار الاوربي يمكن إرجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاســلامية بصورة قاطعة . فان هذه المؤثرات توجـــد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في تلك الطاقة التي تكون ما للعلم الحديث من قوة متميزة ثابتة . ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه لنا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل مدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا : « انه مدين لهــا بوجوده نفسه » . وهو نفس القول الذي يردده سيديو ويفصله جوستاف لوبون في قوله : كلما أمعنا في دراسة حضـــارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهر لنا ان العرب هم الذين فتحوا أوربا الحديثة مادة وعقلاً وأخلاقاً . وان التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير .

ومن هنا تقرر حقيقتان متشابكتان :

الأولى : انه لا علاقة مطلقاً بين حضارة اوربا الحديثة والمسيحية .

الثانية : ان التمدن الاسلامي هو في الحقيقة « التمدن الانساني » .

ويصدق في هذا قول العلامة مسمر : ان الغربي اذا صار عالماً ترك دينه بخلاف المسلم فانه لا يترك دينه الا اذا صار جاهلاً .

●

الفصل الرابع

بناء المجتمع والانسان

لا ريب ان معظم معطيات الاسلام هي بناء الانسان وتكريمه وإعزازه بتحرر عقله بالتوحيد ، وتحرير كيانه من العبودية ، ثم وضعه في مكانه الذي يجعله قوة قادرة على البناء والتعمير والمقاومة ، رابطاً بين واجب الانسان تجاه الله وواجبه تجاه نفسه وواجبه تجاه أخيه الانسان .

والاسلام لا يعتبر الانسان مجرد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي : الاستخلاف في الأرض .

يقول إقبال : «ان التوراة تلعن الارض بسبب معصية آدم بينما يبين القرآن ان الارض دار سكن للانسان ومصدر ربح له » فاذا انحط الانسان فليس بسبب خطيئة آدم ، وإنما بسبب الأعمال السيئة التي ارتكبها هو نفسه ، وكل طفل يولد على الطهر والحق ، وكل زيغ يزيغه بعد ذلك عن طريق الحق والاستقامة يرجع الى خطأ في تربيته . قال النبي ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة . ثم أبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ، ومصير الانسان حسب ما تقرره

أعماله . لأن كل فرد مسؤول عن مصيره ، فالاسلام يمنح البشر الحرية في ان يختار بين السير في طريق الاخــلاق او التراجع او النكوص . والانسان هو المخلوق الوحيد الذي وضع موضع الابتلاء بالأمانة : وهي حرية الإرادة او الاختيار ، والانسان هو الذي انفرد دون الكائنات بخاصيــة التفكير والجدل والمسؤولية الفردية والمسؤولية الاخلاقية ، ومواجهة الصراع بين الخير والشر ، والحق والباطل . وهي معركة متصلة طول حياته كلها .

وكانت دعوة الاسلام أساساً انما ترمي الى تحرير الانســان من شهوات النفس ومن عبودية الناس .

وقد بلغ الاسلام في تكريم الانسان حداً لم تعرفه من قبله المذاهب والدعوات ، فحرم قتل النفس ، وحرم التمثيل بالانسان عند قتله ، وجعل عقوبة الانسان بالقتل في جريمة واحدة هي : جريمة القتل العمد ، ومع ذلك فقد جعل لولي المقتول سلطاناً . فلا يسرف في القتــل ، بينما كانت عقوبة الاعدام في اوربا عند نزول الاســلام لأسباب كثيرة منها : الزنا والسرقة والكذب . وأعلن انه لا يجوز المثلة ولو بالكلب العقور . وجعــل نظرة التقدير للانسان من حيث هو انسان لا من حيث لونه او ثروته او جنسه فجعل الاسلام للانسان حرية اختيار عمله ، وحرية ارادته ، ومسؤوليته عن هذه الأعمال وما يترتب على الحرية والمسؤولية من جزاء . وجعل من حق كل انسان إبداء رأيه ومع حرص الاسلام على تحقيق المصلحة العامة للمجتمع فقد احتفظ لكل فرد بفرديته . ودعا الى المحافظة والتوازن بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد . ومعنى هذا ان الفرد ليس حراً في ان يفعل ما يشاء ، ولكن حريته تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين .

وأعظم ما أعطى الاسلام : التوازن بين المادة والروح . وحق الانسان في الحياة ونعيمها وفي تحقيق رغباته في الطعام والشراب والمرأة والمال ، فقد منحه هذا الحق وأحاطه بضوابط هي لمصلحة الانسان وكيانه وعقله وروحه .

وبذلك حرر الانسان من الاحساس بالحرمان او الصراع بين الرغبات والموانع. يقول محمد أسد : (ليوبولد فايس) في هذا المعنى : « تجد الاسلام وحده من بين الاديان يتيح للانسان ان يتمتع بحياة الدنيا الى أقصى حد من غير تضييع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة ، ليس في الاسلام خطيئة أصلية موروثة وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية . ان كل مسلم رهين بما كسب . والاسلام ينظر الى الحياة في هدوء واحترام . ولكنه لا يعبدها ، ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في نفسه ، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعية الأدبية في كل ما يعمل ،والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان تكون خلقية » .

وقد كان هذا التركيز من الاسلام على النفس الانسانية هو ما أهمل أشد الاهمال وكان موضع الازدراء بتأثير الكنيسة في العصور الوسطى « التي ذهبت في تضليل العقول مذهباً بعيداً فزعمت ان الانسان شرير خاطىء بالطبع ، وعلمت الانسان ان فيه نزعة من الشيطان . لقد عكست الكنيسة غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله[1] والاسلام في نفس الوقت هو الذي كشف للانسان عن الإجابة عن تساؤله الخطير : لماذا جئنا ، وإلى أين نذهب ، وما هي مهمتنا في الحياة . وأعطى في ذلك منهجاً كاملاً واضحاً لا يستطيع العقل البشري بوسائله المحدودة مهما تعددت محاولته ان يجد القدرة على ان يصل اليها .

ثم هو قد حرر الانسان من ذلك الاحساس الذي يستفيض في الفلسفات القديمة بالعراك بين النفس الانسانية وبين القدر . وكشف عن ان هذا العراك شيء وهمي ، وحرر الانسان من الخوف من الموت والمجهول ، وحرر الانسان من الدعوة الى كبت النوازع الجسدية ومقاومة رغائب الجسد والنفس ،

---

(١) من بحث في الرسالة سنة ١٩٣٧ .

وذلك بالانصراف عن الدنيا واعتزالها ، والعكوف على الزهادة والرهبانية ، وكشف عن ان ذلك معارض لطبيعة الحياة وللفطرة الانسانية ، ودعا الى ممارسة الحياة لا للانصراف عنها في إطار الضوابط والحدود الطبيعية . وأعلن ان الغرائز الجنسية ركبت في الانسان . ولا بد من ممارستها بعيداً عن الإفراط والتفريط . فالافراط يقهر العقل حتى يصرف همة الرجل الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيحرمه ذلك من ان يكون مقاتلاً في مواجهة خصومه او عاملاً في سبيل سلوك الآخرة . والتفريط يدفع الانسان الى اقتحام الفواحش ، وتحقيق الغاية عن غير طريقها الطبيعي . وبذلك حرر الاسلام مجتمعه من طابع الانهزامية او اليأس او الضعف او التمزق او التشاؤم الذي نراه في الفكر الاوربي نتيجة تلك الآثار . كما حرر مجتمعه في نفس الوقت من عبادة الشهوة وعبادة الأجسام وعبادة اللذات .

(٢)

ان تكريم الاسلام للانسان قد وضع في إطار غاية كبرى هي بنـــاء المجتمع ، وإذا كان الاسلام قد ركز على بناء الفرد فانما استهدف من ذلك بناء مجتمع متكامل قوامه "لبنات" قوية تمثل كل منها فرداً مؤمناً .

ولقد رسم القرآن للفرد المسلم المؤمن صورة الانســـان الممتاز بتربيته وتكوينه على طاعة الله والصلاة والصوم والزكاة، وفي منطلق الأمانة ورعاية العهد وقوة الخلق وسلامة التفكير ولقد انفرد الاسلام بأنه رعى الفرد وكرمه في إطار المجموعة فيما ركز على ضمير الفرد المسلم وحمله منفرداً مسؤولية عمله: **« ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل امرىء بما كسب رهين »** .

ثم وضع ذلك النموذج في إطار المجتمع : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم من بعض »** ولم يذهب الاسلام مذهب من أعطـــوا الفرد الاهتمام بلا حدود ، كما انه لم يذهب مذهب من أفنوا صورة الفرد في المجتمع ، ولما كان أفراد المجتمع هم نتاجه في نفس الوقت ، وكلهم تجمعهم دعوة الله . فان وحدة الهدف أمر يأتي بلا اجتهادات داخلية في المجتمع ، ويتم الترابط بين المؤمنين وينصرفون الى أعمالهم تلقائياً بتصرف رجل واحد **« إنما المؤمنون**

الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

●

ويصور العامري[1] هذا المفهوم فيقول : يعطي الاسلام أهميـة كبرى للانسان كفرد في مجتمع ، ويؤكد حاجته الى التقدم المستمر . وبذلك يحرر طاقاته الخلاقة كلها (فكرية وعقلية وعملية) لتنطلق في خدمة تقدمه كإنسان، وفي خدمة المجتمع ككل بدون السماح لعائق ما ان يقف في وجهها ولا سيما العائق الطبقي الذي يحكم على الانسان باعتبار الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، لا على أساس مواهبه وقدراته ، ومدى ما يمكن ان يقدم للمجتمع من خدمات .

« وهنا يتميز الاسلام عن المجوسية والزرادشتية ، فقد كان ملوك الفرس بتأثير دينهم يقسمون الناس الى طبقات ويحكمون عليهم بالانساب لا بالأعمال ويحرمون عليهم الترقي ، من طبقة الى طبقة ، وبذلك حجروا على كثير من المواهب والطاقات وعاقوها عن ان تعمل وتبتدع ، لأنهم جردوها من حوافز العلم والابداع » .

واعتبر الاسلام ان الشرف والضعة أمران نسبيان . وان كل أفراد المجتمع الاسلامي تستحق الطاعة والاحترام بقدر ما تحمل من المسؤولية على أساس هدف واضح هو : إقامة مجتمع متماسك تسوده المحبة والولاء ، وتحرم فيه أسباب القطيعة والعداء .

لذلك يوجب الاسلام المحافظة على ولاء النسب ــ ولاء العقد ــ ولاء الدين. كما حمى المجتمع الضعفاء من جهة التركيب (النساء) ومن جهة السن (اليتامى)

---

(١) عن ملخص لسراية من كتاب (الاعلام بمناقب الاسلام) للدكتور عبـــد القادر محمود .

ومن جهة المعاش (الفقراء) ومن جهة الرقبة (العبيد) ومن جهـــة الوطن (الغرباء وأبناء السبيل) وحث الاسلام على رعايتهم ومعاملتهم كأعضاء في مجتمع متكامل .

●

ولا ريب ان من أعظم معطيات الاسلام قاعدة ان المجتمع الاسلامي يكفل أبناءه من العجزة والضعاف والفقراء تكافلا متكاملا ، وانه لا يطالب كما طالبت مجتمعات أخرى باستئصال الضعفاء والمرضى وبناء السوبرمان .

(٣)

قدم الاسلام للبشرية بجموعة من القيم : الحق ، العدل ، الرحمة ، العفو ، التقوى ، البر ، الإحسان ، الصدق ، الصبر ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، التكافل . وأعطى الانسان حقوقاً متعددة منها : الحياة الحرة ، المساواة ، العمل ، الإخاء ، العلم ، الملكية .

ووضع الاسلام حدوداً : الربا ، الزنا ، قتل النفس ، شرب الخمر ، السرقة . ووضع الاسلام نظماً ثابتة هي : نظام الأسرة ، نظام الميراث ، نظام الجرائم ، نظام السلم والحرب ، نظام البيع .

وقد وضع كل هذه النظم في إطار الاخلاق ، فالاسلام عقيدة وشريعة وأخلاق هي متكاملة لا تنفصل ، متوائمة لا تتجزأ ، ومن أجل ذلك جعل المجتمع الاسلامي بمثابة عقد مشاركة وتضامن بين أفراده ، الأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء ، وقد حث على رعايتهم جميعاً . وبذلك عارض نظريات الجنس الممتاز ، وقتل المرضى والضعفاء . ولعل أروع صورة لوصف علاقة المجتمع بالفرد والفرد بالمجتمع ، تلك الصورة التي رسمها النبي : جماعة ركبوا سفينة في عرض البحر ، ثم عمد واحد من أهل الطابق الأدنى الى خرقها لإدخال الماء ، فان تركوه يعبث بالسفينة غرقوا ، وان وقفوا في وجهه أنقذوا السفينة ونجوا جميعاً .

ويقدم الاسلام فكرة التقوى في مقابل فكرة السعادة كما يقدم فكرة التضحية في مقابل فكرة الرفاهية .

ومهمة الانسان في الحياة = العمل وهدف العمل = عمارة الأرض، وحدود العمل تقوى الله على أن يكون عمل المستخلف لا المالك ، والعمل كله لحساب الله تعالى أعطى الاسلام البشرية فكرة الحق .

(٤)

وفكرة الحق قاعدة أساسية جاء بها الاسلام في مواجهة الهوى والجمود والتقليد ومواريث الآباء والأجداد الباطلة . وفي مواجهة الرأي القائم على الظن . فالاسلام يطالب بالدليل والبرهان ويدعو الى النقد والتمحيص . وبذلك كانت دعوة الاسلام الى تحرير الانسان من كل عقدة سوى التوحيد والارتفاع فوق الباطل او التوسل الى الاشخاص والاصنام والأوثان لما في ذلك من الشرك والإهانة للانسانية .

•

وأعطى[١] الاسلام البشرية حق الحياة : فالله هو واهب الحياة للانسان فمن حق كل فرد أن يعيش ويستمتع بحياته بعد خطر يهدده ، ومن هنا فان انهاء الحياة يجب ألا يكون إلا الله « **ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق** » .

وقد زيف الاسلام ما كان يجري من محاولات لإنهاء الحياة قبل الاسلام بالانتحار ، او قتل الأبناء خشية الفقر ، او وأد البنات خوفاً من العار .

---

(١) راجع مقال في الانسان — للدكتورة بنت الشاطىء .

وقد أكد الاسلام حق الانسان في الحياة منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وقبل ان يقـــول روسو وجون لوك وهوبز وكوندرسيه وجيفرسون ان الناس خلقوا متساوين ، بل ان كل ما قاله هؤلاء مستمد من القرآن أساساً . كما أعطى[1] الاسلام البشرية حق الحرية : فكان الاسلام دين الحرية وليس دين الجبر . وحيث لا تناقض بين القول بحرية الانسان في الاختيار والعقل ، وبين القدرة الإلهية .

والحرية هي حريات : حرية الاعتقاد ، الحرية العلمية ، الحرية السياسية ، الحرية المدنية ، الحرية الاجتماعية ، كما أعطاها حق المساواة : والمساواة في الاسلام مبدأ أساسي وحق طبيعي للانسان . فالله هو الذي خلق الناس جميعاً ، ومن ثم فهم جميعاً سواء بالنسبة لله ، لا فرق بين هذا وذاك الا بالعمل الصالح والتقوى . « **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** » [ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي او عجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر من فضل إلا بالتقوى] وقال إقبال : لقد حطم الاسلام أصنام الدم واللون والجنس .

ويقول لويس ماسينون : ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في تحقيق فكرة المساواة ، وليس في مجتمع آخر له مثل ما للاســلام من ماض كلله النجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة والحقوق والواجبات .

ويقول رين انج : استطاع الاسلام التغلب على التعصب الجنسي بدرجة لم يبلغها أي دين آخر او عقيدة أخرى .

---

(١) نفس المصدر .

ويقول تويني : ان إخماد جذوة التعصب الجنسي والنعرة العنصرية بين المسلمين هي من أهم منجزات الاسلام الحضارية .

●

وأهدى الاسلام البشرية : العدل ، فالناس جميعاً أمام الله والقانون سواء، لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وغني وفقير ، قريب او عدو « **فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى** » « **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** » .

ويبدو ذلك واضحاً في عبارة النبي (انما هلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) .

والشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه .

(٥)

من أعظم معطيات الاسلام في مقارنات الأديان : الاخلاق من حيث هي عملية لا نظرية . ومن حيث انها قاسم مشترك على كل القيم والتصرفات ، وهي بمفهوم الاسلام متممة لمكارم الاخلاق التي عرفتها البشرية من قبل (انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) أخرجه البيهقي في السنن .

ومن هنا كان منهج الأخلاق في الإسلام مختلفاً عن منهـــج اليونان وعن الاخلاق المسيحية . فالاسلام يقرر ثبات الاخلاق وارتباطها بالفرد . ويجعل من الدين والاخلاق حقيقتين لا تنفصلان ، فليس هناك انفصال بين النظرية والسلوك العملي ، ولا يمكن ان تتحرك الاخلاق إلا في إطار عقائدي أصيل لا تنفصل عنه ، وقد رفض الاسلام فكرة القول بأن الانسان ابن غرائزه ، وقال انه ابن عقيدته . فقد بدل الإسلام الناس وطبائعها تغييراً جذرياً ، وأثبت قدرة العقيدة الصحيحة على تغيير النفوس . وفي الاسلام تنبعث الاخلاق من عنصر ثابت هو الكيان الانساني ذاته وليس من متغيرات المجتمع او تطورات الحضارات .

والانسان في الاسلام منفرد متميز عن الحيوان ، ومن ثم فله مقاييسه المختلفـة .

●

وطابع الثبات في الشريعة والاخلاق أساس مكين لقدرة الانســان على مواجهة التغيرات، والقاعدة انقوانين الله لا يمكن تغييرها ، فهي ليست ناتجة من ظروف المناخ ولا من البيئة الاقتصادية . ولا تختلف من زمن الى زمن ، او من مكان الى مكان **«فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا»** .

ويرجع هذا الى طبيعة الانسان التي لا تتغير . فالحوافز الانسانية لم تزل هي نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحياة البشرية ، وكذلك الغرائز التي هي محور عمل الانسان لم تزل باقية كما هي . وكذلك صفات الإيثار والشرف والصدق والشجاعة لا تزال .

●

ويختلف الاسلام في هذا عن الاديان الاخلاقية (البوذية والبرهمية) هذه الأديان التي قامت على الضمير والأخلاق وعلى فعل الخير . هذه الأديان[1] « لم تحل مشكلة الكون الكبير ولم تشبع الجانب الأعلى من النفوس البشرية . وهو جانب التطلع الى السر الأكبر الذي يخبئه هـــذا الكون ، وقد ترك بعضها الناس يعكفون على عبادة الأوثان والأصنام والحشرات ، ويهيمون في عبادة القوى المادية والروحية ، ويعيشون في ضياع بين الرموز والغموض وتهويمات الخيال وشطحات الأوهام ، ويهـدمون بذلك عقولهم وإنسانياتهم أمام معبوداتهم من الحجارة والخشب والبقر والثعابين والجعلان » .

أما الاسلام فقد ربط العقيدة بالأخلاق ، وجعل حركة الاخلاق في إطار العقيدة . وقد عرف[2] الإســلام (وهو من أديان العبادات والشعارات والفروض المرسومة) . عرف الضعف البشري في الأكثرية الساحقة من

---

(١) عن دراسة للاستاذ محمد عبد المنعم خلاف .

(٢) نفس المصدر .

الناس ، فلم يجعل مناط الخلاص من تبعة الدين في نقاوة الخلق او استقامة السلوك ، بل جعل مناطه الإقرار بالخالق الواحد والاعتراف بحكومته في الكون وبشريعته في الحياة : لقد أقر الإسلام العقيدة، ولم يغتفر أي انحراف عنها ، لأنها الأساس في الدين ، وجعل كفارات كثيرة للسقوط في الذنوب والآثام . وقرر ان الحسنات يذهبن السيئات ، وفتح باب التوبة بالندم على الذنب . وجعل مناط العمل والجزاء هو الاقرار والاعتراف بالخالق وتفرده بالربوبية وبلقائه يوم الجزاء . وأخلاق الإسلام : أخلاق تقوى لا أخلاق سعادة . والتقوى من الوقاية : وهي بحسب المصطلح الشرعي لها جعل النفس في وقاية مما يخاف ، وشرعا امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

ولا ريب ان الاخلاق فطرة من فطرة الانسان التي صاغه الله سبحانه وتعالى عليها « والانسان هو الكائن الوحيد الذي ينزع بمحض إرادته الى مجاهدة ميوله ورغباته ، وضبط دوافعه ونزواته والتحكم في أهوائه ، والانصراف في كثير من الحالات عما يشتهيه . والنفور من واقعه والتطلع الى ما ينبغي أن يكون في ظل المثل الأعلى الذي يميز الانسان عن سائر الكائنات[1] » .

●

والسعادة في مفهوم الاسلام تختلف عنها في مفاهيم الأديان ، ذلك ان الاسلام جعل السعادة في الدنيا والآخرة معاً ولم يقصرها على الحياة الاخرى وحدها كما ترى المسيحية .

« والاسلام مع حرصه على الدعوة للآخرة وتزيينها للناس لم يهمل أمر الدنيا ، ولم يهمل النص على ضرورة التمتع بالمباح من مباهجها وطيباتها ، ولم

---

(١) من بحث لتوفيق الطويل عن المثل الأعلى .

يقل ان السعادة تقتضي محاربة الجسم واستئصال شهواته كما زعم المتزمتون من الكلبية والرواقيين . ولم يجعل السعادة تمتعاً بلذات الحياة وتحقيق المنافع كما ذهب أمثال الفورينائية قديماً ودعاة المنفعة حديثاً . وانما أقر الاسلام الجمع بين الدنيا والآخرة فاحترم مطالب الروح ، وقدر مطالب الجسم اذا لم تجاوز حد الاعتدال . « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » .

ويروي الدكتور توفيق الطويل الصراع الطويل بين الفلاسفة والأديان حول السعادة . فريق يتصورها في حياة يسيطر فيها العقل على نداء الحس ، ويغلو في نزعته ، حتى يرى ان كمال السعادة انما يكون بإثارة حرب ضروس بين العقل والجسم تنتهي باستئصال الميول . ووأد الرغبات وقمع الشهوات ومحاربة العواطف والمشاعر والوجدانات حتى يبدو الانسان وكأنه روح بغير جسم او عقل بغير مادة ، وتتهيأ له حياة تقوم على الزهد والتقشف والحرمان (ومن هؤلاء الكلبية والرواقية وكانط) . وفريق آخر يصور السعادة في حياة تشرق بالمتع والملذات ويحقق مصالح الفرد كأنه جسم من غير روح ، ويجاهر بأن نداء الجسم هو صوت الطبيعة ، فمن الضلال أن يستحي الانسان من رغبته (ارستيوس) ، ومنهم من سخر بالمثل العليا التي دعا اليها المثاليون من الاخلاقيين ، وجاهر بأن الغيرية أنانية مقنعة ، وان الاخلاق تستهدف اسعاد المجتمع ، ولا يستقيم هذا بغير الاثرة . وتوكيد الذات وإغفال مزاعم المثاليين مما سموه بالواجب (بنتام ثم فرويد وسارتر) وهي بهذا تبدو محاولة جسم من غير روح او روح من غير جسم : حياة روحية خالصة او مادية خالصة . ولقد جاء الاسلام يؤكد خطأ الاتجاهين : لأن الطبيعة البشرية لا تبدأ من الانحراف الذي يعد مرضاً في حين تبدو كلا متكاملا يجمع بين العقل والجسم في سمط واحد ، بحيث لا يقضي سلطان العقل على نداء الجسم ، ولا يغلب نداء الجسم على سلطان العقل . وان محاربة الجسم وقمع الرغبات واستئصال

الميول ينتهي في العادة بعقد نفسية واضطرابات عصبية .

فالأدنى الى الصواب ان ينظم الانسان مطالب جسمه بهداية العقل دون ان يعمل على قتل جانبه الحسي الذي يكون جزءاً من طبيعته .

ولذلك دعا الاسلام الى التكامل بين الروح والمادة والعقل والجسم، ودعا الى المجاهدة في سبيل التمسك بمبادىء الإيمان والاخلاق وتحقيق رغبات النفس في نفس الوقت في حدود الاعتدال وفي إطار الضوابط التي رسمها الدين .

وقد اعتبر الاسلام إعلاء أحـــد الجانبين نقصاً وخطأ . وقد رفض الإعلائين : إعلاء اللذات والشهوات ، وإعلاء الرهبانية والزهادة . ودعا الى جامع بينهما كريم معتدل .

(٦)

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية مستمدة من الفطرة ملتقية مع العقل والطبيعة البشرية بما حرصت عليه من التوازن في الحقوق بين الفرد والجماعة، وموضوعية الأحكام والتجرد من العصبية والعاطفة والهوى والقرابة واصرارها على فكرة العدل والحق المطلق، مع مرونتها بالنسبة للأزمان والبيئات المتغيرة .

وقد جمع تشريع الاسلام بين مصالح الدنيا والآخرة ، واعتبر ذلك أصلا من أصول الإسلام كما جمع بين الدين والدولة، حيث لا عزلة بين الدين والدنيا.

وتلك قاعدة من أرسخ قواعد الإسلام ومقوم من أعظم مقوماته، وعامل من عوامل التمييز بينه وبين الأديان الأخرى التي قامت على العقيدة وحدها. او الاخلاق وحدها .

ولما كان الاسلام قد جاء بشريعة (قوانين وأحكام تنظم شؤون الحياة) فقد كان طبيعياً ان يعنى بإقامة دولة وحكومة تقوم على تنفيذ هذه الشريعة **« أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون »** . ومن شأن وجود الشريعة أن تكون هناك قوة تنفذها ، وفي القرآن آيات واضحة الدلالة ان الإسلام دولة الى جانب كونه عقيدة او ديناً **« إنا أنزلنا اليك**

الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » .

وقد أقام الرسول دولة في المدينة استوفت شرائط الدولة وأركانها [1] . وقد وضع الرسول الخطوط العريضة لدولة إسلامية كاملة (أنظمة إدارية وقانونية وعسكرية) .

وقد وضع الاسلام مبادىء عامة تتعلق بنظم الحكم هي : الشورى والمساواة والحرية والعدالة . وقد أقام الإسلام الحياة في مجتمعه على أساس طلب الغلب والشوكة .

يقول الإمام محمد عبده : ان الناظر في أصول هذه الديانة (الاسلام) ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريبة فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول أمة حربية في العالم وان يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات الحربية وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون (كالطبيعة والكيميا والهندسة) « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** » .

أما الديانة المسيحية فقد بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها . وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية بل والدينية . ومن وصايا الإنجيل من ضربك على خدك ...

وان الدين المسيحي جاء الممالك الاوربية مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم .

---

(١) دكتور عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي .

وداخلهم عن طريق الإقناع ومسارقة الخواطر ، لا من مطارق البأس والقوة فكان كالطراز على مطارفهم ولم يسلبهم ما ورثوه من أسلافهم[1] .

ومن أجل هذا المفهوم كان الإســـلام ديناً ودولة ومنهج حياة ، ولكن الإسلام حرص على ان لا تكون له مؤسسة تتحـــدث باسمه ، او وصاية ، او وكالة من رجل دين او من غيره . فلا يوجد في الاسلام ما يماثل سلطان الكنيسة والبابوية في المسيحية . فالاسلام لا كهانة ولا وساطة فيه بين الخلق والخالق وليس في الإسلام ما يسمى عنـد قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ، فان لكل مســـلم ان يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وانما عليه قبل ذلك ان يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم[2] .

ولم يكن المسلمون يسمون حكم الرســول ملكاً ، وإنما يسمونه إمامة . والخلافة عرفوها بأنها نيابة عن الرسول في حراسة الدين وسياسة الدنيا . ويذكر التاريخ الى أي حد بلغ سلطان الاستبداد بالبابوات وغيرهم من رجال الكنيسة . فقد بلغ البابوات من القوة والسلطان بحيث لم يكن هناك الى جانبهم سلطة أخرى تبلـغ من القوة حداً يستطيع معه ان يوقف سلطة البابوات عند حدها .

يقول فيشر في كتابه « تاريخ اوربا في العصور الوسطى (ج ١) » : ان رجال الدين لم يكن لهم فلسفة في الدولة وأصول الحـكم ، بحيث تحدث في السياسة الرومانية او المجتمع الروماني شيئاً من التعديل . « ذلك انهم أيقنوا ان الدنيا متاع الغرور والشرور وتعلموا ان الانسان طريد جنة الخلد . وحق عليه العذاب المقيم ، وتعلموا ان هذه الدنيا لا تلبث ان تزول . واذا كان

---

(١) الاسلام والنصرانية : للشيخ محمد عبده .

(٢) دكتور عبد الحميد متولي : أزمة الفكر الاسلامي .

الأمر كذلك ، فما الذي يحمل المسيحي على إلغاء الرق او الحرب او الربا او استعمال القوة الغاشمة التي ساعدت الدولة الرومانية على النهوض ما دام كل ذلك مقضياً عليه بالزوال » .

ويرجع ذلك الى ان المسيحية قد فصلت بين الدين والدولة . ولذلك فانها عجزت عن ان تعمل على شيء من الاصلاح في المجتمع الروماني ، وهذا هو مصدر الانشطارية العامة في الفكر الغربي .

أما الاسلام فلا يوجد فيه آية او كلمة تدل دلالة تنبه على الفصل فيما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ، ولا ما بين الدين والدولة ، والاسلام بعكس ذلك . قد شرع مبدأ القصاص كما شرع مبدأ الجهاد[1] .

---

(١) عبد الحميد متولي : مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٦٤ .

(٧)

كذلك أقام الإسلام المجتمع على أساس التجارة والانفاق بدلاً من الربا والاكتناز ، وجعل التقوى أساس أخلاقية التجارة والتعامل ووضع نظامي الزكاة والميراث لتصفية تضخمات الثروة وللحيلولة دون قيام دولة من الاغنياء وبذلك حفظ المجتمع من أخطار الاحتكار والمضاربة ، وحفظ التوازن الاقتصادي . كما دعا الى التضامن الاجتماعي ، وجعل الزكاة مؤسسة التكافل ، وأقر الملكية الخاصة وحماها ، وحرم الربا والاحتكار ، وأقام الحرية الاقتصادية ذات الضوابط الاخلاقية ، وجعل العمل هو أساس الثروة والغنى ، حيث لا يسمح الإسلام بالتفاوت الكبير في الثروة والدخول، وحيث لا يقر الإسلام الطبقية .

وقد جمع منهج الاقتصاد الاسلامي بين المصلحتين الخاصة والعامة، وجعل مناط الحركة حكماً هو المصلحة ووفق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، وقدم المصلحة العامة على مصلحة الفرد ، وجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية ، وخاصة الإحساس بالله تعالى ومراقبته في كل تصرف . ودعا الى الارتباط بين ما هو مادي وما هو روحي ، وجمع بين عناصر الثبات والتطور .

ومن هنا كان المذهب الاقتصادي الاسلامي عاماً شاملاً ، لا يرتبط بمرحلة

تاريخية معينة كالمذاهب الوصفية ، ولا يقتصر على صورة تطبيقية معينة ، وعالج المنهج الإسلامي للاقتصاد مشكلة الفقر وقرر بأن ليس للتاريخ مفتاح واحد هو العامل المادي ، بل له عوامل كثيرة . ولكن الاسلام يعنى بالعامل المادي ولا يهجره ، وجعل الاسلام أساس العبادة تأمين الناس في حياتهم المعيشية .

وقرر الاسلام ان الانسان من حيث الائتمان مستخلف في الأرض ، وان العمل والانتاج عبادة وان المال مال الله ، والبشر مستخلفون فيه ، ولكل حد الكفاية أولاً . ثم لكل تبعاً لعمله ، والاسلام لا يسمح بالغنى إلا بعد كفالة حد الكفاية ، كما لا يسمح بالتفاوت الفاحش في الثروة او الترف[1] وان الزكاة بحسبانها الضمان الاجتماعي هي الركن الثاني في العقيدة بعد الصلاة. وان في المال حق آخر سوى الزكاة . وفي حديث الترمذي : ان في المال حقاً سوى الزكاة . فالزكاة هي الحد الأدنى في المال .

ويشجب الاسلام جميع الأرباح التي تنجم عن إلحاق الضرر بالمجتمع كالسرقة والقمار وبيع الخمور ، والأمور التي تحصل من الربا والحظ بلا تعب ولا سعي تعد محرمة . ولا يجوز القيام بها او ممارستها باسم الحرية الاقتصادية ، لأن هذه الحرية في الإسلام ليست مطلقة بل إنها موجهة في حدود مصلحة الإنسان والمجتمع في آن واحد ، هذا الى جانب تحريم الاستغلال والاحتكار والاكتناز في الإسلام .

---

(١) ملخص عن بحث الدكتور الفنجري (مدخل الى الاقتصاد الاسلامي) .

(٨)

ان تحريم الربا قاعدة أساسية صلبة في الإسلام . وليس هناك من منطلق بالتفسير ، او التأويل يستطيع ان يقول بغير التحريم ، ولا عبرة مطلقاً بما يقال من أن تحريم الربا يحول دون التصنيع او ازدهار الصناعة . فان هذه الأمور كلها يمكن ان تتم دون المساس بهذا الركن الركين .

ولا ريب ان الربا نظام معارض لرسالات السماء ، وهو بالطبع معارض لسلام البشرية وتقدمها . وقد حملت لواءه اليهودية التلمودية ، وسيطرت به على المال العام ومصارفه . وما زال الربا هو العامل الخطير في استنزاف ثروات المسلمين باسم القروض والفوائد .

وقد جاء الاسلام ليحارب طغيان الربا في معركة مقدسة « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله فان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** » .

ولقد أقر بأثر الربا الخطير في المجتمعات الغربية غير قليل من الباحثين ، بل ان لوردكينس وصل الى حد ان نسب اليه كل المخاطر فقال : من الممكن أن تنسب جميع الآفات الاجتماعية الى الربا .

(٩)

من أعظم معطيات الاسلام . عقيدة القدر الاسلامية ، هذه العقيدة التي جعلت المسلمين يتقدمون ويتغلبون على المخاطر مؤمنين بأنه « **لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا** » .

« فقد آمن المسلمون[1] بأن كل شيء يخلقه الله ويعلمه ، ولكن الله لم يضطر أحداً الى الخير اضطراراً . ولم يجبره على الشر إجباراً ، وإنما أعطاه العقل المميز ودلّه على الطريقين المختلفين ، وانه قدر الأرزاق بلا زيادة ولا نقصان ، وحدد الآجال فلا تقديم ولا تأخير . فما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك . فاذا جاء أجلك فلا تستقدم لحظة ولا تتأخر ،فمضوا لا يهابون الموت في سبيل الله ولا يخافونه لأنهم آمنوا إيماناً باتاً بأن المرء ليس أدنى الى الموت ، وهو في غمار المعركة الحمراء منه في كسر بيته وبين أهله » .

(١) من نفحات قدسية علي الطنطاوي .

(١٠)

وقد أقام الاسلام التوازن بين الروح والمادة : « وأعطى[١] الاسلام أهمية كبيرة للقوة المادية التي أهملتها بعض الأديان . او قللت من شأنها ، وطالب بضرورة توفيرها لتقدم المجتمع وحريته ، وكذلك يعطي الاسلام أهمية كبيرة للقيم الروحية .

واذا كانت اليهودية قد غالت في تقدير القوة المادية وغالت المسيحية في الناحية الروحية ، فان الاسلام هو دين التوازن الحق بين الناحيتين على أساس ان كليهما عنصر أساسي في الطبيعة البشرية ، وأن كليهما لا غنى عنه لتقدم الانسان .

والأديان التي تحرم على أهلها اقتناء المال ، وتحثهم على اعتزال الناس تسلبهم في الواقع وسائل القوة وتعوقهم عن مكارم الاخلاق : القوة مادية او روحية ليست شراً او خيراً في ذاتها ، بل تعتمد على طريقة استعمال الانسان لها وتأثيرها يتحدد بالهدف الذي تستخدم له لإسعاد الناس وتقدمهم او لاستعباد الناس وإشقائهم » .

●

---

(١) العامري : الإعلام بمناقب الاسلام .

وميزة الإسلام أنه ليس فكرة تجريدية . ولكنه منهج إصلاح جامع بين الروح والمادة حيث «لا يتملق الإسلام النفس الانسانية ، ولا يترضى الجوانب الوضيعة فيها ، وانما يحاول ان يجعل قوتها على احتمال الألم والتضحية بوقوفه على الغايات الكبيرة والمطالب العالية » .

وقد فصلت بعض الأديان بين الروح والمادة . وغالت بعضها في المادة ، وغالت الاخرى في الجانب الروحي . « واليهودية بلغت فيها الذروة في الاتجاه المادي،والمسيحية محاولة مباشرة الىحل مشكلة الحياة عنطريق إنكار الحياة ، وبوذا على ما في نظرياته الاخلاقية من سمو ونبل يرينا ان الوجود شقاء ، وان نشدان الخلاص انما يكون عن طريق (الزافانا) حيث تخمد الرغبات وتفنى المطالب وتموت الأهواء ، هذه النظرية التشاؤمية التي تغري بنبذ الحياة والاعراض العام عن الدنيا تميز الكثير من الاديان القديمة » .

●

ومن أهم مآثر الإسلام التي تميزه عن سائر النظم : « التوفيق[1] التام بين الناحية الخلقية والناحية المادية من الحياة الانسانية » .

يقول العلامة محمد أسد : « وهذا سبب من الاسباب التي عملت على ظفر الإسلام في ابان قوته أينما حل، لقد جاء الاسلام بالرسالة الجديدة التي لا تجعل احتكار الدنيا شرطاً للنجاة في الآخرة ، هذه الخاصة الظاهرة في الاسلام تخلد الحقيقة الدالة على ان نبينا كان شديد الاهتمام بالحياة الانسانية في كلا اتجاهيها : في المظهر الروحي والمظهر المادي . ونحن نجد الاسلام أسمى من سائر الأنظمة الحديثة . لأنه يشمل الحياة بأسرها ، انه يهتم اهتماماً واحداً بالدنيا والآخرة ، والنفس والجسد والفرد والمجتمع .

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق .

« ونجد الاسلام وحده من بين سائر الأديان يبيح للانسان ان يتمتع بحياته الدنيا الى أقصى حدّ من غير تضييع اتجاهه الروحي دقيقة واحدة . ليس في الإسلام خطيئة أصيلة موروثة ، وليس من أجل ذلك ثمة غفران شامل للانسانية . ان كل مسلم رهين بما كسب ، والاسلام ينظر الى الحياة بهدوء واحترام ، ولكنه لا يعبدها . ان النجاح المادي مرغوب فيه ، ولكنه ليس غاية في ذاته ، بل يقود الانسان نحو الشعور بالتبعة الادبيـة في كل ما يعمل والغاية من جميع نشاطنا العملي يجب ان يكون خلقياً » .

الفصل الخامس

الاسلام والأديان

أطلق الاسلام العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة ، من ذوي الاديان المختلفة ، فارتفع الى مستوى الاعتقاد بالله الواحد الأحد ، وبحياة وراء هذه الحياة .

فقد حرر الاسلام البشرية من عبادة قوى الطبيعة وعبادة التعدد وعبادة النار والحيوانات المقدسة . وأعلن البعث والجزاء ، وفرق بين الله والطبيعة ، ورفض سقوط التكليف ونظريات الفيض والإشراق والاتحـــاد والحلول ، وأحل صيد الحيوان وما أحله الله من لحم الطير . كما نقل البشرية من الوحشية والهمجية والعبودية والظلم الاجتماعي والاستعلاء بالعنصر والعرق الى كرامة الانسان والتفاضل بالتقوى والعمل . وأثبت وحدة الجنس البشري ، وان الناس لآدم وان آدم من تراب .

وأعطى البشرية المنهج الاجتماعي القائم على العدل والكرامة والرحمة ، وأخلاقية الحياة وتكامل العبادة والشريعة في إطار الأخلاق .

وقد رفض الاسلام الخرافات الوثنية والاساطير وتعدد الآلهة وطابع الإباحة كما حرر الفكر الاوربي من وثنية الإغريق .

كما أنكر الاسلام التناسخ . وقرر ان الروح كائن مستقل بجسم فهو يحاسب على ما ارتكب هذا الجسم ويتم الحساب بعد ان يعترف الإنسان بأخطائه .

●

أقام الاسلام الإخاء البشري والوحدة الانسانية : ودعا الى المساواة بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم في الحقوق والواجبات . وبذلك محا العصبية البغيضة ، وقضى على النعرة العرقية ووسع الاسلام دائرة الجنسية بشريعته الى التساوي بين الأمم والملل اذا قبلوا حكمها . وقد كانت جنسية المصريين مصر ، واليونانيين أثينا ، والرومانيين روما . ودعا الى الترابط بين واجب الانسان تجاه الله وواجبه نحو أخيه الانسان .

●

خلص الاسلام المجتمعات الفارسية والفرعونية والوثنية والرومانية والهندية من رجال الدين الذين حجروا على العقول ، واستعبدوا الفكر ، ومن الملوك الذين قسموا المجتمعات الى طبقات ووضعوا أنفسهم في القمة .

●

قرر الإسلام أحكاماً ثابتة وركائز عامة هي بمثابة قوانين دعم الشخصية الانسانية وحمايتها ووضع الضوابط التي تحول دون انهيارها . وخاصة بالنسبة الى الربا والزنا والخمر والوثنية . وسمح فيما عدا ذلك بالاجتهاد والتطور ومجاراة العصور والبيئات .

●

(٢)

قد أجرى الدكتور حسين نصر هذه المقارنة بين الاسلام والأديان قال : « ان أقدم الاديان السامية هو الدين اليهودي . وأحدثها الاسلام » الموسوية شريعة والعيسوية طريقة . والاسلام جمع الشريعة والطريقة معاً ، ولذلك يسمى الاسلام الدين الحنيف : جمع بين الظاهر والباطن . ومحا ذلك التحديد الذي بدأ مع ظهور الدين اليهودي والمسيحي ، وأعطى الدين من جديد شمولاً ، وكشف الحقيقة التي نزلت منـــذ أول لحظات الخلق الأولى وهي (حقيقة التوحيد) . أصل كل المذاهب والاديان الحقيقية وأساسها في جميع العصور الخاليـة .

والاسلام ظل فيه التعادل بين الظاهرية والباطنية بخلاف المسيحية التي فقدت التوازن ، وتمكنت الشريعة والطريقة في الاسلام أن تحافظا على تقاربها . ولم تستطع أية قوة القضاء على هذا التعادل الذي وجد منذ مطلع ظهور الاسلام والذي هو رمز بقائه ، وقد نبه جميع علماء المسلمين على هذه الملاحظة وأقروا ان الطريق الوحيد الى الحقيقة هو حفظ التعادل بين الشريعـة والطريقة ، والظاهر والباطن .

« وبذلك اكتسب الاسلام قدرة وشيوعاً لا مثيل لها وحاز شخصية عالمية عرف بها بين الأديان فكان الوحي المحمدي الذي هو آخر هذا العهـــد

التاريخي للبشر ـ جامعاً للديانات السابقة من جهة رجوعها الى أصل الوحي ومبدئه من جهة أخرى، ففي الأديان الهندية الحقيقة الباطنية مخيفة ومكتومة عن أنظار العامة . ومن أركان الدين الهندي (البرهمي) أن ينقسم المجتمع الى أصناف او صفات ، وأحكام الدين الهندي تعم بجوانبها المختلفة كل الطبقات. ولكن البراهما وحدهم توصلوا الى معرفة كل الحقائق والرموز » .

●

(٣)

وقعت اليهودية تحت سلطان الفكر البابلي القديم . ووقعت المسيحية تحت سلطان الفكر الإغريقي (مثالية أفلاطون ومنطق أرسطو) .

أما الاسلام فقد استطاع ان يشكل منهجه كاملاً من القرآن قبل الاتصال بالفلسفات والنحل المختلفة .

●

ويقول درابر : يختلف الاسلام عن النصرانية اذ أنه (أي الإسلام) قضى على منافسة الوثنية قضاءً تاماً . ونشر عقائد خالقه ، أما المسيحية فقد دخلت على مجتمع مشكل فعلاً ، وشاركت فيه من غير أن تتمكن من قطع دابر الوثنية . وكان البعض يرى ان الديانة الجديدة ستزدهر اذا حطمت ، ولصقت بالعقائد الوثنية القديمة . وكان نتيجة ذلك ان اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء .

●

وكذلك قاومت المسيحية هجوم الفلسفة الغنوصية الشرقية مقاومة

عنيفة[1] ولكن الغنوص استطاع أن يغزوها غزواً شديداً . فسيطر على طائفة من أعظم المفكرين منهم القديس كليانس والقديس أوريجـــان . وللغنوصية تأثير على فيلسوف المسيحية او لاهوتيها القديس أوغطنوس . أما الإسلام فقد قابل الغنوص في فتوحاته وأغلق أبوابها .

●

---

(١) من بحث للدكتور علي سامي النشار .

(٤)

يقول العلامة صلاح الدين السلجوقي في المقارنة بين الأديان : اليهودية تدعو الى توحيد ينطلق من فكرة الله الواحد الأحـــد ، ولكنها انحرفت فعبدت الإله : إله إسرائيل .

والنصرانية منذ كانت دين التوحيد قبل أن تعد دين التثليث . وجاء الاسلام وسطاً فطرياً : يخاطب العقل واللب والعاطفة والإحساس ، يقف موقفاً وسطاً يؤلف بين القومية والانسانية .

رسالة الاسلام ترى ان دين الله في جميع الأزمان وعلى ألسنة جميع الانبياء واحد بجوهره . الديانات كلها واحدة بالأصل ، وأصبحت بالإسلام لأنه يضم شتاتها ويقوم ما اعوج من أصولها لدى اتباع اليهودية والنصرانية . يقف موقف التوسط بين غلو الطرفين المتناقضين فيدعو الى قومية انسانية ليست مغلقة عنصرية كاليهودية . ولا مثالية زاهدة أقرب الى الخيال منها الى التزام الانسان بظروف وجوده ومعاشه كالديانة المسيحية . وبدأ حمل العرب لرسالة خير الأمم : الأمة الوسط .

فالديانة الاسلامية لم تلح على الجانب الدنيوي وحده كما فعلت الديانة اليهودية بوجه الإجمال ولم تلح على الجانب السماوي وحـده كما فعلت الديانة

المسيحية . بل سعى الاسلام سعياً ذاتياً الى الجمع بين الدين والدنيا ، والتأليف بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية معاً .

« لم يعط الاسلام ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » بل نظر الى الوجود المرئي واللامرئي نظرة شاملة جامعة موحدة ، وأقام على مبدأ التوحيد نظام فكروسياسة .

(٥)

ان أوربا حين تتحدث عن فكرها تذكر اليونان والرومان ثم تقول : وجاءت المسيحية ، فهي حلقة من حلقات تاريخها . أما العرب فانهم يعتبرون ان تاريخهم الحقيقي بدأ من الاسلام ، أمة وفكراً وحضارة .

والمسيحية ككل دين منزل: عقيدة وشريعة، وان كانت لم تأت بتفصيلات تشريعية . فذلك لأن شريعتها الاساسية كانت التوراة مع التعديلات التي نزلت على عيسى ، ولكن الذي حدث بالفعل وعلى الرغم من النفوذ الذي زاولته الكنيسة في أوربا الوسطى : كان لا يحكم الا القانون الروماني . فالمسيحية في الاساس ليست ديناً عالمياً وانما هي رسالة متممة لرسالة موسى .

يقول بول فاليري : ان المسيحية التي انتشرت في أوربا هي مسيحية القديس بولس . وقد جاءت المسيحية بأخلاقية ذاتية ، وعملت على توحيد هذه الاخلاقية جنباً الى جنب مع الوحدة القانونية التي أنشأها القانون الروماني .

ويقول : لعل ما ندين به لليونان هو ما يميزنا عن بقية البشرية . نحن مدينون لليونان بما في عقلنا من ضبط ونظام ، نحن مدينون لليونان بأسلوب في التفكير يميل لربط جميع الاشياء بالانسان وهكذا تبدو المسيحية في أوربا

جزءاً من حياتهم بينما الاسلام في العرب هو كل حياتهم ، ولا حياة اجتماعية ولا فكرية لهم بدونه .

يقول ول ديورانت : ان المسيحية لم تقض على الوثنية بل ثبتتها ، ذلك ان العقل اليوناني المحتضر عاد الى الحياة في صور جديدة من لاهوت الكنيسة وطقوسها . وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قروناً عدة ، صاحبة السلطان على السياسة والأدب ، والطقوس المسيحية ، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية الى طقوس القداس الخفية الرهيبة ، وساعدت هذه مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على احداث هذه النتيجة المتناقضة الاطراف ، فجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ويوم الحساب وأبديّة الثـــواب والعقاب وخلود الإنسان . ومنها جاءت عبادة أم الطفل ، والاتصال الصوفي بالله ، ذلك الاتصال الذي أوجد الافلاطونية الحديثـــة والأردية وطمس معالم العقيدة المسيحية[1] .

وفي الأصل جاءت المسيحية لبني اسرائيل لتصحيح أوضاع شاذة ذاعت عندهم . فقد تكالب اليهود على المال وحاولوا جمعه بمختلف الطرق فجاءت المسيحية تدعو الى الزهد لتكسر حدة هذا الجشع . وكان التحدي والانتقام طابع العلاقة بين طوائف اليهود . فجاءت المسيحية تقول بالتسامح ، ولو بقيت المسيحية على وضعها هذا ديناً لبني اسرائيل يدعوهم للزهد لكسر حدة التحدي عندهم . انها ديانة جاءت في ظروف خاصة ولجماعة خاصة ، ولكن بولس نقلها الى العالمية . فقد قرر بولس ان المسيحية ليست مذهباً يهودياً ، بل هي دين جديد ، وان عليها ان تجعل دعوتها مفتوحة لغير اليهود من جميع الامم ، ولو أدى ذلك الى التساهل في بعض التشريعات والطقوس التي تضايق

---

(١) قيصر والمسيح ص ٢٧٦ .

الوثنيين كالختان والسبت وتحريم الخنزير[1] وان نظرة واحدة الى موقف بولس من نظام الامبراطورية الرومانية ليدهش لمحاولة إخراج المسيحية عن هدفها الاصيل . فقد طلب بولس من العبيد (بعد أن دخلوا في النصرانية) ان يطيعوا سادتهم ، وأن يخدموهم بأمانة وإخلاص مهما عذبوهم او قسوا عليهم ، وان يخضع الكل للسلاطين والحكام من غير تذمر او احتجاج . ومن هذا التحول بدأ ذلك التناقض بين دعوة المسيحية الى القصر والزهد ، وما عرفته أوربا من تكالب على الثروة والاستعمار . وهذا التباين الواضح بين ما تدعو اليه المسيحية. وما أصبح اليه معتنقوها في أوربا وأمريكا .

ويصور هذا المعنى دائرة المعارف البريطانية حين تقول : « ان تاريخ المسيحية وتعدد الكنائس وشيع المسيحيين وفرقهم ولد الشعور لدى الباحثين انه ليس للمسيحيين شيء يشتركون فيه سوى الأمم » ويبدو هذا التناقض في وقائع كثيرة من تاريخ المسيحية . محاكم التفتيش ، وسلطة البابوات ، ومعركة سانت بارتلمي بين الكاثوليك والبروتستانت ، وروح التعصب في الدعوة الى الحروب الصليبية . وذلك كله نتيجـــة تأثرها بالتلمودية . فقد انتقلت المسيحية من حركة اجتماعية قوامها الرحمة والبر والحب الى سطوة أباطرة روما عن طريق الكنيسة .

وبالرغم من محاولة لوثر نتيجة لتأثر أوربا كلها بمفاهيم الإسـلام ، فان البروتستانية لم تستطع ان تفعل شيئاً . فقد بقيت الكاثولوكية والبروتستانية كلاهما يعتقد بالتثليث وألوهية عيسى والخطيئة فلم تستطع البروتستانية ان تتحرر منها .

فلما جاء المنهج العلمي التجريبي الاسلامي وغزا أوربا أيقظها من غيبيات

---

(١) عبده فراج : معالم الفكر الفلسفي .

المسيحية . وكشف أن الديانة المسيحية بحسب ما صورها الكهنة لا تتفق مع العقل المستنير الذي يحدب ويحلل ويستنبط . فقد بدأت حملة ضخمة في الهجوم على فكرة التثليث ووصفها بالتعقيد ، وكذلك فكرة الانصراف عن الدنيا . واهتزت المسيحية في نفوس الغربيين نتيجة تحكم الكنيسة ، هـذه الغيبيات المسيحية التي هاجمها الفكر الغربي ليست بالقطع موجودة في الفكر الاسلامي .

ومضت العقلية الغربية تتحرر بتأثير مفاهيم الإسلام ومنهجه العلمي التجريبي من سلطان اللاهوت الكنسي الذي قام رقيباً على النفوس والعقل .

وكانت فلسفة نيتشه ورينان بمثابة رد فعل عنيف ضد الاخلاق المسيحية . وكانت الدعوة الى تحرير الانسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء .

يقول أنيس فريحة : لم تتقدم أوربا فكراً او ثقافة او علماً أو اقتصاداً الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت منه تحرراً تاماً .

(٦)

أما الاسلام فقد رفض فكرة الرهبانية والهروب من الحيـــاة والسلبية والانطوائية ، وكان أول من دعا الى التحرر من قيد الجهل والخرافة والتقليد.

جاء الاسلاء حاكماً على المدنيات ولم يجيء محكوماً بها ، وكانت له قدرته على مواجهة الأزمات والتحديات وقدرته على إعادة تشكيل نفسه وتحرير أصوله من أي اضطراب في حيوية وتفتح ومحافظة على الاصول وقدرة على الحركة من خلال المتغيرات .

أعطى الاسلام البشرية اجابات واضحة كاملة عن كل ما تتعرض له من معضلات ، وأقام ذلك التوازن الواضح بين القيم المختلفة : الجهاد والعبادة والانفاق والمباحات والممنوعات .

كان الاســـلام حركة اجتماعية واسعة تشمل الاعتقاد والدولة والنظم الاجتماعية والاخلاق ، وكانت اصالة الاسلام واضحة في انه رفض ويرفض كل عنصر غريب عليه . وقد أثبت الاسلام انه أكثر قدرة على علاج مشاكل البشرية الكبرى . وفي كل هذا كان للاسلام ذاتيته الخاصة ومقاييسه الخاصة.

ولقد أعطي الاسلام بمفاهيمه الربانية القائمة على الفطرة والعقـــل شحنة ضخمة من القوة والإيمـان والتضحية ، دفعت المسلمين رفعاً الى الآفاق .

وما تزال قدرة الاسلام على تجديد نفسه وإعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر او اصابته دخائل حولته عن جوهره ، وكان دائماً كياناً حياً قادراً على التمدد وللعطاء . وآية ذلك قدرة الاسـلام الرائعة على التوسع والتكيف مع المجتمعات المختلفة والعصور المتوالية .

ومنذ ظهر الاسلام لم يتغلب عليه متغلب من الأديان ، وان تغلبت الأمم على أهله . ولا ريب ان أبرز الدلائل على اصالة الاسلام وعالميته واستحقاقه للبقاء والانتشار هو تطابقه مع الفطرة الانسانية وقدرته على العطاء لكل العصور والأزمنة والبيئات . وبروز طابعه الانساني في الإخاء والمساواة .

البَابُ الـرَّابِعُ

الإسْلامُ والعالَمُ المُعَاصِر

الفصل الاول : الاسلام والعالم المعاصر

الفصل الثاني : أزمة الغرب الدينية

الفصل الثالث : اليهودية في محاولة احتواء الاسلام

الفصل الرابع : الماركسية في مواجهة الاسلام

الفصل الخامس : الاسلام والبشرية

الفصل الأول

الاسلام والعالم المعاصر

عندما جاء الاسلام واجهته الأديان بخصومة عاتية ، وبدأ صراع عنيف ، تمثل في حركات الانتقاص التي أثارتها المجوسية الفارسية باسم الشعوبية والباطنية ، وحركات الغزو الذي لم يتوقف من جانب الدولة البيزنطية باسم أوربا المسيحية على أطراف عالم الاسلام . ثم لم يلبث هذا الغزو ان تبلور في الحروب الصليبية على ساحل الشام ومصر . وحروب الفرنجة على ساحل المغرب ، ثم كانت الحملة الاستعمارية التي تدافعت من أوربا الى العالم الاسلامي كله والتي وصلت الى جزائر الملايو والهند وخليج العرب حتى سيطرت على بيت المقدس . وأعلنت أوربا بعد ثمانمائة عام من هزيمة الحروب الصليبية ان هذه الحروب قد انتهت بانتصار أوربا المسيحية على عالم الاسلام والسيطرة عليه سياسياً واقتصادياً وعسكرياً .

ومن ثم بدأ الاسلام مواجهة التحدي الخطير من خلال محاولة السيطرة عليه وتزييف مفاهيمه واثارة الشكوك حول حقائقه ، وإعلاء التبشير

بالمسيحية في بلاده ، ثم زحفت اليهودية الصهيونية الى فلسطين . وأخذت تتدافع من خلال الفكر الأوربي الى عالم الاسلام من أجل إعلاء مفاهيم الوثنية والإغريقية والمادية في محاولة انقضاض كامل وصفه بعض قادته ، انه محاولة لفتح العالم الاسلامي عقائدياً وفكرياً ، واعادته مرة أخرى الى ما كان عليه قبل الاسلام .

تلك هي المحاولة الخطيرة التي يواجهها الاسلام اليوم من خلال التحديات المتسربلة بثوب الاستعمار ومذاهب الاقتصاد والاجتماع وهي في أعمق أعماقها تستهدف استعادة العالم الاسلامي وسحب الارض من تحت الاسلام والجهر بمطالبته بالعودة الى الجزيرة العربية .

ولا ريب ان محاولات العنصرية المبثوثة على نحو واسع جداً في العالم الاسلامي تحت أسماء تخفي حقيقتها من وطنية وقومية وغيرها . انما هي واحدة من هذه المحاولات التي ترمي الى إقامة كيانات أقلية ممزقة تعود في جذورها الى دعوات ما قبل الاسلام من فينيقية وفرعونية وبابلية وآشورية وبربرية وزنجية وذلك حتى تكون يسيرة في القضاء عليها والتهامها .

واذا كانت تجربة بني اسرائيل في النبوة والحكم والملك قد سقطت تماماً بعد ان فشلوا في إقامة الحق والعدل ، وانتهى الأمر بنقل النبوة والقيادة والرسالة والملك والحكم الى بني اسماعيل ، الذين حملوا لواء دعوة الدين الحق ممثلاً في الاسلام ، متكاملاً مع رسالة ابراهيم الحنيفية الاولى وختاماً لها . اذا كانت تجربة بني اسرائيل قد سقطت ، فانها تحاول ان تعود بعد أربعة عشر قرناً من ظهور رسالة الإسلام لتحاول استعادة نفوذ قد عجزت عن إقامة الحق فيه . وقد أعطيت قيادة العالم لأمة أخرى أكثر قدرة على حمل اللواء ، هي الأمة العربية الاسلامية .

ومن هنا تكون المعركة الآن في ذروتها من أجل إظهار الله للاسلام على

الدين كله حيث لا خوف على الاسلام من أي صدام مع أوضاع لا تقوم على الحق ، وإنما تقوم على تفسيرات زائفة ومناهج مصطنعة ، ومذاهب منطلقة من الأهواء والاحقاد على البشرية كلها .

أما الإسلام فانه منذ اكتمل منهجه ، وقبل أن يختار الرسول الرفيق الأعلى ، فانه قد أقا القاعدة التي لا خوف بعدها عليه « **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً** » .

ولقد ولد الاسلام في أتون الأحداث وفي مجال الصراع وفي مواجهة التحديات ، ولذلك فان محاولات تكذيبه والانتقاص منه وتزييفه وإثارة الشكوك والشبهات حوله ما تزال منذ ذلك اليوم على ألسنة خصومه لم تتوقف ولن تتوقف .

وبالرغم من تلك المواجهة الخطيرة التي يقود العالم كله قيادها ويذكي نارها بين محاورة ومجادلة بالفكر او مقارعة بالسنان . فان الاسلام كان قادراً على أن يثبت بالحق . وفي الساعات العصيبة التي كان وجود الاسلام ينتقص من أطرافه في الاندلس ، او برغم على مجاورة البلقان في أوربا الى أرضه مرة أخرى ، كان يفتتح أعظم فتوحاته ، ويقتحم أرضاً جديدة في جنوب شرق آسيا وفي قلب افريقيا . وما يزال الاسلام قادراً على النفاذ في آماد الارض لا يتوقف . واذا كان الاسلام قد حول مجرى التاريخ في أوربا وآسيا في العصر الوسيط وعصر النهضة فانه سيستطيع أن يفعل ذلك في افريقيا وان يشكل دوائر جديدة يبث منها كلمة الله كلما تجمعت الأحداث ، وتواترت الخطوب حتى ينصهر في صورته المثلى « **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** » .

واليوم حيث تصل الحضارة الغربية الى أعلى ذراها ، تتطلع البشرية كلها

الى الاسلام ، وترى فيه الترياق الذي يزيل أزمتها ويقدم لها الحل الأمثـل لمعضلاتها المعقدة وقضاياها المثيرة وأزماتها العنيفة . ما زال الاسلام قادراً حقاً على أن يهدي البشرية الى الحــق ، واذا كانت التساؤلات تتردد في كل مكان . ماذا يستطيع الاسلام أن يعطي البشرية اليوم ، وقد ادلهم الخطب وتعقدت الامور ، ووصلت الحضارة الغربية المادية الى طريق مسدود .

فاننا نقول ان الاسلام قادر على أن يعطيها الكثير لو انها استجابت له ، يستطيع ان يعطيها منهج الحياة الأمثل الذي يحقق الأمن النفسي واليقين ، وان يقدم لها الضوء الصادق الكاشف الذي يبعث السكينة في القلوب والعقول ويقضي على القلق والتمزق .

وفي أحلك ساعات الأزمة التي يواجهها عالم الاسلام من تحديات الاستعمار والتغريب والتبشير . يقول هاملتون جب : ما زال الاسلام في قدرته أن يقدم للانسانية خدمة سامية جليلة . فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الاجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الاسلامية العظمى في افريقيا والهند وأندونسيا ، بل وتلك الجامعة الاسلامية الصغيرة في الصين ، او في اليابان لتبين كلها ان الاسلام ما زال له القدرة على أن يسيطر كلية على أمثال هــــذه العناصر المختلفة الاجناس والطبقات ، فاذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلا بد من الالتجاء الى الاسلام في حسم النزاع .

●

لقد سقطت كل الدعوات المتعصبـــة التي كانت تدعو الى قرب سقوط الاسلام او تلك التي كانت تقول لا بد ان يعيد الاسلام ما اغتصبه من أوربا

على مدى ألف سنة من سلطان الدولة الرومانية .

لقد تنبأ مستر غلادستون رئيس وزراء بريطانيا في أوائل هذا القرن ان الاسلام لا يطول عمره أكثر من مائتيعام ثم يتلاشى ولو بعث غلادستون حياً اليوم لرأى وهم ما تخيل وكذب ما ادعى .

لقد كان غلادستون يعرف ان المسلمين يقومون على أساس كلمة القرآن وحدها . ولذلك فقد أعلن انه ما دام ذلك الكتاب باقياً في الارض فلن يمكن السيطرة على المسلمين . ومن ثم بدأت تلك الحملات التبشيرية لتنصير المسلمين وحملات الاستشراق لإثارة الشبهات وحملات التغريب لنقل المسلمين الى تابعين وموالين للفكر الغربي . ومع ذلك فقد قاوم الاسلام حملات ابادته وتغييره وتزييفه بقوة ، واستطاع ان يجدد نفسه من داخله فيلتمس منابعه الاصيلة ويستمد منها ويقيم نهضة جديدة ، أما الألف عام التي عاشها العالم الاسلامي في أحضان الامبراطورية الرومانية فانها عجزت عن أن ترده مرة أخرى الى دينها او لغتها .

وتقول مجلة المشرق : لسان المبشرين في لبنان[١]: لقد تركت روما القديمة في بلاد المغرب العربي آثاراً لا تمحى . وكانت من تلك البلاد الافريقية الشمالية فتكلمت اللاتينية مدة ستة قرون ، وأنشأت الكنيسة آباءً عظاماً من أمثال القديس أغسطينوس . ومع ذلك فقد اضمحلت فيها جميع تلك الآثار الرومانية والمسيحية . وبسط الاسلام نفوذه فغطى كل شيء فكيف حدث هذا التغيير الغريب ، البعيد الأثر في تاريخ شواطىء البحر المتوسط ، وهذا سر مبهم غامض لم يجرب أحد فيما سلف أن يكشف القناع عنه ، ولهذا دعيت تلك القرون بالقرون المظلمة .

---

(١) المشرق م ٢٦ .

نعم بعد ألف سنة امّحى كل شيء، وجرت المحاولات في العصر الحديث بعد احتلال الجزائر منذ ١٨٣٠ حتى تحررها عام ١٩٦٢ (ومثلها المغرب وتونس وليبيا) على إعادة ذلك الفكر ، والدين واللغة . ولكن ما بذل في سبيل ذلك ، ما بذله الآباء البيض وغيرهم قد انتهى تماماً الى نفس ما انتهت اليه الحروب الصليبية بعد مائتي عام .

لقد جرت المحاولات الكثيرة لنقل المسلمين من وجهتهم الى وجهة أخرى. وفشلت الخطة فقد كان للمسلمين قِبلة واحدة منذ عرفوا الاسلام لم يحيدوا عنها ، تهوي اليها قلوبهم وعقولهم ، قلوبهم بالإيمان ، وعقولهم بالفكر ، ولم يكن البحر الابيض في يوم من الايام قبلتهم ، وما تزال الكعبة هي مركز الدائرة في أرض الاسلام ، ومنذ أزالت اللغة العربية لغة القرآن السريانية من سوريا ، والقبطية من مصر . فلا سبيل مرة أخرى الى تقدم لغة أخرى، بل ولا اللهجة العامية مقامها .

●

ولقد جرت المحاولات لنقل المسلمين الى مفاهيم الفكر الغربي المسيحي التلمودي بكل وسائل الإغراء او القسر او الخداع . ولكن المحاولات كلها ذهبت هباء ، وكانت دعوتهم الى انشاء نهضة لا صلة لها بالدين والاخلاق . ولكن المسلمين ما لبثوا ان أصبحوا يلتمسون لنهضتهم منهجاً أصيلاً من أصدق نص موثق وهو القرآن الكريم ، وكانوا بذلك أشد إيماناً بدينهم من العصور التي سبقت والتي استعلى فيها مفهوم جبرية الصوفية او عقلانية المعتزلة.

ولقد رمي المسلمون بالدعوات والمذاهب والايديولوجيات ففشلت . ثم طرحت عليهم أديان وعقائد فلم تجد لها صدى .

يقول العلامة فريد وجدي : « اذا كانت أمة لا تنجح فيها دعوة دينية

فهي الامة الاسلامية لأن دينها أجمع الاديان لمعتقدات البشر منقحة مهذبة تتفق مع العقل والعلم معاً ، فهم يؤمنون بجميع رسل الله وأمروا ان لا يفرقوا بين أحـــد منهم ، ويؤمنون بالكتب كلها ، ويحترمونها وهم مع احترامهم لجميع الكتب فان أكبر قوة في الارض تعجز عن ان تحولهم عن دينهم .

●

يقول أنيس فريحة : [ان أوربا قد حاولت عن طريق الكلمة تحقيق ما عجز عنه أجدادها الصليبيون عن طريق السيف في شأن إخضاع العالم كله للمسيح] .

ولكن الاسلام لم يفعل ذلك ولكنه دعا الناس بغير إكراه ، وعندما سيطر على الممالك ترك للناس حرية العقيدة . وقد شب أغلب الغربيين (على حد تعبير م. رح. كويت) على كراهية الاسلام وارتضعوا ذلك في لبان أمهاتهم ، بينما شب المسلمون على حب السيد المسيح والايمان بالمسيحية المنزلة وكتابها المنزل الانجيل ، وبسائر الكتب والاديان والانبياء لا يفرقون بين أحد منهم .

والمسلمون على حـــد تعبير (هاملتون جب) اول من ألف في مقارنات الاديان ، وكانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الاخرى « حاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالحجة والبرهان . أما الاوربيون ورجال الاديان الاخرى فقد هاجموا الاسلام بعنف وابتكروا أساليب التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله.

والمسلمون يؤمنون بأن المسيحية دين ، وأن الاسلام دين وزيادة . وقد أكد الباحثون ان الاسلام لم يدخل بلداً ثم خرج منه . يقول ألين برودريك : ان الاسلام هو المذهب الوحيد بين المذاهب التبشيرية الذي لم يضعف في الارض التي نبت فيها . ويلاحظ انه عندما يفتح الدين الاسلامي بلداً ما يسيطر عليها

كلية فلم يحدث ليومنا هذا ان خرج منها . هذا فضلاً عن قدرة الاسلام على تحويل خصومه الى أنصار وبراعته في اذابتهم، وموقف الاسلام من التتار يكشف عن هذه الحقيقة التاريخية على نحو غاية في الإثارة والإعجاب .

ولقد شهد الغربيون على أوربا المسيحية ومـــدى تعصبها وخصومتها للاسلام . قال هربرت سبنسر للشيخ محمد عبده في لقائه به : لقد محيَ الحق من عقول أهل أوربا واستحوذت عليها الأفكار المادية . فذهبت الفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت في اللاتين أولاً فأفسدت الاخـــلاق وأضعفت الفضيلة ، ثم سرت عدواها منهم الى الانجليز فهم الآن يرجعون القهقرى .

وصدق جمال الدين الأفغاني حين قال : ان الثقافة الاوربية لم تتخل قط عن نصرانيتها وتعصبها .

(٢)

صور أحد الباحثين الأجانب موقف الأمم من الاسلام فقال : لما كان الاسلام داعياً الى نفسه انتشر في قسم كبير من الدنيا . وفاق النصرانية في النجاح . وليس تفوق الاسلام منحصراً في ان الداخلين فيه أكثر عدداً من الداخلين في غيره من الوثنيين ، ان التجارب التي أجريت لتحويل المسلمين عن دينهم قد أخفقت تماماً . وقد امتد دين الإسلام من المغرب الى جاوه ، ومن زنجبار الى الصين ، ثم هو ينتشر بخطوات العباقرة في افريقيا .

وقد استولى على جسم كبير من الكونغو ووازامبيس في حين ان أوغنده هي أقوى دول الزنوج قد صارت محمدية من عهد قريب . والتمدن الغربي الذي هو جاد في هدم الوثنية الهندية ، انما هو يمهد السبيل للاسلام .

ليس الأهم ان نوضح انتشار الدعاية الاسلامية ، بل أهم منه ان الاسلام متى وقع في كفه أحد قبض عليه بقبضة من حديد فلا يفلته ، وقد عمل الاسلام في التمدن أكثر مما عمل غيره . فأمر بتوحيد الله وتعظيمه ، وأبدل التبتل والرهبانية بالرجولة ، وفتح باب الأمل للرقيق وباب الاخوة للنوع الانساني ، واعترف بالحقائق الجوهرية للطبيعة البشرية . والفضائل التي يعلمها الاسلام هي التي يمكن للشعوب المنحطة ان تفهمها : الاعتدال في التمتع باللذات ، والنظافة ، والعدل، والصبر ، والشجاعة ، والاحسان ، والضيافة،

والرضا بالقضاء فأمكنهم ان يعلموا أصول الفضائل ، وان يجتنبوا السيئات المهلكات .

ان الاسلام يعلم الأخوة العملية والمساواة الاجتماعية التامة بين جميع المسلمين .

لقد أثار الاستعمار الاوربي في وجهه العقبات حتى يتوقف عن الانتشار ، ومنع لغته العربية ـ لغة القرآن ـ من الانتشار بإحلال لغات غربية ، وإحياء لهجات إقليمية . وترك للارساليات ومؤسسات التعليم التبشيري العمل لإيقاف نمو الاسلام وتجميد الاسلام في بيئاته وذلك بإدخال القوانين الوضعية ومناهج التعليم الغربية ، وإحلال مناهج ونظم سياسية معارضة للاسلام ومفاهيم في الوطنية والقومية الاقليمية معارضة للاخوة الانسانية ، ومع هذا التحريف في التطبيق والحيلولة دون انتشار منهج الاسلام دين العمل. فقد حمل الاسلام نتيجة أخطاء الضعف والتخلف وأزمات الصراع والنكبات والنكسات التي حلت بالمسلمين . وحاول الغربيون من مسيحيين ويهود أن يقنعوا المسلمين بأن الاسلام هو مصدر تأخرهم وتخلفهم وضعفهم ، وانهم لو انطلقوا من قيده لاستطاعوا ان يلحقوا بالامم الناهضة . وقد كذبوا في ذلك وزيفوا . فقد عرف المسلمون النهضة بفضل الاسلام وسادوا العالم بمنهجه ، ولم يتخلفوا الا يوم انصرفوا عنه وتخلفوا عن تطبيقه .

ومن الحق ان التاريخ ليس مصدراً لمنهج الاسلام . وان أخطاء التطبيق في المجتمعات الاسلامية لا يمثل حقيقة الاسلام ولا يعتبر الاسلام مسؤولاً عنها، وليست فترة ضعف المسلمين أساساً للحكم على الاسلام من خلال مبادئه .

غير أن تركيز المسيحية الغربية على الاسلام كان شديداً وقاسياً . وقد تمثل في مواقف متعددة الى ما يكتبه الرحالون من الانجليز سواء منهم الرسميون وغيرهم ، نعرف حقيقة نتائج الاسلام .

متى دخلت قبيلة من السودان في الاسلام اختفت عنها في الحين « الوثنية » عبادة الشيطان وعبادة البشر وأكل لحم الإنسان وتقـــديم الضحايا البشرية وقتل الأولاد والسحر وصاروا يرتدون الثياب وحلت فيهم النظافة، وشعروا بالعظمة واحترام النفس ، وصار قرى الضيوف عندهم من الواجبات الدينية ، وندر شرب المسكرات وحرم القمار والرقص المنافي للعفة وفوضى اختلاط الجنسين ، وصارت طهارة العرض من اعظم الفرائض ، وذهبت البطالة والكسل ، وحل العمل والكد محلهما ، وتغلب النظام والرزانة على الشقاق ، وحرمت القسوة على الحيوان والعبيد ، وتعلموا الشعور بالإنسانية واللطف والأخوة ، ودخل الرق وتعدد الزوجات تحت قانون يحدد شرهما ويخففه . وفوق ذلك كله ، فالإسلام اقوى وأكمل دين اجتماعي في القناعة والاعتدال في تناول اللذات وكلما امتدت واتسعت الحضارة الأوربية امتدت معها الرذيلة واحتقار الناس ، أما الاسلام فإن تمدنه خال من غمط النـاس واحتقارهم ، وحاض على تعليم الكتابة والقراءة ، ولبس الثياب اللائقة والنظافة البدنية والصدق وعزة النفس . وان تمدين الإسلام وتقويمه للنفوس لعجيب ، يجب أن نأخذ في الاعتراف بالحقيقة ، وهي أن الإسلام ليس عدواً للنصرانية ، الاسلام نسخة طبق الأصل من دين إبراهيم وموسى على اصول النصرانية ، واليهودية دين خاص .

أما الاسلام فهو دين عام لجميع الأقوام ، ليس منحصراً مثل اليهودية في شعب واحد ، بل عام شامل لجميع اهل الأرض ، والمسلمون يؤمنون بأربعة معلمين عظام : إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وليس في تعاليم محمد شيء يعادي النصرانية او يضادها ، بل تعاليم محمد وسط بين اليهودية والنصرانية . « لقد جاء الاسلام فجرف الخرافات الفاسدة . وأقام ثورة وتمرداً على المسائل اللاهوتية الفارغة وكان خصماً للتبتل المزعوم . إنه تاج التقوى وقد جاء بعقيدة الدين وقطاعات مختلفة .

لقد استغل الاستعمار المسيحية في سبيل محاربة عالم الاسلام ، كما استغلت المسيحية الاستعمار في فرض نفوذها وإقامة قواعـــد مؤسساتها التبشيرية في قلب افريقيا وآسيا واحكام حملة ضخمة على المسلمين بغية زعزعة عقائدهم وإخراجهم من الاسلام وإحالتهم الى جماعات ملحدة مضطربة الفكر . وفي حضانة الاستعمار شن المبشرون والمستشرقون على الإسلام رسوله وكتابه حملة ضخمة ، وهي حملة قامت على التعصب والحقد . ولم تقم على النقد والحوار . ولم تأخذ طريق الاقناع بل طريق المسلمات التي تفترض أساساً ثم تلتمس لها الأسانيد من هنا وهناك .

وبينما يشن كتاب الغرب المسيحيون ومستشرقوهم ومبشروهم هـــذه الافتراءات والاتهامات والشبهات يقف كتاب المسلمين موقف الدفاع ويتناولون المسيحية والسيد المسيح بأسلوب عف كريم ، فهم يؤمنون بنبوته عليه السلام إيمانهم بنبوة محمد ﷺ ويعتقدون أن التوراة والإنجيل كتابان منزلان كالقرآن تماماً . ولا تختلف وجهات النظر إلا في شأن مبلغ صحة الكتاب المقدس في صورته الحالية .

وفضلاً عن ذلك فإن البعثات المسيحية والمبشرين المسيحيين لم يقتصروا على التبشير فعلاً بل جاوزوا هذا الحد واختاروا الوسائل الأخرى التي ليست من وسائل التبشير . بل هي وسائل الضغط السياسي والإطماع الاقتصادي والهدم الخلقي والعقائدي « إنهم في معظم الأقطار الافريقية حرموا المسلمين من التعليم بمعاونة القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم في وجه كل من لا يعتنق الديانة المسيحية او لا يختار لنفسه الاسم المسيحي بدلاً من الاسم الاسلامي على الأقل . وان الأقلية المسيحية ذات النفوذ التي خلقت بهـذه الطريقة هي التي تسيطر اليوم من النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية

على كثير من الدول الافريقية التي معظم سكانها من المسلمين[1] . يضاف الى هذا مؤازرة المسيحية الغربية في تسليم فلسطين لليهود . فإن القرار الذي اتخذ باسم وعد بلفور وقعته المسيحية في انجلترا ، والعالم المسيحي هو المسؤول عن قيام هذه المؤامرة ، وهو الذي ساعد على جعل هذا الوطن الاصطناعي دولة مستقلة . وهو الذي أمدها بالعون المالي والسلاح الحربي .

---

(١) المودودي من رسالته الى قداسة البابا .

(٤)

منذ ظهور الاسلام وإلى يومنا هذا تعرض «الاسلام» لمواجهات خطيرة من القوى العالمية المختلفة : الكنيسة والصهيونية والماركسية والغـــرب المسيحي الاستعماري ، كانت المحاولات تجري للسيطرة عليه والإدالة منه وتحريفه وصرف أهله عنه والتبشير فيهم لإخراجهم منهوالقضاء على أجنحته وأطرافه ولقد قامت الكنيسة بأقسى الحملات في معركتين فاصلتين : معركة الحروب الصليبية ، وإخراج المسلمين من الاندلس ، فقد ظلت البابوية في مدى قرنين كاملين تحرض أهل أوربا على خوض المعارك مع المسلمين في القدس . ولما عاد المسيحيون وقد بهرتهم أخلاق المسلمين وسماحتهم قطعت الكنيسة رقابهم وحرمتهم من ان يعلنوا ذلك حتى لا تذهب الحجة التي دفعت البابوات الى إعلان الحرب على المسلمين .

وقد كان البابا أوريان الثاني مؤجج هذه الحملات في خطابه الشهري الذي ألقاه في شهر تشرين الثاني عام ١٩٠٥ آمراً المسيحيين ان يشنوا الحرب على الجنس الشرير الذي كان يمتلك الارض المقدسة .

وكان ذلك مقدمة حملة جبارة طاغية لعلها استمرت بعد ذلك وما تزال مستمرة ، تدعو كما وصفها محمد أسد الى تسميم العقل الغربي ضد العالم الاسلامي عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الاسلامية تفسيراً خاطئاً متعمداً لأنه

اذا كان للدعوة الى حملة صليبية ان تحتفظ بصحتها كان من الواجب ان يوسم نبي المسلمين بأنه عدو المسيح . وأن يصور دينه بأكلح العبارات، وهكذا قادت الكنيسة أضخم حملة على الاسلام والمسلمين ، وهي أقسى ما وصـــل اليه الاستعمار من بعد .

وفي الاندلس كانت الحملة الاخرى الأشد عنفاً فقد عومل المسلمون أسوأ معاملة وحوصروا واضطهـدوا وأرغموا على ترك دينهم وعلى الهجرة . وكانت صفحـــة محاكم التفتيش من أقسى صفحات الكنيسة قســوة على المسلمين .

وتاريخ الأب جريوار السابع وموقفه من الحــرب في أسبانيا الاسلامية يعطي صورة مريرة قاسية فقد وجه الدعوة الصريحة الى أمراء المسيحية يحضهم على المشاركة في هذه الحرب المقدسة . ويعلن مقدماً سيادتهم على الاراضي التي ينزعونها من المسلمين .

ولكن الاسلام الذي حاربته أوربا بمثل هذا العنف استطاع ان ينفذ الى أعماقها . وأن يكتسب الكثيرين من المثقفين ويحررهم من إطار التقليد والتبعيـة ، ومنهم من أسلم صراحة ومنهم من عرف للاسلام قدره ، بل ان المسيحية نفسها على تلك الصورة قد وجدت من الغربيين الذين لم يؤمنوا بالاسلام من يستطيع ان يكشف عن زيف التناقض والازدواجية .

فالمسيحية التي تدعو الى الرحمة والحنان والشفقة لم تكن بحال هي المسيحية التي تدعو الى القتل والحرق بالنار وإزهاق الارواح . وهي التي تقبل اقتحام بيت المقدس ، وقتل سبعين ألفاً من المسلمين كانت الخيـــول تغوص براكبيها في دمائهم .

تلك هي الصورة التي أزعجت الكثيرين من المفكرين وكانت مصـــدر نقدهم . وفي مقدمتهم نيتشه ورينان .

ويرى نيتشه ان المسيحية خدمت اليهود في أوربا ويقول : ان اليهود ثأروا من أوربا المسيحية اذ المسيحية من بنات أفكارهم ، وقد حمتهم من ظلم الحكام وجور الاحكام حتى انتشروا في جميع البلدان المسيحية وتسودوا عليها وملكوا ناصيتها وقبضوا أموالها ، فالمسيحية أفادت اليهود ، ولكنها أضرت بالاوربيين . وقال ان القيم التي سنتها المسيحية هي السبب في وقف التقدم وجمود الحضارة .

أما أرنست رينان فانه انكر ألوهية المسيح . وقال ان المسيح لا يزيد على ان يكون انساناً عظيماً .

ومن منطلق نيتشه ورينان بدأت حملة ضخمة تصدرتها الفلسفة الحديثة على الدين بعامة والمسيحية والكنيسة بصفة خاصة .

ولقد كانت مفاهيم الاسلام التي هزت جمود الكنيسة وأشعلت دعوة الإصلاح التي حمل لواءها لوثر وكلفن قد فتحت الباب واسعاً أمام حرية العقل والرأي حتى لنرى العشرات من المثقفين يواجهون تفسيرات المسيحية بالنقد والمعارضة .

ومن ثم يمكن القول ان ظاهرة جديدة بدأت تشق طريقها الى التاريخ المعاصر : تلك ظاهرة تحرر العقل من تفسيرات المسيحية ، والنظر فيها نظرة أكثر عمقاً ، والبحث والتنقيب عن الدين الحق . ثم وجوده في الإسلام.

ولقد وجد الكثيرون في الاسلام ما تحتاج اليه البشرية . وكشف الكثيرون عن تعقيدات التفسيرات المسيحية التي ليست هي المنزلة من عند الله ، بل المسيحية الاوربية التي أنشأها بولس : هذه الحركة الجديدة قد

شكلت تياراً قوياً في مواجهة المبشرين والمستشرقين ومتعصبي الفكر الغربي. وأبرز مظاهر هذه الحركة هي :

أولاً : تبين ان الشخصية التي يدعيها المسيحيون للمسيح عليه السلام ليست تاريخية قطعاً والباحث عن ذلك بالأساليب العلمية لا بد أن يخـــرج من بحثـــه صفر اليدين . والاختلاف بين المسيحيين شديد جداً في أصول المسيحية وفي تكوين العقيدة عنـــد المسيح . وان أكثر الذين ينتمون الى النصرانية لا يعتقدون بصحتها .

ثانياً : معرفة الكثيرين من المسيحيين بأن الانجيل الذي في أيديهم أحدث عهداً من المسيحية ، ووقوفهم على الاختلاف الواقع بين كتبهم الدينية له تأثير كبير في اعراضهم عن بعض ما فيها من نصوص ، بينما المسلمون لا يرتابون قط بأن القرآن الذي بين أيديهم هو الكتاب المنزل على نبيهم لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل . (خالد شلدريك)

ثالثاً : ان الكتب الموجودة في المكتبات العامة في أوربا مملوءة بالتحامل والمطاعن حيث تزعم ان الاسلام ليس ديناً مستقلاً .

وقد تساءل الكثيرون: اذا كان الاسلام لا أهمية له الى هذا الحد ، فلماذا يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن اليه . وقد تأكد بعضهم (ومنهم الدكتور خالد شلدريك) انه لولا ان الاســلام دين يخشاه هؤلاء الناس ، ويحسبون له حساباً كبيراً لما فيه من القوة والحيوية لما بذلوا كل هذا لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته .

رابعاً : كذب الذين عرفوا الاسلام من الاوربيين فرية انتشار الاســلام بالسيف . وقالوا ان المسيحيين الاوربيين يعلمون هم بأنفسهم انها كاذبة وغير

معقولة ، وانها تخالف وقائع التاريخ كما تخالف حقائق الاسلام ، ولو انتشر الاسلام بالسيف كما زعموا لما بقيت هذه الكنائس والبطريركيات والأوضاع غير الاسلامية المنتشرة في العالم الاسلامي والمتسلسلة من أقدم أزمانه الى الآن، وان تسليط السيف على العقائد من شأنهم هم بدليل ما فعلوه في الاندلس وعلى كل حال فاذا كان هناك دين انتشر بالسيف فليس هو الاسلام بل غيره . (خالد شلدريك)

خامساً : الإعجاب بابطال المسلمين الذين خرجوا من الصحراء حفاة الأقدام فاستطاعوا ان يكونوا أعظم قوة في التاريخ وأعدل قضاة الأرض ، وأشهر المشرعين على الإطلاق . (لورد هدلي)

سادساً : بساطة الاسلام التي تأسر النفس لخلوه من كل مغالطة او اتهام وهو الدين الذي ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التي لا يسع العقل التسليم بها ، بل هو الدين الذي يدعو الانسانية الى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته .

سابعاً : لم يجتهد المسلمون في حين من الأحيان في حشر أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلوق الناس وصدورهم بالقوة والفظاعة والتعذيب ، ولم يشهروا السلاح الا حين الضرورة القصوى لحماية الحياة البشرية ، هذا فضلاً عن مسلك المبشر الاسلامي الحقيقي الذي كان له الفضل في انتقال الكثيرين الى الاسلام، وهو انه لا يحاول ارغام سامعيه او التأثير فيهم ، بل إيماناً بأن الدخول في الاسلام يجب ان يكون بإرادة الانسان الحرة وبرأيه الذاتي .

ثامناً : اهتمام المسلمين بدينهم والإخلاص له في كل يوم وساعة مما لا يرى مثله في النصرانية فان النصراني يحترم دينه عادة يوم الأحد حتى اذا مضى

الأحد نسي دينه طول الاسبوع ، أما المسلم فبعكس ذلك يحب دينه دائماً وسواء عنده أكان الجمعة أم غيرها .

تاسعاً : الاعتقاد بأنه توجـــد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالاسلام في قلوبهم ، ولكن مخالفة الإجماع وخوف الانتقاد ، والرغبة في اجتناب كل ضيق او تغيير يحملهم على عدم الجهر بما في قلوبهم .

عاشراً : ان الدافع الأكبر للانسلاخ عن المسيحية هو ما يلمس من عدم التسامح الديني بين الطوائف المسيحية بسبب الخلافات المذهبية .

حادي عشر : ان الاسلام أرجع الدين الى حالته الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد الفلسفية بل قال بوضوح لا إله إلا الله وبذلك خلا الإسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاوربية والذي جعـــل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية . وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلنون انهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين .

ثاني عشر : لم يقرر الاسلام شيئاً من وساطة رجال الدين بين الإله والشعب يرجع اليهم الحل والعقد في كل الامور ولم يرض بنظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة ومستفيضة ، وعلى عادة التنسك والخروج من الدنيا . فقد قرر الاشتغال بالدنيا والآخرة[1] .

ثالث عشر : انفراد الاسلام بتحريم الخمور ، وهي مزية لا تجدها في

---

(١) استخلصت هذه النصوص من اعترافات رجال أسلموا هم : خالد شلدريك ، اللورد هدلي ، عبد الكريم جرمانوس ، وبعض الكتاب المنصفين أمثال : ريليه ميليه .

كتب الديانات الاخرى ، بل ربما تجـــد في بعضها تشجيعاً على الخمر كقول القديس بولس لتلميذ له : خذ قليلاً من الخمر لإصلاح معدتك . كما تجد فيها حادثة تحويل الأواني المملوءة ماء الى خمر : أين هذا مما جاء في الاســلام . فلم يكد يبلغ المسلمين تحريم الله للخمر ، حتى أريقت دنانها وأكوابها فسالت بها الشوارع أنهاراً .

(٥)

ان الكثيرين[١] من مفكري أوربا الذين عالجوا أزمة الحضارة وأزمة الانسان المعاصر . لم يجدوا غير الاسلام ترياقاً وعلاجاً للبشرية . فبرناردشو يقول : (انا على يقين من أن دين محمد سيكون دين اوربا منغير شك. انه قد أخذ الاوربيون يقبلونه اليوم . وفي القرن التالي سيكون أهل اوربا أكثر معرفة بفائدة اعتقاد محمد في حل مشاكلهم) : ويقول ولسن روسن في كتابه ثلاثون عاماً في الاسلام : (ولقد وجدت في الاسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طراً) :

الأولى : في قول القرآن « **إنما المؤمنون إخوة** » فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية .

الثانية : فرض الزكاة على كل ذي مال . وتخويل الفقراء حق أخذها غصباً اذا امتنع الاغنياء عن دفعها طوعاً .

ويقول أرنولد توينبي : ان الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقي بتقرير مبدأ الإخاء الاسلامي والمساواة المطلقة بين المسلمين ، وعلى

---

(١) الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني للمؤلف .

الغرب ان يأخذ بهذا المبدأ الاسلامي لتنجو المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر الفناء .

ويقول اللورد هنري : لو ندبت لجنة من الانجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

ويقول رينان : وما يدرينا ان يعود العقل الإسلامي الولود والكثير المواهب الى إبداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة . ان فترات الازدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة .

ويقول هورتن الألماني : ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

●

وإذا كان الاسلام قد واجه حملة الكنيسة والفكر الغربي المسيحي والتبشير من ناحية . فانه واجه حملة جديدة من ناحية اليهودية الصهيونية ، فقد عمد دعاة تدمير البشرية في العقود الأخيرة من هذا القرن الى اذاعة الكثير من الأفكار والمفاهيم المنحرفة التي ترمي الى مواجهة الاسلام كمنهج حياة بالخصومة ، فضلاً عن دعوات التفرقة العنصرية . ومع ذلك فما زال الاسلام مؤملاً على ان يقدم للانسانية الترياق ، وكما خاض الاسلام معركة مع الفلسفة اليونانية في الماضي وما دسّ عليه من إسرائيليات ومفاهيم وثنية ومجوسية ، فانه يخوض اليوم معركة مع الإلحاد والماركسية ، بالإضافة الى اليهودية التلمودية حتى يخيل للباحث والمراقب ان هناك إطباق على الاسلام من كل الجهات ، وان حالة تاريخية شبيهة بإطباق الصليبيين والتتار على الاسلام في القرن الخامس الهجري .

ولقد دفع الباحثون المنصفون موقف العداء والعدوان الذي تقوم به أوربا المسيحية للاسلام حتى يقول الكونت كايتاني في كتابه عن تاريخ الاسلام الذي أمضى ثلاثين عاماً في إعداده في عشرة مجلدات ضخمة مبيناً العوامل التي دفعته الى وضع هذا التاريخ (عام ١٩٢٧) .

ان الديانة الاسلامية هي أقوى دين في العالم بعد المسيحية ، والمسلمون يعملون بقوة إيمانهم على صد تيار المسيحية ، فوقع من جراء ذلك تشادٌّ بين هاتين الديانتين . وما زالت آثاره باقية الى عصرنا الحاضر ، وستبقى كذلك قروناً عديدة ما دامت أوربا المسيحية تعجـــز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل الفعالة التي تمتلكها .

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة الى أن ظهور الاسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين ان الأمر بعكس ذلك . فقد أدت الديانة الاسلامية عن طريق غـــير مباشر خدمات جلىّ الى المسيحية ، اذ لو لم تظهر الديانة الاسلامية وقدر للمسيحية الارثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أي دليل على نهضتها ـ أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ الى اليوم ، وحالت دون سطوع مدنية العرب ، فماذا يكون مصـــير غربي آسيا وأوربا في القرون الوسطى المظلمة ، أو لم تحل النهضة البروتستانية (وهي من نتاج الاسلام) التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط . بَيْدَ ان هذه الخدمات التي قام بها الاسلام نحو المسيحية قد كادت ان تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين أتباع هاتين الديانتين . فحجب وجه الحقيقة عنهم . وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد .

ثم يشير المؤلف الى الدقة المتناهية في التاريخ المتحدث عن نبي الاسلام

فيقول : ان الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين (الاسلام) تندر أن نجد أمثالها في الديانات الاخرى . فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الانجيل ناقص لا يشفي الغليل . أما حياة محمد فان لدينا منها قسماً مهماً حقيقياً بحيث يحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بأن لمحمد شخصية بارزة في تاريخ البشرية ، وانه مشرع كبير ، أحدث أعظم انقلاب في الأخلاق والسياسة بعد المسيحية .

(٦)

ولم يقف أثر الاسلام عند المسيحية وحدها ، ولكنه تعداها الى اليهودية . وأمامنا تجربة ليونولدفايس تلقي الظل الواضح وتكشف الحقيقة : في السنوات السابقة عندما أصبحت قانطاً من دين آبائي وأجدادي ، فكرت في المسيحية بعض الشيء . لقد كان مفهوم المسيحية عن الله في نظري أسمى وأفضل الى حد لا نهاية له من مفهوم العهد القديم ، ذلك أنه لم يقصر اهتمام الله ومحبته على أي جماعة من الناس بل افترض أبوته للانسانية جمعاء ، بيد انه كان هناك عنصر واحد من النظرة الدينية المسيحية كان ينتقص من عالميته : هي تمييزه وتفريقه بين الروح والجسد ، بين عالم المعتقد وعالم الشؤون العملية . وبسبب من افتراق المسيحية الباكر هذا عن جميع النزعات والميول التي تهدف الى توكيد الحياة والمساعي الدنيوية ، فقد شعرت انها كانت قد انقطعت منذ زمن طويل عن أن تقدم قوة أدبية أخلاقية دافعة الى المدنية الغربية . فقد ألف أتباعها الفكرة القائلة بأنه لم يكن من شأن الدين أن يتدخل في الحياة العملية . لقد اكتفوا بأن ينظروا الى المعتقد الديني نظرتهم الى تقليد مسكن لم يقصد به ان يغـــذي أكثر من معنى غامض للفضيلة الشخصية ، وخاصة الفضيلة الجنسية في الرجال والنساء افرادياً ، وكان يساعدهم على هذا اتجاه قديم جداً اصطنعته الكنيسة ـ اتباعاً لمبدأ الفصل بين ما لله وما لقيصر في حقل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية ـ فلم تحدث أيما تغيير يذكر ، فقد كان نتيجة ذلك

ان السياسة والتجارة المسيحيتين قد تطورتا في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي كان المسيح قد دعا اليه . لقد فشل الدين الذي اعتنقه الغرب بسبب من عدم تزويده أتباعه بإرشاد ثابت مستقر في شؤونهم الدنيوية فيما كان في رأيي يبدو انه رسالة المسيح الحقيقية . وانه في الحق المهمة الرئيسية لكل دين : ان يبين للانسان : لا كيف يحس ويشعر إحساساً وشعوراً صالحين فقط ، بل كيف يحيا حياة صالحة أيضاً ، وبشعور غرزي . فان دينه قد خيب أمله ، وبطريقة ما . فقد الانســان الغربي خلال القرون كل إيمانه الحقيقي بالمسيحية ، وبفقده هذا الإيمان َفقـَدَ الاقتناع بأن الكون انما كان تعبيراً لقوة واحدة منظمة وانه لذلك كان يشكل كلا عضوياً واحداً وبسبب انه فقد هذا الاقتناع كان يعيش في فراغ روحي وخلقي .

لقد رأيت في ترك الغرب التدريجي للمسيحية وانصرافه عنها ثورة ضد ازدراء الحياة التي بشر بها بولس والتي أبهمت قديماً جداً وتماماً جداً تعاليم المسيح ، فكيف إذن يستطيع المجتمع الغربي ان يستمر في ادعائه انه مجتمع مسيحي ، وكيف يستطيع أن يرجو دونما إيمان ثابت ان يتغلب على فوضاه الأدبية والأخلاقية الحاضرة .

●

أما بالنسبة لفهم الغربي للاسلام فان ليوبولد فايس يصور ذلك على النحو الذي شاهده بنفسه في أوربا المسيحية : « كانت ملاحظاتي الخاصة قد أقنعتني الآن بأن رأس الغربي العادي ، كان يحمل صورة مشوهة بالكلية عن الاسلام وأن ما رأيته من صفحات القرآن لم يكن نظرة عالمية مادية غير ناضجة ، بل على العكس وعياً كثيفاً يعـــبر عن نفسه ، لقد كان واضحاً عندي ان تأخر المسلمين لم يكن ناجماً عن أي نقص في الاسلام ، بل من عدم عملهم هم أنفسهم بتعاليمه . ذلك ان الاسلام في الحق هو الذي حمل المسلمين الأولين

الى اعالي الدروات الثقافية بتوجيه طاقاتهم كلها نحو التفكير الواعي كوسيلة وحيدة لفهم طبيعة خلق الله ، وبالتالي لفهم إرادته . ان الاسلام لم يطلب اليهم أن يؤمنوا بعقائد يعسر او يتعذر فهمها ، والحق انه ما من عقيدة كهذه يمكن أن توجد في رسالة النبي ، وهكذا فان التعطش الى المعرفة التي تميز به التاريخ الاسلامي الأول لم يحمل كما حمل في سائر أنحاء العالم على انه يؤكد ذاته في صراع مؤلم ضد الايمان ، وبالعكس لقد انبثق من ذلك الايمان وحده » .

وهكذا انكشف الاسـلام عن حقيقته للعقول المضيئة التي تبينته والتي درست الأديان المختلفة وقارنت واهتدت الى الحق .

الفصل الثاني

أزمة الغرب الدينية

ان الفكر الغربي المسيحي الذي يحاول أن يوجه الضربات للاسلام عن طريق التبشير والاستشراق والاستعمار رغبة في القضاء عليه او تحريفه او إثارة الشبهات حوله يواجه تحدياً خطيراً . فقد وجهت اليه في العصر الحديث ضربتان لا ضربة واحدة ، تلك هما الصهيونية والماركسية اللتان ما زالتا تقتلعانه من جذوره وتحويانه على نحو يدمر كل مقوماته ويفسد كل مقدراته .

يقول أحد الباحثين[1]: ان التعاليم الماركسية والماسونية التي سيطرت على التعليم في البلاد الأوربية وفرقت بين الدين المسيحي والتربية قد أحدثت آثاراً بعيدة المدى . فقد أصبحوا يعتبرون الكنيسة الكاثوليكية كتحفة أثرية وعقيدة عتيقة دخلت في حكم التاريخ . وقد أخذت فرنسا تبتعد عن

---

(١) الرسالة : بحث المسيحية وأوربا م ١٩٥٢ .

المسيحية منذ القرن الثامن عشر . وقد أصبح إغراقها في الإلحاد في الوقت الحاضر في أقصى درجة ممكنة . ويشمل ذلك عدداً كبيراً من الفرنسيين وخصوصاً أفاضلهم ممن ينعتون بكونهم محافظين وممن عرفوا بانتمائهم على النظريات القديمـة .

وقد أشار الراهب ميتوكلار في بحث صادرته الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهوره الى أن من بواعث الإلحاد والكفر والابتعاد عن تعاليم المسيحية كون من سبقوهم فيها كانوا من صنوف الرأسماليين يباركون تصرفاتهم في استغلال المال والعملة . فاذا قام فيها من يندد بأعمال الرأسماليين مثل الأب لكولدير والأب لامني فان الكنيسة تقاومه وتحرم النظر في كتبه .

وتشير المصادر الى ان الصراع بين اليهودية والمسيحية لم يتوقف منذ بدأ عند ظهور الأخيرة وتتحدث عن تطويق اليهودية للمسيحية مرتين : مرة على يد بولس ومرة في العصر الحديث .

يقول الأب الف كونجار : لقد كان اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهداء في العصور الأولى راجعين الى وشايات يهودية في عالم كانت فيه تلك اليهودية تبسط أجنحتها وتنعم بالسّطوة والنفوذ .

وأوضح مارسيل سيمون في كتابه (اسرائيل الجرثومة) ان نزعة مناهضة السامية في أسفار الكهنة المسيحيين القدامى كانت تقابل تعاليم العـداء للمسيحية في التلمود .

والمعروف (ان اليهود رفضوا رسالة السيد المسيح رفضاً تاماً وأوغلوا في ذمه والطعن في رسالته حتى نبذوه بما لم ينبذ به رسول في تاريخ الديانات قاطبة) .

وبينما تكشف المصادر على كراهية اليهودية للمسيح ومعارضتها له ،

يشير الباحثون الى احتواء اليهودية المسيحية وتغييرها تغييراً جذرياً .

وقد أشار أرنولد توينبي وهو المؤرخ العالمي المسيحي الاتجاه في كتابه مختصر دراسة التاريخ[1]. الى [تحول المسيحية الى فكرة الإله الغيـــور] ويحاول ان يبحث هذا التحول فيقول : ما هو السبب في تقبل المسيحية مرة أخرى : الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الغيور ، ويقول ان هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين . كان الثمن الذي دفعته المسيحية في كفاحها المرير : كفاح الحياة او الموت مع عبادة قيصر .

ويقول : ان يهوه إله اليهود من سماته الغضب والقسوة والبطش ، وعدم التسامح . ويعني المؤلف ان المسيحية الجـــديدة قد واءمت بين فكرتين متناقضتين .

الأولى : فكرة البطش وعدم التسامح .

الثانية : فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها دعائم المسيحية الأصلية . وهذا التعليل صحيح والتاريخ يؤكده والوقائع تثبت صحته .

فالمسيحية تدعو الى الأخلاق ، واليهود يدعون الى إزالة كل قيـــد على الحرية البشرية وأوربا الآن تأخذ بمفهوم اليهود وتدع مفهوم المسيحية ، والمسيحية تحرم الربا ، واليهود يقومون على تجارة المال . وأوربا الآن تأخذ بمفهوم اليهود وترفض مفهوم المسيحية ، والمسيحية تدعو الى الزهد ، ويقول المسيح ان مملكتي ليست في هذا العالم ، واليهود يدعون الى احتلال مطامع الدنيا ، والغرب الآن يأخذ بأسلوب اليهود ويدع مفهوم المسيحية .

---

(١) جـ ٣ ص ١٦٧ (مختصر دراسة التاريخ) توينبي .

ومعنى هـــذا ان الفكر اليهودي التلمودي قد سيطر سيطرة كاملة على الفكر الغربي واحتواه ، وأن قبول الغرب للدعوات الليبرالية والاشتراكية هو بمثابة تحول عن طابعه المسيحي وقضاء على الذاتية الغربية التي شكلتها المسيحية .

ولا ريب ان ما حققته اليهودية منذ الثورة الفرنسية الى اليوم يمثل أخطر تحول في التاريخ البشري كله فقد كانت أوربا قد ضيقت الخناق على اليهود وحصرتهم في الجيتو ، وفرضت عليهم أزياء وأوضاعاً معينة . وأصدرت عشرات القوانين التي تحول دون اندماجهم في المجتمع المسيحي ، وأصبح اليهود علماً على تلك الفئة المنبوذة التي تقوم على الاقراض بالربا . غـير ان اليهود استطاعوا أن يحطموا قيود الكنيسة والمسيحية . وأنشأوا عشرات الجمعيات السرية تحت اسم الماسونية ، وجعلوا هدفهم تدمير البابوية ونفوذ الكنيسة . وقد استطاعوا أن يحققـوا ذلك بإسالة الدماء أنهاراً في الثورة الفرنسية وثورات أخرى في أنحاء أوربا باسم عصر التنوير واستطاعوا بعدها تدمير وحدة الكنيسة المسيحية ، وإقامة القوميات ، وإنشاء مبدأ حرية المواطن دون النظر الى دينه . وبذلك تمزقت الوحدة الاوربية المسيحية. واندلع صراع القوميات ، ومذاهب العنصرية ، وانقسمت أوربا الى دعوة الدم الابيض والجنس التوتوني وألمانيا فوق الجميع . وبذلك خلق اليهـــود القوميات وجعلوها تتصارع على نحو يحول دون تجمعات كبرى ، وهدموا الامبراطوريات الكبرى ، وسيطروا على كل شيء ، وحولوا اقراض الربا الذي كان موضع كراهيتهم والحقد عليهم الى نظام المصارف الشرعية الحرة. واختفوا هم وراء الأسهم والسنـــدات ، وسيطروا بذلك ليس على المال والاقتصاد وحده فهم الذين وضعوا العالم كله في إطار النظام الربوي ، وإنما سيطروا على الثقافة والأدب والطب والصحافة والإعلام ، وأصبح إنشـاء

دوائر المعارف وطبع الكتب والمؤلفات في أيديهم يمنعون منه ما يشاؤون مما لا يتفق مع أهدافهم وغاياتهم .

ومن ثم استوعب اليهود الفكر الأوربي وسيطروا عليه ، وطرحوا عليه نظريات فرويد وماركس وليفي بريل ودوركايم وسارتر وغيرها مما غيرت أصول الفلسفات المثالية التي وضعها المسيحيون بديلاً للدين بعد أن تخلوا عنه. وهكذا خطا الغرب خطوات واسعة: كانت أولاها محاربة المسيحية والتحرر منها الى نظام فيه طابع الاخلاق والقيم قائمة على أساس العقل وتحت عنوان الفلسفة المثالية ، غير ان اليهودية استطاعت ان تسيطر على الفكر الغربي ، وتدفع اليه مفاهيم التلمود ومناهج الصهيونية مصوغة في أسلوب علمي تحت اسم الفلسفة المادية . وكانت أخطر ثمار اليهودية التلمودية :النظرية الماركسية وبذلك سقطت المسيحية الأوربية في أنياب اليهودية التلمودية حتى وصلت سيطرتها الى النخاع ، على نحو حمل البابوية والكنيسة الكاثوليكية على تبرئة اليهود من محاولة صلب المسيح ، وهذا أخطر ما وصلت اليه اليهودية في السيطرة على المسيحية والفكر الغربي كله .

●

وقد أفاضت الأبحاث عن صراع اليهودية والمسيحية في الغرب ، ومحاولة اليهودية التلمودية في السيطرة على المسيحية والفكر الغربي ، وكانت فكرة الربا هي كبرى قضايا هذا التحدي .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : احتكر اليهود في العالم المسيحي النشاط المالي طوال القرون الوسطى وسيطروا سيطرة شبه تامة على التجارة المحلية والعالمية ، وقد بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوربية ان لفظ يهودي (Judaas) في الغرب الأوربي أصبح مرادفاً للفظ تاجر (merctor) .

والمعروف ان الكنيسة في العصور الوسطى حرمت أكل الربا الذي نهى عنه الانجيل والمسيح . ولذلك لم يجرؤ مسيحي في تلك العصور على المجاهرة بأقراض المال بفائدة . فاستغل اليهود هذه الظاهرة التي تتفق وأخلاقهم وحبهم للمال . واحتكروا النشاط المالي في غرب أوربا على أوسع نطاق فأقرضوا الفرسان والأمراء ، بل أقرضوا الكنيسة نفسها لتتمكن من إتمام منشآتها الضخمة الباهظة التكاليف .

وبذلك وقع الاوربيون فريسة للديون وأرباحها الفاحشة وفوائدها ، وهكذا تلفت ملوك أوربا وأمراؤها وفرسانها وأساقفتها وعامة الناس فيها فوجدوا أنفسهم أمام شراذم من اليهود تعيش بينهم ولا ترعى فيهم إلاّ ولا ذمة يزدادون غنىً ويزدادون هُمْ فقراً يمتصون دماءهم وينتزعون ممتلكاتهم .

وكان هذا هو السبب الرئيسي لما تعرض له اليهود على أيدي المسيحيين في غرب اوربا من كراهية تحولت أحياناً الى اضطهاد .

ويمكن القول تأسيساً على ذلك بأن ما حدث نتيجة هذا هو تغير مفاهيم المسيحية وتحولها الى تطبيق منهج اليهود في إباحة الربا .

ولقد كانت مأساة اليهود على يد المسيحية في هذا الوقت أزمة كبرى . فقد كان الحكام المسيحيون بعد زوال دولة المسلمين بالأندلس يحرقون اليهود بالجملة ، بل قد أصدر فرناند وإيزابلا قراراً عام ١٤٩٢ م بطرد جميع يهود أسبانيا في مدى أربعة شهور دون أن يسمح لهم بنقل أموالهم وثرواتهم ، فنزح معظمهم الى المغرب وشمال افريقيا . ولا أدل على تسامح المسلمين مع اليهود من السماح لهم بالاحتفاظ بهياكلهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الاسلامي في الوقت الذي أمرت الكنيسة في غرب أوربا بتحطيم هياكل اليهود .

أما في المشرق فقد أكرم صلاح الدين اليهود ، إلا أنه اكتشف مؤامرة للقضاء على حكمه في مصر عن طريق الاتصال بالصليبيين وتولى كتابة الرسائل لهم أحد اليهود في مصر .

وإذا كانت اليهودية قد حاولت حـــرف المسيحية عن أهم أهدافها ، وهو الرحمة فلا ريب ان الكنيسة قد استجابت لذلك مرة أخرى،او أرغمت عليه حتى يقول برتراندرسل انه لم يعتنق المسيحية منـــذ نشأتها سوى فرد واحد هو المسيح . ويقول الدكتور أمير بقطر ، لقـــد ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه في أوربا وأمريكا بالخلق المسيحي ، فقد انهار هذا الخلق في كثير من البلدان .

ومن هنا استشرت الأزمة الدينية في الغرب وجرت المحاولات لتصحيح الموقف ، فقد كان العلم الحديث بدعوته الى حرية النظر واطلاق العقل من قيوده خطراً كبيراً على المسلمات القديمة كالتجسيد والثالوث .

ويقول أحد الباحثين في ذلك : ان كثيراً من المعتقدات التي لم تعد اليوم « حقائق إيمانية لا يمكن أن تنتقد » لأنها فوق العقل كانت في القديم مقبولة من العقل بل مستوحاة منه . ففكرتا التجسيد والثالوث وغيرهما كانت قريبة الى التأملات الافلاطونية ومنسجمة مع الآراء الميتافيزيقية في القرن الثالث والقرون الوسطى . فكان الذي دفع الأقدمين الى الاعتقاد بها هو نفسه الذي يدفعنا اليوم الى عدم الاعتقاد . وقد تجلى ذلك في مواقف كثيرة نشهدها في العصر الحديث، منهاوقوف كثيرين من عمالقة الدين المسيحي في المجامع العامة لمعارضة بعض المسلمات . فقد نشرت مجلة « لايف » الامريكية في نوفمبر سنة ١٩٦٧ ان عميد كلية اللاهوت في نيويورك قام بنوع من الثورة . وقد ترتب على ذلك ان حكم رجال الكنيسة ان اليهودية تهدم المسيحية وان الاسلام يهدم اليهودية والمسيحية معاً بتهمة التكتيك في الأناجيل . وان الرجل لا يعتقد بالمعجزات التي وردت في الانجيل .

وقال الرجل أمام الجميع: أولاً أنتم تتكلمون عن الانجيل ولا يوجد انجيل، إنما توجد عدة أناجيل . وان أي حادثة واحدة من المنسوب الى السيد المسيح نجد كل إنجيل يذكرها بطريقة مختلفة . ويبدو ان الحقيقة حاجة أخرى غير ما في الأناجيل ، وان أول إنجيل كتب بعد وفاة المسيح بمائتي سنة . وذلك الوقت الذي كتب فيه الانجيل لم يكن أحد ممن شهدوا المسيح موجوداً شاهد عين . ثم بأي حق تفرض الكنيسة إيماناً معيناً على الناس ، او تفرض عقيدة معينة على الناس .

ولقد عمدت اليهودية التلمودية الى طرح الاغريقية مرة أخرى (وهي من اليهودية) على المجتمع الغربي بمختلف مفاهيمها السياسية والاجتماعية .

أما مفهومها السياسي (كل ما عدا الاغريق برابرة) فهو واضح في التطبيق السياسي الذي تقوم به اوربا المسيحية في المستعمرات حيث تعامل الملوّنين على أنهم جنس أقل من حيث المكانة البشرية من الجنس الابيض ، ثم تدعو الى التحضر عن طريق التبشير المسيحي .

فهذه النظرية الاغريقية الرومانية الوثنية قد اعتنقها الغرب المسيحي اليوم ، وكانت عاملاً هاماً في تأييده قسوة الاستعمار على الشعوب غير المسيحية .

أما مفهومها الاجتماعي في الايمان بالمادة وأصولها محل الايمان الديني، وبناء هيكل الحضارة الربوية والإباحية القائمة على لذات الجسد وتضخيم عالم الحس وإراقة الدم والقتل والتمثيل والتعذيب . فقد ذهبت فيه الحضارة الغربية الى أقصى حدّ .

ولا ريب ان الحربين العالميتين كانتا من أخطر مؤامرات اليهود على الغرب المسيحي، ومع ذلك فان أحداً لم يتنبه لذلك التنبه الكافي حتى يقول ملك بريطانيا

الملك جورج يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩ : إني أؤمن من أعماق قلبي بأن القضية التي تربط شعوبي معاً وتربطنا بحلفائنا المخلصين الأمجاد (هي قضية المدنية المسيحية) وليست ثمة قاعدة أخرى يمكن ان تبنى عليها مدنية صحيحة .

وبينما كان يقول الملك جورج هذا في أوائل الحرب العالمية الثانية كانت الكتابات اليهودية تقول : العمل على بنـــاء حضارة مسيحيه يهودية ، ثم لم تلبث ان قالت : انتظروا الأمل الذي سيحقق للبشرية كل سعادتها: الحضارة اليهودية الصهيونية التلمودية .

وقد أشـــار أندريه سجفريه في كتابه أزمة اوربا (La Crise de L'Europe) الى انهيار اوربا بعد أن سادت العـالم مدى ثلاثة قرون لأنها أخضعت فيه الاخلاق المسيحية لسلطة الفتح واعتـبرت ذلك من الأمور المشروعة .

وأشار سلامة موسى : الى ان الأزمة الاوربية هي أزمة دينية : وقال ان العقائد القديمة تزعزعت بحملات العلم المتوالية عليها ، ولم يقم مقامها شيء لأن العلم لا يمكن ان يكون عقيدة ، وان هناك اليوم ملحدين يدعون الى الدين ، ولكنهم يطلقون عليه أسماء مختلفة مثـل الروحانية او البشرية . او قداسة الحياة ، ومنهم برتراندرسل الذي لا يفتأ يهدم العقائد الدينية بين المسيحيين . وقد تزايد اعتراف المسيحيين بخطر اليهودية الجديدة عليهم .

يقول الدكتور وليم سليمان في كتابه عن المسيحية واليهود : لقد استطاع اليهود في الغرب ان يحرفوا المسيحية . وانتشر تيار فكري يجعـــل نقطة بدايته (موت الإله) وينادي بمسيحية لا دين فيها ، وينادي بهـذه الأفكار (بتهوفن وبليثان والأسقف الانجليزي جون رونيسيون) .

« وان الدين لدى الغربيين لم يعد له في نظرهم قيمة في ذاته وانه شيء

يمكن الاستفادة منه لتحقيق الاهداف الدنيوية التي ينشـدها الغرب في شتى أنحاء العالم ، وان المسيحية انتحرت في اوربا بانضواء رجال الكهنوت تحت راية الصهيونية ، وتسابق شتى الكنائس لإرضاء اسرائيل وتملق اليهود. وأشار الى قرار مؤتمر الكنائس العالمي ١٩٦٤ في جنيف الذي يقول : ان الكنيسة لا تستطيع ان تتجاهل ثقل مسؤوليتها العظيمة عن آلام اليهود وضياع طول تاريخهم » أي ان الكنيسة تطلب المغفرة من اليهود. ويصل الكثيرون الى القول بأن النظريات العلمية التي تهز أركان العالم قد استطاعت ان تؤثر في النظم الموروثة الاوربية ، وان تحدث فيها شرخاً كبيراً ، وان اليهودية العالمية تستغل المنهج العلمي لتحطيم كل القيم الانسانية المسيحية في الاخلاق والنفس والعقائد والاجتماع ، وان كل النظريات الحديثة التي قاومت مفهوم الدين الغربي هي من صنع اليهود ، وهم الذين ينشرونها على أوسع نطاق ويدعون لها ويحرضون القصاصين والمسرحيين على إدخالها في كل مجـالات الاعلام ، ولا أدل على ذلك من استشراء الفرويدية والوجودية والهيبية.

ومع الأسف فقد استسلمت الشعوب المسيحية لسلطان الفكر اليهودي الذي احتوى الفكر الغربي وصادر مفهوم المسيحية السمحاء وسلمت نفسها الى الايديولوجيات ، لأن الدين المسيحي لم يستطع ان يمـدها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطيع ان يفسر الاوضاع الاجتماعية في المجتمع ، وان يمنحها الأمل والمثل العليا في مستقبلها ، ولكن الاسلام غير ذلك[1].

وفي هذا يقول فيلكس فارس : بالرغم من أن الغرب قد بدل فلسفته المسيحية ، فانه لم يتمكن من إيصال الاسلام الى ضميره . كما انه امتنع عليه

---

(١) محمد يحيى الهاشمي في التعليق على كتاب العادة والتعبير .

ان يبلغ بالمسيحية الى فطرته ، وبقي النزاع مستحكماً فيه بين الفطرة والضمير ، لأن ثقافة المسيحية لم تزل متأثرة بالأحاجي والمعميات » .

ويرد أرنولد توينبي[1] الأزمة كلها « الى اهتمام المسيحية بالانسان نفسه مفصولاً عن المجتمع» ولا أدل على صدق توينبي من ان ألوف المسيحيين اليوم قد تحولوا عن المسيحية الى الماركسية وإلى الإلحاد .

---

(١) كتاب العادة والتعبير .

(٢)

ويحمـــل المؤرخون المسيحية مسؤولية فظائع سانت بارتلمي وهي المذبحة التي قامت بين البروتستانت والكاثوليك ، وأمر بها شارل التاسع (ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢) ومذبحة (ألاليجواه) وهي طائفةدينية انتشرت في القرن الحادي عشر بجنوب فرنسا . وقد أمر البابا انوسان الثالث بإبادتها عن آخرها ، وقتل في حروب الكاثوليك مع البروتستانت ١٦٠ ألف ، وقتل (توركارا الدومنيكي الاسبانى فى ١٩٤٨ م) ستة آلاف إنسان بالنار .

ويعد البابا كوبلوري التاسع (المتوفى في ١٢٤١ م) هو المسؤول عن إيجاد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رعباً في العصر الوسيط . وقد اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطياد الهراطقة للمحافظة على الكنيسة .. وقد اعتمدت محاكم التفتيش على التعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف وتذرعت بالقوانين اليونانية ، وقد ظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون ، وكانت في تقدير المؤرخين المنصفين مصدراً لانفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية ،وقتل ديوان التحقيق في أسبانيا وحدها على حد قول رنياخ نحو مائة ألف نسمة .

●

وقد تعرض كثير من الباحثين للتساؤل عن تصرف المسيحية هذا ، وقالوا ان روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه .

وقال المؤرخون « ان تاريخ[1] المسيحية أمامنا شاهد عـــدل ، وتاريخ الاسلام أمامنا شاهد عدل ، فمنذ فجر المسيحية الى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء باسم السيد المسيح ، خضبتها روما وخضبتها أمم أوربا كلها والحروب الصليبية انمــــا أذكى المسيحيون ولم يزالوا يذكون أوارها في مواجهة المسلمين والاسلام .

وظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من اوربا خلال مئات السنين قاصدة أقطار العـــالم الاسلامي تقاتل وتحارب وتهرق الدماء « وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس وعلى الأماكن النصرانية المقدسة .

أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة ، وكانت مسيحيتهم زائفة أم كانوا أدعياء جهالا لا يعرفون ان المسيحية تنكر القتال على إطلاقه ، أم يقولون : تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام ، فلا يحتـــج على المسيحية بها » ولكن الامر تجدد من بعد على صورة أشد فتكاً وتعرض المسلمون في آسيا وأفريقيا الى محنة قاسية تحت سلطان الاستعمار الغربي ونفوذ الحضارة الغربية المسيحية .

لقد رأى العصر الحديث ما رأت تلك العصور الوسطى وأشد حين وقف اللورد اللنبي ممثل الحلفاء يقول في بيت المقدس في سنة ١٩١٨ حين استيلائه عليه أثناء الحرب الكبرى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » يحدث هذا بينما يقول السيد المسيح : « ان مملكتي ليست في هـــذا العالم » ، ويحرص المسلمون على أحكام غاية في العدل والسماحة في كل أرض يصلون اليها ، مع ان الاسلام هو إقامة مملكة الله في الارض .

---

(١) عن بحث الاستاذ خليل .

ويقول المؤرخ هرتشو : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فاذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا «الكفار» الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما . واذا كان لنا ان نضيف شيئاً الى ما قاله المؤرخ هرتشو فهو ان المسلمين قدموا الى الصليبيين : السماحة والخلق والعفو،وقدموا لهم صورة الاسلام في السلوك والحياة ايضاً الى جانب ما قدموا من علم وحضارة .

لقد ارتكب النصارى بالمسلمين في الحـــروب الصليبية من المنكرات والتمثيل ما يعجز عنه الوصف وحيث تحطمت آمال المسيحيين الاوربيين في العالم الاسلامي إزاء بأس صلاح الدين باسم الاسلام فانه عاملهم معاملة كريمة فما رجعوا ، بل أرسلوا جيوشهم فوراً لا كتشاف موانىء البـلاد الاسلامية وجزر الهند الشرقية ليحتلوها ويطوقوا عالم الاسلام مرة أخرى .

(٣)

ومع ذلك كله فما تزال الصيحات تتمالى حول الســؤال التاريخي : هل المسيحية في ازدهار ، وهل تستطيع أن تنقذ الحضارة .

يقول الاستاذ عبد الكريم الفارسي : اذا كانت المسيحية كثيرة الافراد فان المسيحيين قليلو المسيحية لا تسيطر المسيحية على أكثريتهم الا بقدر ما تسيطر عليهم التقاليد والعوائد ، فقد أصبحت في أكثر الأقطار ظاهرة اجتماعية أكثر منها معتقدات فلسفية وتعاليم وأخلاقاً ، وان أهل المــدن أصبحوا يعتبرون الكاثوليكية كتحفة أثرية وعقيدة عتيقة دخلت في حكم التاريخ لا حاجة بالناس لإضاعة الوقت لمناقشتها ، لقد أخذت فرنسا تبتعد عن المسيحية منذ القرن الثامن عشر ، وقد أصبح اغراقها في الالحاد في الوقت الحاضر في أقصى درجة ممكنة .

من أخطر الكتب التي ظهرت في أوربا كتاب الحوادث والايمان للراهب منتوركلار . وقد صادرته الكنيسة الكاثوليكية ، وليس هذا هو الكتاب الأول الذي صادرته الكنيسة فان عدد الكتب المحظور قراءتها على الكاثوليك هي أكثر من خمسة آلاف كتاب . منها : مؤلفات مستيرليك ، واميل زولا وربنان ، وجان جاك روسو ، ودماس الأب ، ودماس الابن ، وديكارت ، ولامنييه ، وفكتور هيجو .

ويرى أونامونو في كتابه : « اختصار المسيحية » ان المسيحية لا صلة لها بالأنظمة السياسية (ديمقراطية او دكتاتورية) او بالأنظمة الاقتصادية: اشتراكية او رأسمالية .

فالمسيحية عاجزة عن أن تحل مشاكل الفقر والغنى ، او توزيع الثروات. فقد أتى المسيح الى الأغنياء والفقراء ، الى العبيد والطغاة .

ويعادي أونامونو جميع الأنظمة السياسية والاقتصادية للعصر ، يعادي الفلسفة ، ويناصر أعداء الثورة الروسية ، ويرى ان البلشفية قد استبدلت ماركس بالمسيح ، وستوفسكي ببولس ، والإخوة كرامازوف بأعمال الرسل . وهو يرفض فلسفة الاشتراكية لأنها علمية ، والاشتراكية في رأيه دعوة خلقية باسم العدالة الاجتماعية وباسم الدين ، بل يرفض كل محاولة للتقريب بين الكاثوليكية والاتجاهات العلمية كالوضعية مثلاً ، لأن الوضعية كالبلشفية : اتجاه مادي نحو العالم . فالدين صراع ، أما الوضعية فلا حياة فيها .

ويرفض أونامانو : الاستشهاد في سبيل المبادىء السياسية ، لأن ذلك إيمان بالأصنام ولا يريد ان تختلط الروح الدينية بمادية العالم . والمسيحية شيء فردي محض ، يستحيل ان يدخل الدين في سياسة الحزب او في المعرفة الانسانية . والمسيحية أقرب الى التجربة الصوفية والأسطورة الشعبية ، بل ان الدين ليستحيل ان يتحول الى قانون او تشريع . وبذلك يصبح أو غطين من عبدة الحرف باعتباره مشرعاً . فالواجب والقانون عاطفتان دينيتان لا يدخلان في نطاق التشريع او القانون .

ويقصر أونامونو : الدين على العبادات ويفصل عنه المعاملات ويراه علاقة بين الانسان والله ، لا بين الانسان والانسان ، فما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . وينتهي الى ان الديمقراطية المسيحية خرافة ، والاشتراكية المسيحية خرافة ، وان المسيح لم يتحدث عن الملكية الفردية نفياً او إثباتاً ، وهو

ليس ديمقراطياً او جمهورياً او ثورياً ، بل كان إنساناً ، كان يهودياً ضـــد الاتجاهات الوطنية لبني قومه ، وضد الكهنة والفارسيين .

وأخيراً يرفض أونامونو ان يتحول الدين الى حضارة . ويقول : فقـــد احتضرت المسيحية يوم ان تحولت الى رومانية ، او مدنية غربية . لقد طغت الوثنية على الدين الجديد ، وعلى الدين ان يرجع للمسيح . فالمسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا بالسماء ، ولذلك فان المثل الأعلى هو الراهب ، وهذه وجهة نظر اخرى في شأن المسيحية يقدمها الفكر الغـــربي .

●

وهناك كولن ولسن وتساؤله : هل تستطيع المسيحية ان تنقذ الحضارة «حضارتنا» فان لم يكن في وسعها ان تفعل ذلك فلماذا ؟

هكذا يتساءل كولن ولسن في كتابه سقوط الحضارة ، وكولن ولسن من مدرسة التلمود ، ومعنى هذا ان اليهودية هي التي تحكم الآن على مصـــير المسيحية .

يقول : كان هناك عامل أشـــد أهمية في نمو المسيحية هو تنصر يهودي سابق كان يضطهد المسيحية هو القديس بولس ، كان بولس مختلفاً كل الاختلاف ، عن المسيح ، كان المسيح عملياً خالياً من كل معنى للخطيئة ومن كل قلق عصبي آخر وكان (بولس) مفكراً أكبر من المسيح ، ولعله كان يشبه (كيركنجارد) مشوهاً مضطرب الصحة ذكياً تشغل باله مسائل كئيبة كالموت والعنف والألم وتهيمن عليه فكرة الخطيئة ويعذبه النقد الذاتي الذي لم يكن يحرض ارادته على صنع نفسه .

أجل ، لقد كان بولس مختلفاً جداً عن المسيح ، كما ان الدين المسيحي الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس .

أكد بولس على فكرة نهاية العالم . والنموذج الحديث من طراز بولس ومزاجه هو (ت.س.اليوت) بكل ما في قصصه : الأرض ، الفقـــر ، الفارغون ، موجود في رسائل بولس . وكان بولس مثل اليوت يعتبر الماضي وسيلة للتعويض عن الحاضر .

ركز بولس اهتمامه على فكرة الألم والموت والتفاهة ، وقد دعاها بولس الخطيئة الى ان شعر بأنه أقوى منها . واستطاع بولس بهذا أن يتمخض عن فكرته التي جعلت من المسيحية ديناً عالمياً ، وهذه الفكرة هي ان المسيح مات ليخلص البشر من خطاياهم ، وبعد كل هذا نجد ان فكرة صلب المسيح قد ساعدت بولس على السيطرة على نفسه . فانه من الواضح ان موت المسيح ساعد بولس على الحصول على حياة أشد تركيزاً وعلى تعميق إدراكه لمعنى الحياة وعلى توسع مفهومه للهدف .

واذا كان موت المسيح قد أنقذ بولس من تفاهته . فلماذا لا يحدث ذلك بالنسبة للبشر الآخرين أيضاً . من هنا نشأت فكرة تخليص البشرية بعذابه . ان المسيح مات لينقذ البشر ، ولما كان بولس قد قرأ العهد القديم فقد استطاع ان يحول هذه الفكرة الى عقيدة قوية . أما في أعماقه فقد كانت هناك رؤياه التي كانت تشعره بأن جميع البشر يولدون مخطئين ، وأعطاه العهد القديم سبباً لذلك : عصيان آدم (رغم ان الهـــدف من وجود الاسطورة في الإصحاح هو تفسير وجود الألم والشقاء في العالم ، وليس تفسير عدم كمال البشر أنفسهم) .

وأعلن بولس : انها خطيئـــة آدم ان يولد البشر خاطئين ، ولكنهم

يستطيعون الآن إلقاء الخطايا على المسيح ، وبهذا يصبحون كاملين . » شعر بولس ان البشر جميعاً مخطئون ، وقبـــل اعتناقه المسيحية كان هو نفسه نموذجاً حقيراً .

أما تعاليم المسيح وموته فقد أعطيا بولس مفهوماً للهـــدف ، وبالتالي احتراماً للنفس . وهنا كف بولس عن كونه إنساناً صرصاراً ، ودخل في مرحلة الرجل العملي ، وصارت المشكلة لبولس كما كانت بالنسبة للمسيح وفق رؤياه عن البشر ، لماذا لا يكون البشر كالله ، وكان جوابه بسبب عصيان آدم ، ولكن هل كان هذا يعني ان آدم كان كالله .

ان سفر التكوين لا يقرر ان آدم كان يساعد الله في خلق حياة جديدة ، وان السقطة كانت فردية . وهكذا فان عقيدة بولس في المسيح تتهاوى كلما أوغلنا في الاختبار .

أما بالنسبة لوضع الانسان في العالم ، فان هذه العقيدة تفرض ان الانسان في أساسه غير كامل وان هدفه النهائي هو أن يصبح مثـــل الله ، ولكنه لا يدرك كما فعل المسيح ان الانسان لا يستطيع ان يصبح مثل الله بجهوده نفسها. وعلى أية حال فان عقيدة بولس هذه قد صارت أساس المسيحية والعمود الفقري للكنيسة . ولكن هذه العقيدة نفسها عرضت الكنيسة الى النقـــد أيضاً الذي وجهه نيتشه ـ اذ قال : ان المسيحية هي دين الكلاب .

لقد كانت دعوة المسيح في جوهرها دعوة الى النظام والقوة ، أما بولس فقد حولها الى دين صار ملاذاً للمذعورين والخائفين، أما الاقوياء الذين انتموا الى الكنيسة كالقديس أوغسطين وجورج فوكس فقد فعلوا ذلك للسبب المعاكس ، وهذا أساس النجاح الذي صادفته المسيحية واتساع دعوتها وشمولها

القوي والضعيف . وقد عبر نيتشه عن احترامه لمؤسس المسيحية واحتقاره للقديس بولس الذي سماه (بسكال اليهودي) وقال عنـــه انه ميال الى الخرافات والمكر ، وانه رجل مصاب بشعوره بعذابه الشديد الى درجة ان المرء ليرثي له .

ويقول كولن ولسن : ان قول المسيح : كن سيد نفسك قد تلاشى وحل محله مسيح آخر من اختراع بولس ، مسيح يقول : اعتبروني سيدكم وبذلك تحصلون على شفاعتي في يوم الدينونة (لأني تفاهمت مع أبي الذي في السموات واتفقنا أن أموت بشرط ان أكون حاكمكم ومخلصكم) .

وهكذا فان مسيح بولس يستميل قلوب الناس أكثر من المسيح الاصلي . وكانت النتيجة انتشار المسيحية الهائل ، ولم تعد المسيحية بعد بولس فكرة (خلص نفسك) وإنما صارت (دعني أخلصك) ولهذا السبب نجد برناردشو يسميها الصليبية بدلاً من المسيحية ، وبعد موت المسيح بزمن طويل انتظر الناس يوم الدينونة بفارغ الصبر ، ولما لم يحدث ذلك فسروه برحمة الله وصبره ، واعتبروا أنفسهم محظوظين .

وهنا لم يعد يوم الدينونة ركيزة المسيحية ، وحلت محـل ذلك فكرة بولس القائلة بأن المسيح هو مخلص البشر لأن اليوم امتـــد الى المستقبل البعيـد .

ان اللامنتمي الذي يقف ضد العالم يجد في الكنيسة الملاذ الكامل بالنسبة اليه ، لأنها تعلن : ان ملكوتي ليس في هذا العالم .

ولكن الامور سارت في غير طريقها الصحيح ، فصارت الكنيسة قوية ،

واشتدت بذلك صلفاً وغروراً ، كما قال توينبي ، واشتد ميلها الى السلطة ولم يعد اللامنتمون يحتملونها . ثم ظهرت قوى منذ القرن الحادي عشر اعترضت على بيع وشراء ترقيات الكنيسة ومناصبها وبقية المخازي ، وخاصم جون وتكليف الكنيسة ، وأعلن ان البابا ضد المسيح ، ثم ظهـــر لوثر فهاجم الكنيسة وبدأ بمهاجمة قبول المـال مقابل غفران الخطايا وأكد كالفن وهو مريض أيضاً على فكرة المسيح المخلص ولهذا فان نتيجـة الاصلاح البروتستانتي لم تكن إصلاحاً للمسيحية وانمـا كانت إصلاحاً لمسيحية بولس .

واتفق زعماء الاصلاح لوثر وكالفن وغيرهما من الكنيســة الكاثوليكية على شجب كوبرنيكوس وسجن جيوردانو برونو لأنه قس أيد نظـــرية لكوبرنيكوس وأحرق ، ونظرية كوبرنيكوس تقول : ان الارض تدور حول الشمس ، لا الشمس تدور حول الارض .

وقد رجع البروتستانت والكاثوليك معاً الى الانجيل ليثبتوا ان الارض هي مصدر الكون وان الشمس والقمر والنجوم خلقت لتهب الارض الضياء ، ثم يصل كولن ولسن الى نهاية المطاف الطويل ليقول : « حاولت ان أبين ان المسيحية لم ترتكز على تعاليم المسيح ، وإنما ارتكزت على عقيـــدة ميتافيزيقية اخترعها بولس ، وصارت أساساً للكنيسة الكاثوليكية التي حملت بذرة فنائها معها (لأنه لم تكن هناك الا خطوة صغيرة بين القول بأن المسيح يستطيع ان يخلص البشـــر من خطاياهم وبأن الكنيسة تستطيع ان تفعل ذلك مقابل المال) .

ولما ثار لوثر ضد الفساد استخدم فكرة المسيح المخلص أيضاً لتأسيس

كنيسته الجديدة ، ولكن العصر العلمي كان يطبق على الدين شيئاً فشيئاً ، وهو الموقف الذي يواجهنا اليوم فالكنيسة لا تزال تستخدم فكرة المسيح المخلص باعتبارها حجر الزاوية . هذا موقف يمثل تياراً آخر من تيارات الفكر الغربي .

ويشير فيسرتهوفت في كتابه : الكنيسة المعاصرة التي تفتت وحدة العالم المسيحي الى مجتمعات مسيحية متعددة وكنائس مختلفة ، وخاصة بعد حركة الاصلاح التي قام بها لوثر ، وكان من نتائج التجزئة والتفتيت ذلك الصراع الدامي بين المسيحية ممثلة في كنائسها من ناحية وبين العلوم الطبيعية والحركات الداعية للنزعة الفردية والانسانية .

وأشار الكاتب الى خصوم المسيحية : نيتشه وكارل ماركس وكانت وقال ان ممثلي الكنائس المسيحية في الغرب يشعرون بأنهم في موقف الدفاع عن النفس في وجه القوى العلمانية التي اجتاحت مجتمعهم بقوة وعنف . ويرى ان تنازل المؤسسات المسيحية لقيصر تنازلاً شبه تام عن كل ما يمت لقيصر بصلة ، والاحتفاظ لنفسها بما تبقى . ويرى ان هـــذه التسوية نجاح كبير أحرزته الكنيسة لأنه خلصها من ارتباطات تقليدية لا تمت في حقيقتها الى الكنيسة بصلة ، وأعلن الكاتب أسفه لضياع هذا العالم المسيحي الموحد حيث لا تمايز بين الكنيسة والمجتمع والدولة .

●

ولا ريب ان هذه الابحاث والدراسات تكشف عن موقف الاسلام في العالم المعاصر ، وتشير الى دوره الخطير إزاء انحسار الاديان في الغرب نتيجة التفسيرات الخطيرة التي وضعها بعض رؤساء الاديان والتي سارت البشرية

عليها طويلا ، ثم جاء العلم الحديث فكشف عن زيفها وعجز العقل البشري عن قبولها . هذا في نفس الوقت الذي يواجه الاسلام العلم والعقل البشري والفطرة بمنهج سمح متكامل يسير ، تقبله النفس ويرضي العقل ويملأ القلب بالإيمان ويجد فيه المثقفون هدياً ونوراً ، ويرى فيه المصلحون أملا مرتقباً لحياة البشرية في القرن القادم .

الفصل الثالث

اليهودية في محاولة احتواء الاسلام

تحاول اليهودية إعادة السيطرة على البشرية من جديد ، وعلى المسيحية والاسلام ، عن طريق صياغة مفاهيمها في نظريات ومذاهب حديثة تضرب بها مقررات الاديان ، ولقد استطاعت ان تقطع في ذلك شوطاً طويلاً حيث أتيح لها السيطرة على مقدرات الفكر الغربي المسيحي وتحريفه واحتوائه ، وتغليب مفاهيمها عليه ، ومن حيث ان العالم الاسلامي متأثر منذ أكثر من قرن من الزمان بالفكر الغربي المسيحي نتيجة احتلاله والسيطرة عليه فان التغييرات المستحدثة فيه بفعل الماسونية والتلمودية والصهيونية فانها تبرز ، وكأنها تحديات جديدة ، ومن هنا فان الفكر الاسلامي الآن يواجه تحديات أربعة : تحديات الفكر الغربي المسيحي ، والفكر التلمودي الصهيوني ، والفكر المادي الماركسي ، والفكر الالحادي .

فالفكر الغربي المسيحي يتحدى الاسلام بتعدد الزوجات ، وتحـــديد

الطلاق ، وفصل الدين عن المجتمع والدولة ، وإعلاء شأن مفهوم البطولة في القصة والمسرح المستمدة من نظرية الخطيئة والفداء .

وان الفكر اليهودي التلمودي يتحدى الاسلام بالربا والدعوة الى الاباحية والقول بنسبية الاخلاق وبالتطور المطلق وبإعلاء شأن العصرية والتقدم المادي وإنكار التراث والتاريخ .

واذا كان الفكر المسيحي قد حاول ان يدعي بأن الشريعة الاسلامية متصلة بالقانون الروماني او متأثرة به ، فان الفكر اليهودي التلمودي يحاول طرح مفاهيم العنصرية والاستعلاء بالدم والعرق ، ومادية الحياة ، وإنكار اسماعيل ، ووجود العرب في ذرية ابراهيم ، وإدخال مفاهيم السحر والتنجيم والاساطير وإعلاء شأن الجنس واللذات ولقمة العيش ، وإنكار الاسرة ، وأسطورة الشعب المختار . ولا ريب ان كل ما تطرحه التلمودية الصهيونية الحديثة ليس جديداً ولكنه وليد الفكر القديم والتحريف الواسع الذي وقع للتوراة . ومن هنا فان هناك فكرة مريبة خبيثة يدعو اليها بعض المخدوعين والمضللين واتباع الماسونية والتلمودية وهي محاولة التفرقة بين اليهودية العالمية وبين الصهيونية . وعندنا ان التفرقة الوحيدة انما تقع بين دين موسى كما أنزله الله وبين اليهودية كما وضعها عزرا في نفي بابل . وان فلسفة الصهيونية مستمدة أصلاً من هذه اليهودية التي حرفت أصولها في التوراة وفسرت تفسيراً كاملاً في التلمود والمشنا ، والقائمة على القول بأسطورة الشعب المختار الذي أعطي ميراث ابراهيم عليه السلام من دون أبناء ابراهيم جميعاً . ولا بد عند النظر الى خطر الصهيونية التلمودية من تقدير أمر واحد هو أخطر من كل الاهداف ، هو إقامة امبراطورية الربا العالمية ، وتلك هي « الايديولوجية اليهودية » .

« يجب علينا نحن اليهود ان نسيطر على ثروة العالم عن طريق انشاء

احتكارات يهودية عالمية ضخمة تستوعب كل ثروات العالم وتكون بمثابة خزائن لكل كنوز العالم ، لم يبق الا أصحاب العقارات وملاكو الارض ولا سبيل للقضاء على هذه القوة الا بتنشيط أعمال المضاربة حتى يتحول ميدان الربح الى البورصة ، حيث يتجه أولئك الملاك في استغلال ثرواتهم في الاسهم والسندات بدلاً من الأراضي والعقارات التي تصبح غير جزيلة الربح ، بل توضع كرهونات للقروض التي تدفعها عن طريقنا ، ثم لا يلبث الملاكون ان يعجزوا عن الوفاء بهـا فتقع الشعوب في قبضتنا : وذلك هو مخطط الاستيلاء على ثروات العالم عن طريق الأسهم والسندات ، وان تضطـر الحكومات الى طلب العون المالي من مصارفنا وخزائننا فتقع الحكومات في قبضة الرأسمالية وهكذا نجرد الحكومات والشعوب من أسباب القوة ، لهذا علينا ان نعمل على إغراق حكومات العالم بالديون عن طريق تشجيعها على الاقتراض منا عن طريق عقد قروض داخلية لسد حاجاتها ، وتتم تغطية هذه القروض من جيوبنا بطريق مباشر او غير مباشر ، فيكون بوسعنا إفلاسها بعد فترة من الزمن عندما نطالب بديوننا فجأة .

أما الصحافه والادب فهما أعظم أداة للسيطرة الفكرية ، ولذلك ينبغي علينا نحن اليهود ان نشتري العدد الاكبر من دور الصحافة والنشر ووكالات الاخبار العالميـة ، حتى لا يرى الناس أي خبر او مقال او توجيه إلا من زاويتنا . ومن خلال نظارتنا الملونة ، ويجب ان تكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف والأحزاب المختلفة من أرستقراطية الى شعبية ، ومن ثورية الى فوضوية ، وستكون هذه الجرائد مثـل الإله الهندي (فشنو) لها مئات الأذرع ، وحتى يمضي الثرثارون المغفلون في ترديد ما يتوهمون انه رأيهم ، او رأي جرائدهم وأحزابهم ، سنكون نحن قد حققنا ما نبغي فلن يروُا إلا ما نضعه نحن في أفواههم من وراء الستار .

كلما وجدنا أنظار الرأي العالمي تتجه نحو الحقيقة يجب ان نعمل على تحويله

الى اتجاه آخر . ان واجبنا أن نشغله عن أي طريق او تفكير جدي سليم بإثارة موضوعات لها طابعها الصحفي وبتلهيتهم وملء فراغهم بمختلف أنواع الملاهي والمباريات الترفيهية ، والفن والرياضة شعارنا القوة والرياء وفي سبيلها وللوصول الى غايتنا ينبغي ألا نحجم عن اللجوء الى الرشوة والخداع .

علينا أن نقدم دون تردد على اغتصاب ملكية الغير .

(٢)

قال بن جوريون : لقد قاومت اليهودية الحضارة اليونانية والامبراطورية الرومانية والمسيحية ، وأخيراً الاسلام .

قال دستيوفسكي : لا تقل بسمارك ، او الجمهورية الفرنسية ، ليس كل ذلك إلا مجرد أوهام . فاليهودي وحده وماله هو سيد العـــالم ، فاليهودي وماله يسيطران على كل شيء ، على أوربا ، على التعليم ، على الحضارة ، على الاشتراكية .

وهناك عشرات المصادر التي تؤكد ان الماسونية كانت مصدر احتواء الفكر الغربي وتحوله عن الآداب المسيحية والاخلاق المسيحية ، وكان اول منطلقها هو الثورة الفرنسية .

يقول مؤلف كتاب التاريخ النقدي للشعر الانجليزي[1]: ان قادة الثورة الاوربية في عصر النهضة الاوربية أخذوا بمبدأ خاطىء وجه النهضة الادبية في اوربا الغربية نحو المغالاة في الاعتداد بالانسان والزعم بأنه هو ، وليس الله تعالى مقياس كل شيء ، وأدى بهم هذا المبدأ آخر الأمر الى ضلال بعيد

---

(١) ص ٤٧٣ : التاريخ النقدي للشعر الانجليزي .

عندما أخذت الثورة الفرنسية بمذهب روسو الذي قطع الرابطة بين الانسانية وبين عقائد الايمان السابق (النابع من المسيحية) .

ومعنى هذا ان فلسفة النهضة الاوربية عدلت عن المبادىء المسيحية وادعت لنفسها ان أفعال الانسان مهما تكن فهي كاملة في نفسها ، وهذه الفلسفة المستمدة من عصر النهضة كان من شأنها ان تبرر أعمال الانسان مهما كانت بقطع النظر عما تراه العقيدة المسيحية فيها .

ويشير باحث آخر الى هذا التحول الخطير فيقول : « أزال اليهود مفهوم الدين الحقيقي في الغرب لفرض مفهومهم الذي يحقق لهم قيام دولتهم – لقد ورثوا الحضارة الغربية وتسلموها ، ولم يكونوا قد شاركوا فيها أساساً – بل فرضوا أنفسهم على الفكر الغربي وسيطروا عليه سيطرة كاملة ، وأباحوه مطلقاً الى اللادينية واللاأخلاقية والإلحاد والإباحية وفق مناهج فلسفية ذات طابع علمي براق . واليهودية بعد ان هدمت الفكر الغربي سربت هذا الحطام الى العالم الاسلامي مستهدفة تحقيق غاياتها في إقامة الامبراطورية اليهودية في فلسطين .

لقد حطمت المسيحية الاوربية لتجعلها محتواة داخل فكرها وأهدافها ، وكان هدفها هو إقرار معنى خطير يقول ان إقامة كيان اسرائيل معناه الرجوع بالحياة البشرية وبالعالم الانساني وبالتاريخ الى ما قبل المسيحية بعشرة قرون من وجهة أخلاقه وفكره وروحه .

وهذا هو السر في ذلك الاصرار العجيب على إحياء تراث بابل وآشور والمجوسية والبوذية وغيرها ، وعلى ذلك الاهتمام البالغ بالفلسفة الهلينية اليونانية .

فقد تبين في السنوات الأخيرة ان المعارف اليونانية تمثل في أعماقها

شخصية يهودية بحتة ، فكان اليهود على أمل إحراز السيادة على الشعوب بواسطة تلك المعارف ، حتى لقد نشر قسيس يدعى أوزيب في أحد كتبه فصولاً من كتاب (نومي نوسي) الذي يقول بأن الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) أخذ كثيراً من أفكاره عن موسى عليه السلام ، بل ان هناك من زعم ان أفلاطون هو نفس موسى عليه السلام ويدعي كثير من الحاخامين بأن الفلسفة اليونانية مقتبسة من عقائد يهودية ، وان فيلسوفاً يهودياً يسمى (توراة ارستوبول) قد ادعى مطابقة بعض أفكار فلاسفة يونانيين أمثال أفلاطون وسقراط مطابقة تامة لقواعد اليهودية وأوامرها ، وان حاخام اليهـــود وفيلسوفهم المشهور (فيلون) يقول : ان النظريات اليونانيـــة هي نفس ما جاء في دين اليهود تماماً .

وان حقيقة الفلسفة العلمانية التي سادت على مدنية الغرب ، والتي تغذي الحركات المعادية للقومية والدين والتاريخ هي من (اليهوا) أي من اليهود وشريعة التوراة ، وان الحاخامين بريائهم المستور كانوا يضعون خيوطهم لجر المدنية الغربية النصرانية نحو اليهودية .

ولا شك ان هذا كله يضع وثائق جديدة في أيدي الذين يرون ان اليهودية والصهيونية من أصل واحد ، وان الصهيونية ما هي الا واجهـــة سياسية للتلمودية القديمة .

وقد ثبت ذلك فعلا مما كتبه علماء الصهيونية وفلاسفتها من ان الصهيونية السياسية لا تستطيع التخلص من جذورها الدينية . وإلا فهل يستطيع يهودي واحد ممن يعارضون الصهيونية ان يكذب ما تدعيه التوراة والتلمود عن

شعب الله المختار والوعد المدعى له بأرض الميعاد .

ولتحقيق هذه الغاية تعمدت اليهودية الى تحـــريف التاريخ الانساني ، وتحريف الاديان . ولا ريب ان أخطر ما تقوم به اليهودية في الوقت الحاضر هو محاولة السيطرة على علم مقارنة الاديان وعلم الاجناس ومفاهيم النفس والاخلاق والاجتماع .

(٣)

قالت « بربارة توخمان » الكاتبة اليهودية في كتابها (التوراة والسيف) :
«وهكذا دخل الجنرال اللنبي الى القدس عام ١٩١٨ فنجح حيث كان ريتشرد (ريكاردوس قلب الأسد) قد أخفق ، ولولا ذلك الانتصار لما كانت إعادة اسرائيل الى ارض الميعاد قد أصبحت حقيقة واقعة، وكذلك لم يكن بإمكان اللنبي ان ينجح لولا محاولة ريتشارد ، أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت في الاصل الأساس الذي يحمل النصارى على التعلق بالأرض المقدسة ، ان من غريب التهكم ان يكون اليهود قد استعادوا موطنهم إلى حد ما ، بفعل الدين الذي أعطوه للأميين » .

وهكذا تنكشف أوجه الصراع بين المسيحية واليهودية في محاولة السيطرة على الاسلام ، وتبدو براعة اليهودية في نقــــل الكرة من قدم الى قدم حتى تصبح في حوزتها .

لقد كان هدف الماسونية الأساسي هو هدم البابوية ، ولكن الهدف أيضاً قد امتد الى القضاء على أكبر مركز ديني في أوربا وهو الكنيسة الروسية ، ثم امتد مرة أخرى الى القضاء على الخلافة الاسلامية في تركيا ، وقد تحقق ذلك في سنوات قليلة متوالية في أعقاب الحرب العالمية الاولى .

ومعنى هذا ان أكبر مكاسب هذه الحرب قد حصلت عليها اليهودية .

فان اليهودية الماسونية التي أشعلت الثورة الفرنسية في أوربا كلها لتحقيق وجود اليهودي وسيطرته على المجتمع الاوربي ، هي نفسها التي استطاعت عن طريق اليهود الدونمة في سالونيك اسقاط السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وإسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ .

فقد كان اليهود يرون في السلطة العثمانية شبحاً مخيفاً للخلافة الاسلامية خطراً على مستقبلهم ، وقد حاولوا احتواء السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية وبذل هرتزل في سبيل ذلك جهد الطاقة فلم يستطع الوصول الى شيء[١] .

كان ذلك عام ١٩٠٢ عندئذ قرر المحفل الماسوني خلع السلطان عبد الحميد وكلف قادة تركيا الفتاة والاتحاد والترقي تنفيذ القرار ، وكان اليهود قد نجحوا في السيطرة على هذه الجمعية حيث سيطر عليها جماعة الدونما (المتظاهرون بالاسلام من يهود أسبانيا الذين اتخذوا سالونيك مقاماً لهم بعد فرارهم من محاكم التفتيش) حتى حققوا ذلك عام ١٩٠٩ .

وكان انقلاب تركيا قد أسلم زمام تركيا لليهود[٢] الماسون الدونمة (طلعت ، وجاويد ، وجمال ، وأنور ، ونيازي) ثم جاء كمال بعد الحرب العالمية الأولى وتمزق تركيا وسقوطها ليقيم الدولة التركية العلمانية التي ألغت الخلافة واللغة العربية والشريعة الاسلامية والأذان ، وأغلقت المساجد . وفي انقلاب مصطفى كمال أتاتورك وهو من اليهود الدونمة جرت المجازر للمسلمين وسلمت البلاد الاسلامية التي كانت تابعة للدولة العثمانية الى الاستعمار والصهيونية بعد ان سلم الاتحاديون طرابلس الغرب .

---

(١) راجع كتابنا «العروبة والاسلام» تصحيح اضخم خطأ في التاريخ الاسلامي المعاصر .

(٢) راجع الدكتور محمد علي الزعبي : الماسونية في العراء .

لقد كان خلع عبد الحميد مقدمة لإلغاء الخلافة ، وكان إلغاء الخلافة هو الذي فتح الباب واسعاً خلال حكم الاتحاديين منذ (١٩٠٩ - ١٩١٦) للسيطرة على فلسطين ، وتحقيق هدف اليهود باستيلاء المسيحية ممثلة في بريطانيا على القدس ١٩١٧ كمقدمة لاستيلاء اليهود عليها بعد خمسين عاماً ١٩٦٧ . وكان ذلك من أخطر أهداف اليهودية والمسيحية : تمزيق الدولة الاسلامية الكبرى ، وفصل العرب عن الترك ، وهدم الجامعة الاسلامية ، وإلغاء الخلافة .

وفي فلسطين قتلت المسيحية واليهودية المسلمين في صورة وحشية (مرة أخرى) تفوق كل ما يروى عن الطغاة . ولا ريب ان الخلافة الاسلامية خلال التحديات التي واجهت السلطان عبد الحميد قد كشفت عن قدرة ضخمة في مواجهة الاخطار دفعت هـــذا السلطان السياسي البارع الى رفع راية الجامعة الاسلامية لجمع المسلمين من مختلف أنحاء العالم تحت لواء الخلافة لمواجهة خطر الاستعمار الفرنسي المسيحي والغزو الصهيوني اليهودي وكان موقفه من عروض اليهودية العالمية شريفـــاً . قال في خطابه : « أنصح الدكتور هرتزل ألا يتخذ خطوات أخرى في هذا الطريق فاني لا أستطيع ان أتنازل عن قدم مربعة واحدة من هذه الارض (أرض فلسطين) لأنها ليست أرضي وإنما هي أرض شعبي ، شعبي الذي حارب في سبيل هذه الارض ورواها بدمه ، دع اليهود يحتفظون بملايينهم . فاذا تفككت امبراطوريتي ، فان اليهود قد يحصـلون على فلسطين بدون مقابل ، ولكنهم لن يصلوا اليها إلا على أشلاء أجسامنا بعـد تمزيق أوصالها : انني لا أستطيع ان أوافق على اجراء التجارب الجراحية على أجسام أبناء شعبي الأحياء[١] .

•

(١) النص عن يوميات هرتزل .

ولا ريب ان سيطرة اليهودية الصهيونية على فلسطين قد جاء عن طريق انجلترا ، ثم أمريكا وهما دولتان بروتستنتيتان باضت الماسونية العالميـة فيها وأفرخت وأدخلت في عقول المسيحيين أسطورة الارض الموعودة حتى آمنوا بها ، وكان ذلك أيضاً هو المدخل الىقرار المجمع المسكوني الثالث عام ١٩٦٤ بتبرئة اليهود مما سمي تهمة قتل المسيح . وقد غاب عن المسيحيين مخططات اليهود إزاء دينهم وما كتبـوه في بروتوكولات صهيون من خطط للسيطرة عليهم وما صرح به كثير من حاخاماتهم من أمثـــال ما يقوله الحاخام بينا موريخ : اليهودي لا يقنع بهزيمة المسيحية ، بل يريد تهويد أتباعها انه يحطم العقيدة المسيحية ، انه يثير الخلاف ويفرض ارادته علىالعالم منوجهة الاخلاق والحياة .

ويقول أحد الحاخامات : أمامنا الآن بعض سنوات قليلة لتحل اللحظة التي يتم فيها تحطيم الدين المسيحي تحطيماً كاملاً ، فالمسيحية تتلوى وتعاني النزع الأخير . وقد أصاب الذبول صنم العالم المعبود الذي مضى الى الفناء والمسيحيون الخوارج الكفرة الذين يدعون أحقية الحق الأقدس قد وجهوا الى الطريق الخاطىء ، فاننا جاهدنا طويلاً لنفهمهم ان المسيح لم يوجد على سطح الارض إطلاقاً .

.. أين هذا من مفهوم الاسلام وسماحته وتكريمه للسيد المسيح واعترافه به نبياً مرسلا .

●

ولا ريب ان هدف اليهودية التلمودية الجـديدة الممثلة في الصهيونية هو ما أشاروا إليـه مرات وخاصة في البروتوكولات [يتعين علينا ان نكتسح جميع العقائد.والأديان الاخرى . واذا كان ذلك سيؤدي الى وجود ملحدين ينكرون الخالق] .

ومن موقف اليهودية الصارم ضد المسيحية فان القاصـــد الرسولي الأب ماركولي يتحدث عن علاقة البابا بالصهيونية فيقول : لقد حدثت تغييرات شتى في الوقت الاخير من العلاقات بين اليهود والحكومة الانجليزية ، وكان من شأن هذه التغييرات ان بعثت اهتمام الدول عامة بمسألة الشعب اليهودي من جديد . وبالتالي بدأ الفاتيكان يهتم بالمسألة .

والبابا ينظر بعين الرضا والارتياح الى مشروعات الصهيونية في فلسطين وهو يراها مصدر بركاته للسلام العالمي .

ويعتقد البابا نيوس التاسع انه يحق للصهاينة ان يحملوا كافة الكنائس الدينية على الاهتمام بأمانيهم ويقول «على أني أؤكد ان الكنيسة الكاثوليكية وهي أكبر كنيسة في العالم تؤيد الصهيونية وأمانيها»: ولا ريب ان مثل هذه الوثيقة تكشف أمرين :

أولاً : مدى ما استطاعت اليهودية العالمية ان تصل اليـــه من احتواء المسيحية .

ثانياً : مدى ما وصلت اليه الكنيسة من الضعف والانحدار .

●

نعم ، لقد استطاعت اليهودية ان تستقطب عدداً ضخماً من المسيحيين ذوي المناصب الثقافية والسياسية وأن تجعلهم مسيحيين صهيونيين .

وهذا الفريد ليفتال في كتابه « اسرائيل ذلك الدولار الزائف » يقول : غزا اليهود المجتمع المسيحي ، ولعب المسيحيون الصهيونيون دوراً حساساً في هذه الحركة المحبوكة تماماً والحسنة التمويل، انمشاعر العطف على الصهيونية ليست مقصورة على اليهود فحسب فالصهيونية في الولايات المتحدة قد سبقها

المثال الذي ضربه حاييم وايزمان حين استفاد من مزج العناصر المسيحية والاخرى اليهودية في انتزاع وعد بلفور ، فاعتمدت هي بدورها على المسيحيين الامريكيين كي يقدموا لها خدمات لا تحصى وقد استخدمت أسس علم النفس للحصول على تأييد مزدوج ، عن طريق ضمير العالم المسيحي المضطرب الذي يتوق الى التكفير عن الدور الذي قام به من الاضطهاد المتواصل لليهود ، ثم العاطفة الليبرالية المعتمدة على الضعف والشفقة الموجودة لدى الأغنياء والمشاعر الدينية عند المثقفين التوراتيين الذين نظروا الى ان انشاء اسرائيل هو في الحقيقة بشارة ضرورية لقدوم المسيح . وقد قبل بعض المسيحيين الادعاء بأن التوراة تطالب بعودة يهود اليوم الموجودين في منفاهم الى وطنهم القومي في فلسطين بدعوى ان دولة اسرائيل الحديثة هي دولة ورد ذكرها في الكتب المنزلة .

غير ان الكثيرين من المسيحيين اندفعوا أيضاً لأن الديانة الاسلامية تعتبر في نظرهم ديانة وثنية متطرفة فكان تأييدهم لإسرائيل وسيلة من وسائل مقاومة خلق وحدة عربية مسلمة وتعود هذه المحاباة والتعرض للمسلمين الى العصور السالفة أيام حدث الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، وانتشرت القصص الخيالية حول الحروب الصليبية .

ويعني هذا بأن اليهودية التلمودية استطاعت أن تخدع المسيحية الاوربية والامريكية ، ففي نفس الوقت الذي تعمل فيه على تدميرها ، وتكتب ذلك صراحة في كتبها ، فهي تستغلها عن طريق تحريف النصوص على ان تؤازرها في دعواها الباطلة ، بل انها هي التي تذهب في ذلك كل مذهب حين تزيف وقائع التاريخ وتكشف عن جانب واحد منه هو جانب التحريض على المسلمين بإعادة اذاعة موقف المتعصبين من المسيحيين في الحروب الصليبية ، بل ان جريدة التيمس التي عرفت بمحاباتها لليهود واليهودية كانت تذكر اليهود دائماً بالدور الذي يلعبونه دوماً في تهييج الخلاف بين المسلمين والنصارى والمعروف ان اليهود قاموا بمؤامرات ضخمة في سبيل إيقاع المسيحيين في

الامبراطورية العثمانية في خلاف مع الدولة ، واستفادوا من ذلك الاستيلاء على الاراضي .

وقد أشار الفريد ليلنتال الى هذا المعنى كله بقوله : مقدرة الصهيونية في استغلال المسيحي العادي والمنظمات المسيحية ،والانفتاح الجديد على المسيحية ، بتزوج عدد كبير من اليهود من المسيحيين .

يقول ليلنتال : ان اليهودي عندما يتزوج من مسيحية يظل يتزعم قضية اسرائيل بقوة بينما الشريك المسيحي للزواج لا يستطيع الا أن يبدي تسامحاً كاملاً مع رفيقه .

(٤)

يقول عازار وايزمان : لا عطف ولا رثاء حتى ننتهي مما يسمى بالحضارة العربية التي تبنى على أنقاضها حضارتنا .

وتكشف هذه النصوص الأهداف البعيدة في محاولة القضاء على العرب باعتبارهم أصحاب القيادة في الاسلام، وحيث ان البلاد العربية هي نقطة البدء للاسلام وركيزته الحقيقية ، وتوضح هذه النصوص عمق الخلاف بين اليهودية التلمودية وبين العربية ، وهو الخلاف التاريخي بين أبناء اسرائيل وأبناء اسماعيل ، والذي كان موضع التحريف لنصوص التوراة ، وتحويل ملك ابراهيم الى اسرائيل وحده دون أبناء ابراهيم وذريته جميعاً . وكيف حطم الاسلام هذه الفرية ، وأزال الله ملك اسرائيل ، ونقل الأمانة الى أبناء اسماعيل بعد أن فشل اليهود في إقامة الحق .

وكان هذا هو أخطر تحول في انتقال النبوة والحكم والرسالة الى أجدر الأمم بها وانتزاعها نهائياً من الأمة التي فرطت في الأمانة .

ومن هنا فان هذه المحاولة الخطيرة التي تقوم بها التلمودية اليوم انما تستهدف تحطيم القوة التي قامت منذ أربعة عشر قرناً باسم الاسلام : دين الله الحق وكلمته الخالصة . ومن هنا فهي تركز على الحضارة العربية أساساً باعتبارها

الجدار الضخم في قلب العالم الاسلامي كله ، والذي اذا انهار سقط بنـــاء الأمة كلها .

ومن هنا فان اليهودية انما تركز على القضـــاء على العروبة وتدميرها ، وفصلها عن الاسلام وإيجاد الصراع بين القوميات والدين ، وتحاول ان تطرح في الأمة العربية مفهوم الغرب عن القوميات كما تعمل في الوقت نفسه على تفريغ الأمة العربية من مفهوم الشريعة الاسلامية والاخلاق وفصـل الدين عن المجتمع .

وتحرص أكثر ما تحرص على ان تجعل الصراع بينها وبين الأمة العربية صراعاً محدوداً في دائرة قومية وتحول بينه وبين المفهوم الاسلامي الجامع بين العروبة والاسلام ، وتفصل بين الامة العربية والعالم الاسلامي .

ولا ريب ان اليهودية العالمية هي التي أثارت في العالم الاسـلامي تمزيق وحدة العروبة والاسلام للحيلولة دون الوحـــدة وعملاً على تعميق التجزئة والاقليمية . ولما كانت وحدة العرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة المدى في الفكر الاسلامي وفي القرآن نفسه ، فقد طرحت عشرات المذاهب والقضايا والدعوات والأنظمة والنماذج التي طرحت في أوربا لإفساد المفهوم الاسلامي الجامع للعروبة والاسلام ، وللدوام تحريك هذه القضية وإثارتها فترة بعد أخرى وإذاعتها وتحويلها الى عقائد مستحدثة وافدة عن طريق معاهد الارساليات والجماعات والصحف التي قام عليها خريجو هذه المعاهد .

ولذلك فان هدف اليهودية الأساسي هو تحطيم المعتقدات الاسلامية وسحق القيم المعنوية والانسانية وإثارة الشكوك حول المعتقدات وطرح فلسفات الشك والالحاد والإباحة في المجتمع الاسلامي ، وإشاعة روح الرذيلة في العالم ، والتي يعتبرها اليهود وسيلة مع المال لتحقيق أغراضهم ، وانبعاث الفكر الوثني الهليني المجوسي البابلي القديم وتحويله الى نظريات ومناهج مستحدثة .

وأخطر ما استطاعت اليهودية تحقيقه في العالم الاسلامي هو إقامة الاقتصاد على أساس نظام الربا وقد دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على ان البلاد التي ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل ، وان الحضارة الغربية قد صنعت بألوانه النفسية اليهودية ففشت فيها الأطماع المادية حتى صاروا ولا همّ لهم الا جمع المال ، وهذا هو دور اليهودية في الحضارات ، فهم لم يكونوا منشأ حضارة ولكنهم كانوا دافعين لها الى مجالات تفكيك الاخلاق وتسهيل سبل الشهوات والحث على الجرائم واختراع الرقص الخليع ومسابقات الجمال وعبادة المادة في كل شيء ونشر صحف المجون والفسق ونشر أشد الكتب المحظورة على أذهان الشبيبة ونشر الصحف الكاشفة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي، ذلك لأن هذا الانحلال الاجتماعي هو أساس الربا ، ولا يمكن ان ينمو الربا في مجتمع متحرر من الانحلال الاجتماعي .

●

ومن هنا جاء هذا التركيز على إثارة موجة الانحلال في العالم الاسلامي متمشياً مع مخطط اليهود في إغراق الأمم والحضارات في الرذيلة .

وقد ثبت فعلا[1] ان تصدر اليهود للفلسفات والمذاهب الاجتماعية والسياسة الفكرية انما يهدف أساساً الى هدم الاديان ، وان نشرهم الماركسية والوجودية والسريالية ومذاهب التطور والهيبية انما هو وسيلتهم الى نشر الإلحاد ونسف الإيمان في النفوس ، وقد استطاعوا ان يستقطبوا طائفة من التلاميذ ، للإيقاع بالمسلمين والمسيحيين في كل الأقطار العربية والاسلامية يروجون لآرائهم الهدامة بين الناس .

---

(١) راجع مقدمة بروتوكولات حكماء صهيون : خليفه التونسي .

وقد برع اليهود في إعطاء هذه المفاهيم التلمودية القديمـــة صيغة علمية لا يفطن الى زيفها الا أهل العقول الراجحة ، ويجتهـد اليهود في تشكيك الناس في الديانات عن طريق النقد الحر ، وعلم دراســة الأديان المقارنة ، والحط من كرامة رجال الدين .

وقد أفلحت اليهودية في طبع كثير من العقائد والنحل بما يحقق مصلحتها ، فترى روح الولاء والتهليل لبني اسرائيل ومعتقداتهم تهيمن على بعض المقدسات المسيحية ، وما ظهر مذهب فكان مؤدياً الى مسهم بالأذى من قريب او بعيد الا قتلوه ، وما كان مؤدياً الى خير لهم روّجوه في كل أنحاء العالم كذلك يروجون لكل قلم ما دامت آثاره عن قصد او غير قصد تساعد على إفساد الناس ، ورفع شأن اليهود ، كما فعلوا مع نيتشه الذي تهجم على المسيحية وأخلاقها . وقسم الاخلاق قسمين : أخـــلاق سادة كالعنف والاستخفاف بالمبادىء ، وأخلاق عبيد كالرحمة والبر ، مما يتفق والروح اليهودية وتاريخها ، ويمهد لها في الأذهان ويجعلها سابقة على نيتشه . كذلك روجوا مذهب التطور ، وأوّلوه تأويلات ما خطرت لداروين ، واستخدموه في القضاء على الاديان والقوميات والفنون باعتبار ان كل شيء بدأ في أول الامر يثير السخرية والاحتقار ثم تطور . فلا قداسة اذن لدين ولا وطنية ولا قانون ولا فن ولا لمقدس من المقدسات ، وهم يعبثون بعلم الاقتصاد والاجتماع ، وعلم مقارنة الأديان ويسخرونها لمصلحتهم ، وإفساد الأدب والنظم والثقافات والعقول في كل أنحـاء العالم ، ويدسون فيها نظريات مبهرجة لا يفطن الى زيفها الا الموهوبون » .

الفصل الرابع

الماركسية في مواجهة الاسلام

لقد طرحت الماركسية نفسها في مواجهة المسيحية والفكر الغربي كله واستطاعت في أقل من خمسين عاماً ان تستقطب ما يزيد على ألف مليون مسيحي في العالم كله بين من اعتنقوا الماركسية وبين من خرجوا على المسيحية باسم الفكر الحر وغيره .

ويمكن القول ان الفكر الغربي قد وقع منذ نشوء الماسونية التي مهدت للثورة الفرنسية تحت سيطرة فكر جديد منوع موزع من شأنه ان لا يجمع الناس على شيء فضلاً عن الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية . وقد أخذت الماسونية جانب البروتستانتية وأيدتها وفتحت لها محافلها ، ثم احتوتها من بعد ذلك ، وكان لها الأثر الخطير في خلق جبهة من التأييد للدعوى الصهيونية بما أطلق عليه العودة الى أرض الميعاد ، فان الصهيونية استطاعت أن تضرب اللبرالية والرأسمالية الغربية في الصميم بطرح نظرية جديدة لتمزيق العالم الى جبهتين وذلك باستقطاب العمال في مواجهة جشع أصحاب رؤوس

الأموال لإيجـــاد صراع عنيف بين الماركسية والرأسمالية . وقد أشارت بروتوكلات صهيون الى هذا المخطط منذ صدورها ١٨٩٧ وقبل قيام اول دولة على أساس ذلك النظام ١٩١٧ . وقد احتدت التجربة الاولى في روسيا حيث كانت الكنيسة الأرثوذكسية تمثل أضخم تحد في وجه الصهيونية العالمية ، ومن هنا حفظ اليهود للثورة الشيوعية الروسية وأمدوها بالمال وتواطؤوا مع اعـــداء الدولة الروسية حتى قاموا بثورة شيوعية حمراء أذاقوا بها الشعب الروسي ، ولا سيما المسلمين الخسف والتقتيل .

ولقد أشار كثير من الكتاب الى الرابطة العميقة رابطة الأمومة والبنوة بين الصهيونية والماركسية كمنهج والشيوعية كنظام . وتنبه كثيرون الى مدى امتداد الخطر الى العالم الاسلامي ، وبعد أن تحققت ثلاث خطوات كبرى للصهيونية في أوربا ، وهي قيام الثورة الفرنسية على يدي الماسونية وسيطرة اليهودية العالمية على الجماعة الامريكية الجـــديدة ، وقيام الدولة البلشفية في روسيا وكانت الخطوة الاولى في الشرق موازية تماماً لهـذه الخطوة الاخيرة بضرب الخلافة الاسلامية في الدولة العثمانية وإسقاطها .

وقد أشارت وثائق الصهيونية الى هذا في صراحة تامة : « ان الأفعى اليهودية في طريقها الى أورشليم قد مرت على القسطنطينية فدمرت الخلافة الاسلامية ، ولم يكن مفر لها من تدميرها قبل الوصول الى أورشليم وإقامة دولة اسرائيل » والمتتبعون لأحوال تركيا قبل سقوط الخلافة وبعـــد قيام مصطفى كمال بالحكم التركي اللاديني وانحياز تركيا الى اسرائيل يلمسون اليد اليهودية في توجيه سياسة تركيا ، وهذه نبوءة من نبوءات الاستاذ نيلوس .

ويتصل بهذا ما أذاعه السر ادور سبيرز (جريدة التيمس ١٩ مايو عام ١٩٤٨) حيث قال : لقد أثبتت الصهيونية انها كارثة تهدد البشرية ، وقد فتحت الابواب لتغلغل الشيوعية في الشرق الاوسط مما قد ينتج عنه حلول

كارثة لا يعلم مدى نتائجها فيما يتعلق بحضارة الغرب .

●

ومن آيات هذه الرابطة ان بروتوكولات صهيون التي نشرها في العالم لأول مرة سرجي نيلوس قبل خمسين عاماً باللغة الروسية كان يطلق عليها «الانجيل البلشفي » .

ويقول (فرانك بريتون) في كتابه الصهيونية والشيوعية : تختلف الصهيونية عن الشيوعية ظاهراً في ثلاثة أمور :

أولاً ــ التسمية : ففي الصهيونية تخصيص وفي الشيوعية تعميم .

ثانياً ــ مركز النشاط : مركز نشاط الصهيونية فيما اصطلح على تسميته بالغرب وتتزعمه أمريكا ومركز نشاط الشيوعية في الشرق وتتزعمه روسيا .

ثالثاً ــ الاسلوب في العمل : فالصهيونية تتاجر بالمال وتدعمه عند اللزوم، والشيوعية تتاجر بالدعاية يدعمها المال عند الاقتضاء .

أما الحقيقة الراهنة فهي ان الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وغايتهما واحدة وجوهرهما واحد ، والفئة التي تقوم عليهما من وراء الستار واحدة ، وما اختلافهما الظاهري سوى ترتيب موقف اقتضاه تأمين النجاح في السعي الى الغاية الواحدة . حتى اذا تحققت الثقة بالنجاح الكامل سارتا معاً للسيطرة على العالم « ولا مجال للانكار ان العالم اليوم منقسم الى شطرين، وان أحدهما ويسمى الشرق تسيطر عليه الشيوعية، ولكن حصافة الصهيونية حالت دون انتظهر سيطرة الصهيونية رسمياً علىما يسمى الغرب،وذلك لأنها لم تتملك بعد منه كما تملكت الشيوعية من الشرق فاستعيض عنها بالرأسمالية

لتسيطر على الشطر الآخر حيال الشيوعية ولا يخفى ان الصهيونية التي ظهرت تحت اسم (اسرائيل) لها سيطرة بعيدة المدى على دول الغرب جمعاء .

وكل من الرأسمالية والشيوعية يدعي اعتناق الديمقراطية الحقة ، وكل واحدة تتهم الاخرى بالتشويش على السلام العالمي وكلتاهما صادقتان ومتفقتان على تشويش الأذهان .

على الشعوب أن تفهم ان الخطر داهم ، وانها اذا لم تتنبه ولم تجمع أمرها شملها الذل والهوان ، وحرمت حتى من حرية التفكير ، لأن الفئة القائمة وراء كلتا الحركتين ، ليس بينها وبين غيرها من الشعوب ود مفقود . فقد جربت البشرية جهدها على مر العصور ان تهضمها فلم تفلح . فقد هضمت البشرية الفينيقيين والقوط والعمالقة على أساس ان البشر اخوة لا يضيرهم ان يندمج بعضهم في بعض ، الا هـذه الفئة التي تشتبه بعض الطير الذي يوزع بيضه في عشوش غيره من الطير ، فاذا فقست فراخه الغريبة في العش زاحمت الفراخ الأصلية واضطرتها الى الخروج من العش او الخضوع لها .

هناك قوتان تصطرعان من أجل السيادة العالميـــة : المسيح . والمسيح الدجال ، انها معركة حياة او موت أزلية .

ان اليهودية والتلمودية لهي نواة الشيوعية والصهيونية اللتين تناهضان المسيحية والملايين من اتباع المسيح قد أزعجوا وعذبوا ونفوا وقتلوا منذ تخطر الوحوش الحمر على البسيطة عام ١٩٧١ .

●

ويشير فرنك لي بريتون الى نقطة البدء وهي : « يهود الخزر » وكانت

الخزر امبراطورية قائمة في جنوب روسيا في القرن التاسع الميلاد ، وتسرب اليها عدد ضخم من يهود بيزنطة . وقد تحطمت امبراطورية الخزر في القرن العاشر ، واستوطن عدد كبير من اليهود الدول التي ظهرت من بعد وأهمها بولونيا ، وتوجه آخرون الى غربي أوربا وأسبانيا ، وكان لليهود نفوذ ضخم في بولونيا حتى عام ١٢٠٠ . وأحرزت روسيا بسبب تقسيم بولونيا الثالث أكبر نسبة من يهود العالم ، فاتصل تاريخها بالقضية اليهودية اتصالاً مستعصياً . وسبب اليهود في النهاية انهيار الامبراطورية .

ويقول : ان اليهودي الحديث بثقافته اليهودية يختلف عن يهود التوراة ، فهو لا يؤمن حقيقة بالتوراة بل بالتلمود ، وهو لا يتكلم العبرية بل اليهودية الدارجة ، وهو ليس من نســـل اسرائيل ، بل من حثالة شرقي البحر المتوسط .

وقد صور ذلك هـ.ج. ولز[1] فقال : ان الفكرة اليهودية كانت وما تزال مزيجاً غريباً من التسامح الديني والعنصرية العنيفة فقد بحث اليهود عن مخلص خاص ، مسيح ليصلح بني البشر بإعادة أمجاد داود وسليمان الخرافية، وجعل العالم في النهاية تحت نير اليهود .

ويشير فرانك لي بريتون الى ان الأحياء اليهودية الخاصة كانت تمتد من القرم الى بحر البلطيق (القرم على البحر الأسود الى بحر البلطيق في الشمال) وهو ما يعادل من الارض نصف مساحة أوربا الغربية . وقد بلغوا حتى عام ١٨٨١ من الازدهار والنجاح ما يفوق حد التصور . فقد حل اليهود على الاقتصاد الروسي مثل أرجال الجراد التي تسطو على حقل ذرة حديث الدرس،

---

(١) خلاصة التاريخ ص ٤٩٣ / ٤٩٣ ط ٣ .

ويبلغ الذين أقاموا فيها عام ١٩١٧ سبعة ملايين يهودي يضمون زهاء نصف سكان العالم اليهودي .

في هذه المستعمرة ازدهرت الفلسفتان التوأمان : الشيوعية والصهيونية ، وكلتا الحركتين نمتا من كره اليهود للحضارة المسيحية مضطهدة الشعب المختار، وكلتاهما انتشرتا حيث هاجر اليهود .

وحتى عام ١٨٨٢ استطاع اليهود ان يرسخوا أقدامهم في الاقتصاد الروسي بحيث أشرفت الدولة على الافلاس وعندما حاولت زحزحتهم من مكانهم في هذا الجو بدأت الحركتان التوأمان : الماركسية والصهيونية تتحكمان بجمهرة اليهود الروس وتسيطران عليها وقد حكمتا (الصهيونية والماركسية) اول ما أعلنتا يهود الألمان الصهيونية هرتزل ، ودخلت روسيا ١٨٨٠ فكانت منافسة للماركسية ولكاهنها الاكبر : كارل ماركس حفيد أحد الحاخامين ، وكان لا بد في النهاية لكل يهودي روسي ان يلتحق بإحدى هاتين الحركتين .

وفي هذا الضوء تجد التحليل النفسي لخدمة الهدف ، وتجد المادية التاريخية لخدمة الهدف ، وتجد الفصل بين الكنيسة والدولة لخدمة الهدف ، وجاءت الوجودية والهيبية لخدمة الهدف أيضاً .

•

وتقول مجلة فرنسا القديمة : ان مديري رقي أعمال الامة اليهودية هم الذين أثاروا الحرب الكبرى ودبروها بالدسائس بغيــــة جمع المليارات وتقسيم الممالك ، ثم محق ماليتها وقتل النبوغ في غيرهم وتعبيد الطريق الى شعب الله المختار للاستيلاء على الكون كله ، هؤلاء الزعماء اليهود هم الذين دبروا للبلشفية الدسائس ومهدوا لها ببذل المال وأثاروها انتقاماً للشعب الروسي واستكمالاً

لأعمال الحرب الجهنمية ، وإفناء العناصر البشرية وتحطيم المبادىء الاقتصادية.

والشيوعية دسيسة يهودية صهيونية لقلب النظم السائدة ، ولقد أدركت الأمم الأخرى ما يرمي اليه العنصر اليهودي من تخريب وإتلاف وإفساد عقائد ، وقد نشرت مجلة المشرق عام ١٩٢١ نقلاً عن جريدة موزنيخ بوست خلاصة كتاب طبع في نيويورك يؤخذ منه ان الحركة البولشفية في أيدي العنصر اليهودي .

(٣)

ما هي الماركسية : الماركسية نظرية كلية شاملة (Totalism) فهي طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والنزعات البشرية ، وهي نظرية ودعوة لعمل ما ، وفلسفة تتناول جميع نواحي النشاط الانساني ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاماً منطقياً يحمـــل في طياته مصائر محتومة كالقدر وتؤمن الماركسية بأن المادية هي أصل كل شيء ، وترى ان الدين هو مظهر لعجز الانسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الاقطاعية .

وعقيدة الماركسية انه ليس في الكون خالق بل الكون مادة، وان الدين مخدر للعقول يجب التحرر منه وان الدعامة الأساسية هي الالحاد وإنكار الله وإنكار البعث ونبـــذ الحقوق والالتزامات التي تقيمها الاسرة ، ولما كانت الاسرة هي دعامة النظام البرجوازي فيجب تحطيم هذه الدعامة والقضاء عليها وان الفرد وسيلة وليس غاية ، وان الفرد ذرّة تفنى في جسم الدولة ، وإلغاء حق ملكية الفرد وحق التوريث وحق ثمار الكسب . ومن هنا فان الشيوعية والدين ضدان لا يأتلفان ، ومن هنا كراهية المسيحية لأنها تحض على الرحمة .

والشيوعية نظام مادي يستمد فكرته من نظرية ماركس التي تزعم ان كل ما يقع في التاريخ من حركات فانما مرجعه الى الاسباب الاقتصادية ، وما دامت الأسباب الاقتصادية دون غيرها هي التي تملي على التاريخ حركته

وتسييره حيث تشاء فلا مجال للاعتراف بإله خالق او قوة وراء الغيب توجه البشر الى مصائرهم . وليس الدين عندهم الا تفسيراً خاطئاً للظواهر الاجتماعية وبقية من بقايا النظم الاستغلالية البائدة .

ولا ريب ان الماركسية الشيوعية بهذا المفهوم هي دين جـــديد يحتقر الأديان القديمة ، دين مادي ينكر الله ورسالات السماء ، وهو محاولة لتسخير الطبقة العاملة لطبقة جديدة حاكمة بالقضاء المطلق على الحرية الشخصية وحرية الكتابة وفق حكم دكتاتوري استبدادي .

وعندما حاولت الشيوعية تطبيق مفهوم ماركس ، تبين مدى الهوة السحيقة بين النظرية في مفهومها الفكري وبين التطبيق في عناصره المادية المحسوسة ، وليست نظرية التفسير المادي للتاريخ من أفكار ماركس فان مبتدعها هو الفيلسوف الألماني هجل : ولا تنفرد الشيوعية باعتناقها ، ولكن يشاركهم الماديون والدهريون . وليس التفسير المادي للتاريخ هو التفســير الأوحد ، ولكن هناك عدداً من التفسيرات التي قدمها مونتسكو وبوكل . وقد تعددت التعليلات بالمناخ والطعام والارض ، وجاء التفسير بالمال والحالة الاقتصادية الذي قال به ماركس واحداً منها ، ولكن اعتبر في الماركسية أساساً أولياً .

وبالجملة فان المادة في الماركسية هي التي تفسر كل شيء في الكون وفي المجتمع الانساني ، وحيث يؤمن أصحاب الأديان بالروح والمـــادة لا تؤمن الماركسية الا بالمادة وحدها ، وحيث يؤمن الانسان بالنفس التي تخرج بالموت ، تؤمن الماركسية بأن الجسم آلة تعمل فيها مختلف الأجهزة ، وان الموت هو توقف هذه الآلة عن العمل . وبينما يؤمن المسلمون بأن الدين عامل هام في

تحريك المجتمع ودفعه الى التطور تؤمن الماركسية بأن العوامل الاقتصادية من فقر وغنى هي التي تسبب حوادث التاريخ .

والخطأ الاساسي في نظرية ماركس انه أقامها في ضوء حالة عرضية لم تلبث ان تغيرت . وقد قامت قبـــل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدت العقيدة الدينية واتهمتها بأنها عائق في وجه الاصلاح، ثم اندثرت تلك النظم او تطورت الى نظم أخرى وبقيت العقيدة الدينية قائمة كالطود الشامخ لا سبيل الى تجاوزها في النفس الانسانية ، او تجاهل أثرها في الحياة الاجتماعية .

ولقد طرحت الماركسية نفسها في العالم الاسلامي وفي الفكر العـــربي الاسلامي ، ووجدت عوناً من النفوذ الاستعماري الذي استهدف الاستعانة بها على تحطيم الشخصية وبلبلة الفكر وتمزيق مفهوم الاسلام ودفع العرب والمسلمين الى متاهات خطيرة . غير ان مفاهيم الاسلام ما لبثت ان واجهت هذه المخططات وعارضتها ووقفت إزاءها موقف الوضوح ، اذ ما في الاسلام من دعوة الى العدل الاجتماعي يكفي المسلمين ، ولا يحتاجون بعده الى مناهج وافدة ، وهو يحقق لهم المساواة والعزة دون ان يسلب الفرد حريته او يضعهم تحت الوصاية القاهرة . وان التجربة الماركسية الشيوعية نفسها لتكشف بوضوح عن عجزها في تحقيق الغايات التي فرضت انها أساسية في منهجها ، ولم تنجح الشيوعية في إلغاء نظام الطبقات ، بل محت طبقات وأقامت بديلاً منها طبقات جديدة .

ولا ريب ان الماركسية لم تلق من الفشل قدر ما لقيت في العالم الاسلامي، وان كانت تستهدف بدعوتها تحطيم النظم الاجتماعية التي دعا اليها الاسلام .

ولا ريب ان أبرز ما تدعيه الماركسية من القضاء على التفاوت الطبقي

وتحرير الانسان من استعباد الانسان هو أكبر أهداف الاسلام وأعظم معطياته ، فليس المسلمون في حاجة الى التماسه في مناهج أخرى ولكن الاسـلام يحقق هذا الهدف في إطاره بالإيمان بالله والتوحيد .

وتاريخ الانسانية كله (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) يقرر مدى الدور الهام الذي لعبه الدين في تشكيل الأحداث والوقائع ، ويكشف عن الحاجة الضرورية الماسة للبشرية كلها في التماسه ، وما تزال المجتمعات الغربية التي سقطت في براثن المادية تتطلع الى منهج يحقق تكافلها الاجتماعي ويعطيها الإيمان وطمأنينة النفس ويذهب عنها القلق والتمزق ، ولن تجد ذلك كله إلا في الاسلام .

ولقد اتجه الاسلام منذ اليوم الأول الى الفقراء والمستعبدين والمظلومين ، فقرر حقهم وأنشأ مجتمعاً يطبق ذلك وينفذه ، ونشر دعوته تلك في العالم كله ، ولن يستطيع أي منهج او أيديولوجية بشرية ان تصل الى ما وصل اليه الاسلام . وقد أقام الاسلام ذلك كله داخل نطاق التوحيـــد ، وفي إطار الاخلاق ، ووفق مناهج الكرامة الانسانية والعدل الاجتماعي ، فهو لم يجعل أنظمة الزكاة والميراث وغيرها صدقات ، وإنما جعلها أصولاً ثابتة واقعية ، وقد حقق ذلك كله دون أن يريق قطرة دم او يوقع العالم في صراع دموي ويبقى بعد ذلك ان الاســـلام مستمر على التاريخ البشري كله ، بينما تظل النظرية الماركسية علامة على مرحلة من مراحل التاريخ البشري ، وان العالم كله الآن يتجاوز الماركسية كأي فكر بشري يصعد الى قمة من القمم ، ثم تأتي المتغيرات فتتجاوزه . ولقد حاولت الماركسية ان تصحح نفسها مرة بعد مرة ، وان تضيف وتحذف في محاولة للمواءمة مع التطور والحيـــاة ، وليس كذلك الدين ، وليس كذلك الاسلام الذي يضع الاطار الثابت العميق

المستمد من الفطرة والذي يتلاقى مع كل العصور والبيئات .

ومن هنا نجد ان إسلامنا يعطي أكثر مما تعطي الماركسية ومختلف المذاهب والايديولوجيات لأنه يقوم على التكامل والارتباط بين القيم ، وعلى أساس الفهم العميق للانسان نفسه ، وعلى أساس كفالة التنفيذ عن طريق الطابع الاخلاقي والإيمان بالله، والإيمان بالجزاء الاخروي الذي يثبت قواعد المسؤولية الفردية وضوابط الالتزام الاخلاقي .

ويرى أرنولد توينبي ان الماركسية هي من نتاج الحضارة الغربية وهي تمثل أزمة من أزماتها وانحرافاً في طريقها ويصدق هذا القول اذن ان ماركس لم يكن في الحقيقة يحمل رسالة ولا يدعو لحضارة جـــديدة بل هو ابن بار للحضارة الغربية صنع نظريته من (الفلسفة الالمانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانجليزي) أي عصارة الحضارة الغربيـــة في قمة نموها .

« ماركس يؤمن بالحضارة الغربية بكل قيمها وتاريخها ويعتز بهذا التاريخ ويعتبره تقدماً للبشرية في طريقها نحو النصر الأكبر ويسمي جرائم هـــذه الحضارة حتمية تاريخية لا يرجعها الى فلسفتها بقدر ما يرجعها الى الضرورات الاقتصادية ،وكل ما يتقدم به ماركس هو حل لإنقاذ هذه الحضارة وإخراجها من ورطتها » .

أما نحن فندعو لحضارتنا . يقول عمر : كنا نعد المعترض بخيلاً ، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هــذا المال وهو في مكانه .

ان التصميم الرباني الذي ينظم به الاســلام المجتمع والاقتصاد لا يستطيع

أي منهج بشري ان يصل اليـه ، لأنه من عند مبـدع الانسان وخالقه .

ان ثمة طريق آخر غير الرأسمالية والماركسية هو طريق الاسلام الذي يملك تشريعاً مفصلاً في أمور الحكم والاقتصاد والاجتماع يقـوم على تكريم الانسان وأخلاقية الحياة ، ولن تستطيع هذه المذاهب ان تعطي الانسان ما يعطيه الاسلام لأنها لا تؤمن به مستخلفاً في الارض ولكنها تؤمن به ترساً في آلة ، والعناية بالطبقات الكادحة لا تتم الا في إطار الإيمان بالله ووضع الانسان في مكانه الطبيعي : له إرادته ومسؤوليته والتزامه الأخلاقي ، وله إيمانه بالله والتحرك في إطار الرسالة التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ، ولن يستطيع أي منهـج اجتماعي ان يعطي البشرية شيئاً خارج إطار الدين والاخلاق ، ولقد حل الاسلام مشكلة العيش ولم يجعلها الا واحدة من قضايا الانسان والمجتمع ، الى جوار قضايا الاعتقاد والتشريع والاخلاق ولن يتأتى تحقيق العدالة الاجتماعية بإعلان الحرب على الدين او بمنطلق من المادية الخالصة . ولا بد ان ترتبط قضية العدل الاجتماعي بالاعتقاد القائم على توحيد الله في نطاق ميتافيزيقيا واضحة المعالم ، رسمها الاسـلام في القرآن ، وشفى بها النفس البشرية من القلق والتطلع والبحث عن طريق العقل والفلسفات ، وهي التي تستطيع هداية الانسان لأنها تبحث فيما لا يستطيع الخوض فيـه .

والعقيدة الدينية الصحيحة لا تنتهي الا بعد تغيير المفاهيم الاساسية عن أسباب الغنى والفقر ، فالبشر هم المسؤولون عن الإخلال بالأوضاع الطبيعية التي يعيشون بها ، وهم الذي أقاموا هذا الظلم الواقع على المحرومين والكادحين . فلنرجع هذا الاخلال من مستوى الحياة التي نحياها ، وعندئذ يسلم لنا الاعتقاد

في الله ، ذلك ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وليس المال وحده هو الرزق ، بل هو كل مواهب الله وكل نعم الله على الانسان (الصحة ، القوة ، الجاه ، الغنى ، المال ، الحيلة ، الذكاء) .

نعم ، ليس الاسلام هو المسؤول عن تخلف المسلمين وضعفهم ، ولا عن فقرهم وإسرافهم ، وانما هم المسؤولون لأنهم خالفوا شريعة الله التي وضعها للناس .

(٣)

لا ريب ان كل الدراسات العلمية والوقائع التاريخية تقرر الصلة الواضحة والأكيدة بين الماركسية والصهيونية ، فان زعيم الماركسية هو كارل ماركس اليهودي ومفاهيمه عصارة نفوس مليئة بالحقـد على مختلف طوائف البشر راغبة في الانتقام منها . وقد اعترف الصهيونيون بأنهم أول من نادى بالشيوعية ، وقد كانت الثورة البلشفية من تصميمهم ، وقد اشترك أثرياؤهم في تمويلها .

ولا شك أيضاً ان النظام الرأسمالي الليبرالي هو أيضاً من منبع اليهود ويستهدف تعاون اليهود والشيوعية للوصول الى السيطرة على العالم ، وتسخير المواد العالمية وفق أهوائهم .

وقد عرض أحد الباحثين الى وجوه المقارنة بين الصهيونية والشيوعية ، فأشار الى ما يأتي :

أولاً : نظرتها للحرية . وأكد ان الحرية عندهما لا تعني ما اصطلح عليه الأحرار في كل مكان من مفاهيم الحرية ، وانما تعني شيئاً واحداً هو السلطة ، والسلطة هي حق حرية الاستعباد والظلم ، والسلطة الحاكمة المستبدة تملك كل شيء بما في ذلك عقول الناس وضمائرهم .

ثانياً : تنادي الشيوعية والصهيونية بضرورة تحطيم نظام الاسرة والقضاء على الروابط العائلية وجعل الولاء مقصوراً على السلطة الحاكمة ذاتها والنظام الأمثل للاسرة في نظرهما هو النظام المفكك الذي يجعل الاسرة أفراداً متطرفين يرتابون في بعضهم البعض .

ثالثاً : الصهيونية تطالب بالقضاء على كل الاديان غير اليهودية، وتعمل على نشر الإلحاد في فترة معينة من فترات الكفاح من أجل السلطة ، وهو ما تطالب به الشيوعية ، ذلك ان الشيوعية تقضي على كل الاديان ، وتجعل من عقائدها ديناً جديداً ، فهي تخلع على هذه العقائد قداسة أشبه بقداسة الدين ، وتخفي وراء هذا الدين المادي كل مظاهر سطوتها وسلطتها واستبدادها . وهدف الصهيونية إتاحة التفوق لدين واحد هو اليهودية مماثلا تماماً لهدف الشيوعية من إتاحة التفوق لعقائد معينة ترفعها الى مرتبة عقائد الدين .

رابعاً : مثلما ينادي حكماء صهيون بضرورة إشعال نيران ثورة عالمية بغية إخضاع العالم كله للسيطرة الصهيونية ينادي حكماء الشيوعية بإشعال ثورة من هذا الطراز بغية اخضاع العالم كله للسيطرة الشيوعية . وفي سبيل إشعال نيران هذه الثورة لا يتورع حكماء « الشيوعية والصهيونية » من المطالبة بالالتجاء الى التآمر والخداع والتضليل والتجسس والتسلل في صفوف الجماعات المناهضة للشيوعية والصهيونية .

●

وبالجملة فان الاسلام يواجه منهجه الاصيل الشامل المتكامل هذه الاخطار التي تنطوي عليها الماركسية والصهيونية ، وما تطرحانه من نظريات حول

المواءمة والانصهار في دعوات القومية او الوطنية او تفسير الاسـلام بأنه يقترب من الماركسية او غير ذلك من أوهام على أساس إيمـان لا ريب فيه بأن الاسلام نظام متكامل قائم بنفسه ، غير مجزأ او مصبوب في أي قوالب أخرى ، وهو نظام الثبات الذي لا يتغير ولا ينطوي بينما تتغـير المذاهب وتتعثر وتتقلص وتموت .

الفصل الخامس

الاسلام والبشرية

واجه الاسلام تحديات المسيحية والصهيونية والماركسية والإلحاد والمذاهب الهدامة ، كما واجه محاولة تمسيحه وتهويده وصمد أمام كل التحديات ، ووقف موقف الاستجابة الحقيقية حينما تساءلت البشرية : هل يستطيع الدين أن ينقذ البشرية او ينقذ الحضارة ، واستطاع ان يجيب بالإيجاب بينما عجز كثير من الاديان ان يقدم شيئاً في هذا السبيل .

لقد وقعت اليهودية تحت سلطان الفكر البابلي القديم وشكلت منه تراثها كله ، ووقعت المسيحية تحت سلطان الفكر الإغريقي (مثالية أفلاطون ومنطق أرسطو) . واستطاع الإسلام ان ينجو من الجاهلية العربية واليونانية والمجوسية والهندية والفرعونية ، وتمكن من ان يقدم منهجه كاملاً للبشرية دون ان يصاب بالتحريف او التأويل .

ولقد انتشر الاسلام على مساحة واسعة من الارض أكبر من المساحة التي انتشرت عليها المسيحية او اليهودية ، وفي فترة أقل كثيراً .

ولقد أعلت اليهودية العنصر ، بني اسرائيل شعب الله المختار ، وغفلت المسيحية عن مكان الانسان في المجتمع واهتمت بإعلاء الفرد ، ومنها قامت الفردية قاعدة الفكر الغربي .

وكانت تفسيرات المسيحية للتثليث والزهد من التحـديات التي صدمت العقل الحديث ، ولقد تنصرت الأمم الاوربية في القرن الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفوتها عشرة قرون (ألف عام) ثم تيقظت نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الاسـلام بمعتنقيه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الاول للهجرة ، فلم يكن الإسلام سبب تأخر المسلمين ولم تكن المسيحية سبب تقدم أوربا ، فقد كانت الأمم الاوربية قبل اعتناق المسيحية أرقى منها فيما بعد ذلك . يقول ليسنج في كتابه فلسفة التاريخ: لقد اعتبرت اليهودية الإله مصدر خوف وطمع ، وأزالت المسيحية الفوارق العميقة بين الألوهية والبنوة ، ونحن نقول ان الاسلام قرر ان الله هو الرحمن الرحيم ، وهو المنتقم الجبار ، وان رحمته سبقت غضبه ، وان الألوهية مستقلة عن النبوة وقضى باستحالة الالتقاء بينهما او تحول أحدهما الى الآخر . وفي الغرب لم يكن العلم خالصاً للعلم ولكنه محاولة لنفع الاستعمار ، ولم يكن العدل خالصاً للبشرية ، ولكنه قاصر على الجنس الابيض . وتبدو روح الغرب واعرافه واضحة في القوانين والنظم والتشريعات المجافية للاخلاق والمنقطعة عن الايمان بالجزاء الأخروي ، ومنها إباحة الربا وإباحة الزنا في فراش الزوجية .

(٢)

قدم الاسلام فتوحات جديدة في الدين والاخلاق تقدمه على ما سبقه من رسالات ، بعد ان اتفق مع هذه الرسالات في جوهر الدين وأصول التوحيد.

وقد أعلن الاسلام انه انما جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وليس ذلك نقضاً للمتقدم ، وانما وقوفاً بالحكمة عند وقتها المناسب وأجلها المقدر[1] وجاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه .

كذلك قطع الاسلام الامتداد الفكري والاجتماعي والثقافي بين ما قبل الاسلام وما بعده عند العرب أولاً ، ثم في كل مكان حل فيه . وقد ذهب الاسلام الى كل مكان وأثر في جميع النحل والأقطار ، وكذلك قطع الاسلام امتداد الوثنية في العالم كله ، وقطع امتداد العبودية وإذلال الانسان في العالم أجمع .

وبالاسلام تجاوز العالم تاريخه القديم ونسيت مصر وسوريا والمغرب طوابعها الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية ، وكذلك جاء الاسلام فيصلاً قاطعاً بين عهد وعهد ، وفكر وفكر ، وحضارة وحضارة . وحرر العقائد

---

(١) من بحث للدكتور محمد عبد الله دراز .

من عبادة الابطال ، وحرر الشرائع من عبادة القوة ، وحرر الدين من الشرك والتعدد ، كما رفض الاسلام فكرة الرهبانية ، والهروب من الحياة والسلبية والانطوائية ، ورفض التفسيرات الدينية القديمة للرهبانية والمرأة والغريزة ، وألغى فكرة الكظم العام والرغبة الجسدية ، وأباحها في إطارها ، وأقام الاسلام طابع الاخلاقية بالالتزام ، وجعله المظلة الواقية التي جنبت القيم من التمزق والتجزئة .

وبنى الاسلام منهجاً متكاملاً لا يفصل الدين عن الدولة ، ولا الدين عن العلم ، ولا الاخلاق عن المجتمع ، ولا يعرف حكومة إلهية ،ولا يرفع الانسان عن مستواه البشري ، ويجعل الفرد للمجتمع ، والمجتمع للفرد ، ولا يفرق بين الناس على أساس العنصر والعرق او الدين او اللون ، ويرفض الرهبانيـة والترف معاً ، ويجعل المال ملكية خاصة ووظيفة عامة ، ومنفعة للناس جميعاً .

(٣)

عارض الاسلام مفاهيم الفكر البشري وانحرافات العقائد والتفسيرات الباطلة للأديان ، وذلك بعد ان حدث ذلك التلاقح العجيب بين الأديان المنزلة والفكر البشري الوثني حتى جاء الاسلام قاطعاً فاصلا مقرراً أصول الدين الحق .

وقد وضحت معارضة الاسلام لعبادة قوى الطبيعة وما يتصل بإعلاء شأن الشمس او النور والظلام او آلهة الخير والشر ، او عبادة الناس او التناسخ . كما عارض تحريم صيد الحيوان بدعوى قتل النفس او رحمة العصفور وعارض إباحة الاموال والنساء ، وأكد البعث والجزاء ، والجنة والنار التي عارضها اليهود والدهريون ، وأعلن وحدة الخلق البشري نفساً وجسداً ، وعارض تقسيم الانسان الى عنصرين ، او صراع العنصرين داخل الانسان ، وأكد الفوارق الاساسية ما بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الانسانية ، وكشف ما بينها من تمايز واستحالة امتزاج او اتحاد ، وهدم الاسلام سقوط التكليف والقول بأن من وصل الى معرفة الله سقطت عنه الفرائض ، وعارض نظريات الفيض والاشراق ووحدة الوجود والحلول والاتحاد ، كما أعلن الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب ، وكشف عن استحالة التأويل فيها بما يخرج

النصوص عن مدلولاتها الأصلية الى مفاهيم محرفة بالهوى على النحو الذي أحدثه بعض أئمة الأديان في تفسير الأديان الاخرى .

●

وأوضح الاسلام الغاية من خلق الله للناس ، وأعطى المسلمين سبيل هذه الغاية وأسلوبها والعمل لها على نحو شامل واضح بحيث لا يعـــرف المسلمون التساؤل الشاك القلق الذي يلف النفوس البشرية غير المؤمنة من السؤال عن سر الوجود والحياة في هذه الارض ، ولقد عجز غير المسلمين عن فهم هذه الغايات فاضطربت حياتهم .

كذلك وجه الاسلام المسلمين الى الاستدلال بالخلق على الخالق ، فعرفوا ان وراء هـذا العالم خالقاً عظيماً ورباً كريماً يحيط به ويصرفه ساعة بعد ساعة ، ويمسكه لحظة بعد لحظة .

ولقد أعلن الاسلام ديناً عالمياً للانسانية جمعاء ، فلم يستمد تسميته من جنس كاليهودية ولا من نبي كالمسيحية ، ولكن استمد اسمه من جوهر فكرته الاصيلة ألا وهي إسلام الوجه لله .

وقد شجب الاســـلام نظام الرهبنة والوساطة بين الله وخلقه ، وأعلن حرية العقيـدة « لا إكراه في الدين » ، وأقام قاعدة أساسية تحول دون الانحراف ، وتعطي القدرة على تنقية الاســـلام من الشوائب التي تتجمع لتفسد جوهره .

وأعلن ان الدين من عند الله ، وانه من أعماق ا[illegible] رة الانسانية ، فهو ليس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية او من نتاج الارض كما يقول الملاحدة ،

وليس هو أفيون كما يقول الماركسيون .

وقد حرص الاسلام على توجيه الانسان الى الجانب العملي الاجتماعي الذي يدور على نفع الناس والتأكيد على إطلاقية المجتمع ، ورفع عن المسلمين إصر البحث عن الوجود والخلق والغيبيات بعد ان فصّلها لهم تفصيلاً لا زيادة بعده لمستزيد .

(٤)

ان آفة الفكر الغربي (وخاصة أصحاب مناهج مقارنة الأديان) انهم لا يضعون الاسلام موضع النظرة المجردة في منهج علمي خالص ، غير مبطن بالأهواء ، وغير متصل بالمطامع وغير مجرد من الأحقاد، وذلك موقف الفكر الغربي مع الإسلام منذ القديم، منذ [illegible] الغرب بأن يتخلى الاسلام عن أرضه التي سيطر عليها ألف عام عائداً الى الجزيرة العربية ، ومنذ أعلن الغرب انه لا يقبل مزاحمة الاسلام في أوربا، وعمل على تهجير المسلمين او تنصيرهم، وكانت صيحة غلادستون عن موقفه من القرآن أوضح من الوضوح ذاته .

ويصور هذا كثيرون ، ويكشف برناردشو موقف المسيحية الغربية من الاسلام فيقول : لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطى الى تصوير الاسلام في أحلك الألوان والواقع انهم يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ، ويعدونه خصماً للمسيح ، أما أنا فأرى واجباً ان يدعى محمد منقذ الانسانية ، وأعتقد ان رجلاً مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته .

ومن هذا المنطلق كان هدف الفلسفات المادية كلها تقويض دعائم الاعتقاد

بوجود إله واحد ، بغض النظر عن البديل المقترح ، وكان البديل هو ألوهية المادة او ألوهية الانسان او اتخاذ الغريزة محوراً لتفسير الوجود ، ولا ريب ان الهجوم على التوحيد انما هو موجه للاسلام أساساً ، فالاسلام هو الدين الوحيد الذي صفت فيه عقيدة الوحدانيـة من شوائب الشرك ، فالإله في في عرف اليهود إله قومي لهم وحدهم دون غيرهم من الأميين ، وفي عرف النصارى هو واحد من ثلاثة .

ولقد جاءت الماركسية تدميراً[1] لفكرة الألوهية وربطاً للانسان ومصيره بمصير المادية المجسد وتفسيراً لحركة التاريخ بعوامل ليس فيها إرادة الله فضلاً عن عدائها الصريح الذي لم يتوجه في الحقيقة إلا الى الاسـلام باعتباره معقل الفكر الديني ، ورمزاً يجسد العلاقة بين الله الواحد ، وبين المخلوق الموحد ، وهي تمد أصرح حملة وجهها الفكر الحديث الى معقل الوحدانية وان بدت عاجزة عن تحقيق أهدافها بعـــد ان شاهت وبارت في نظر كثير من المفكرين .

ولقد جرت محاولات كثيرة لاعتبار الدين مسألة تاريخية وقضية مرحلة ؛ وكانت الفلسفة الوضعية هي التي ركزت على القول باعتبـار الدين مرحلة تاريخية في تاريخ البشرية والتهوين من أثر الاسـلام في حركة التاريخ . وقد تبين زيف القول بأن الاسلام كان ضرورة مرحلية لحلقـــة من سلسلة تطور البشرية ، اذ أثبتت الوقائع التاريخية وما تزال تثبت الى اليوم ان الاسلام دعامة أساسية للجغرافيا والتاريخ والاستراتيجية والحرب والسـلام ، وانه

---

(١) من بحث للدكتور عبد الصبور شاهين .

الجدار القوي الذي يصد كل ما تطرحه الوثنية والمادية ، وما تأمر به الشيوعية والصهيونية والاستعمار الغربي ، بالرغم من ضعف الاقتدار المادي الذي تملكه هذه القوى ، وان الاسلام ما زال صامداً أمام التحديات ، وما زال مؤثراً في تطور الأحداث ووقائع التاريخ يوماً بعد يوم ، وانه يكسب كل يوم أنصاراً جـــدداً ويحرر أمماً ويدفع الفكر الانساني الى الطريق الحـق .

واذا كان الاسلام قد قضى على الشرائع الفاسدة التي كانت سائدة قبل ظهوره في الفرس والفراعنة واليونان والرومان والهند بما تعلي من شأن الطبقة الواحدة ، وتقيم العبودية وتركز العنصرية ، فان الاسلام في هذا العصر لن يتأخر عن دحر هذه الانظمة وادالتها متى استمسك به أهله وفهموه ديناً متكاملاً جامعاً وطبقوا شريعته ، وأقاموا أخلاقه وعقيدته . ولعل من أبرز الظواهر القائمة اليوم ذلك التحدي الواضح الذي يشرق في آفاق عالم الغرب بالتماس منهج جـــديد وذلك للصراع القائم بين الايديولوجيات والاديان (الايديولوجية هي النظام الفكري الذي يحاول ان يكون منهجاً للحياة من صنع البشر ، وهو يختلف من مجتمع الى مجتمع ، ومن عصر الى عصر ، ويحتاج في العصر الواحد الى تعديلات مستمرة ، وفي المجتمـع الواحد الى تغييرات متوالية حيث لم تثبت أيديولوجية ما حتى الآن أكثر من عشر سنوات دون أن يجري عليها تعديل وتغيير) .

أما الدين فهو المنهج القـائم بالحق . ويقول توينبي : ان الأديان السماوية تراجعت لتشغل خيراً فردياً في حياة القلة من أفراد المجتمع بحيث لا تدخل في مجال حياتهم وتعاملهم ، ومن الحق ان يقـــال في الرد على

ذلك : ان هذه الاديان نفسها قد تشكلت على انها أديان عبادة . وقد أشار توينبي الى ذلك حين قال ان الدين المسيحي أصبح يخص الانسان فقط مفصولاً عما يخص المجتمع ، وليس كذلك الاسلام فهو الدين الوحيد الذي دعا الى إقامة منهج حياة ونظام مجتمع مستمد من الأصل الرباني : القرآن . ولكن السؤال : هل تستطيع هذه الايديولوجيات والمذاهب ، وهي جميعاً من نتاج الغرب وحضارته ان تنهي علاقة الاديان بالبشر، او ان تحل مشاكل المجتمعات وتحديات البشرية ، ذلك ما تتقرر فيه الإجابة بالنفي القاطع .

ولقد قاست هذه المجتمعات التي حاولت أن تقيم أيديولوجيات من صنع العقل البشري ، وما تزال تقاسي والمؤكد ان عودة البشرية الى الاديان (والدين الحق) هو سبيل خلاصها من التحلل والانهيار والدمار الروحي والمادي .

وقد تبين للانسان ان ما وصل اليه علم لا يمثل إلا قدراً قليلاً بالنسبة لتفسير الكون والحياة وان الكلمة الاخيرة في مصيره ليست في متناوله[1] .

ومن الحق أن يقال ان المجتمعات الغربية لتتعطش اليوم الى الدين ، وترى فيه ترياقها في هذا العصر القلق المتفكك ، وتجربة الانسان في هذا الصدد فريدة فقد صهر المجتمعات التي اعتنقته في وحدة عاطفية واجتماعية وسياسية واقتصادية ، وان دراسة الاسلام وفهمه على أصوله سوف تكون في المستقبل القريب عاملاً هاماً في هداية البشرية ، بعد ان كشف العلم الحديث آفاق العالم

---

(١) الاستاذ يحيى الهاشمي في تعليقه عن كتاب العادة والتغيير لتوينبي .

وقدم للناس زيادة عما مضى دلائل جديدة على عظمة الخالق في كونه الواسع العجيب ، وكان لتحطيم الذرة أثرها في تحطيم مفهوم الفلسفة المادية القائم على إنكار عالم الغيب . فقد بدا هذا العالم واضحاً من خلال العلم .

●

وليطبق المسلمون الاسلام أولاً : وليكونوا مسلمين حتى يضعوا التجربة أمام البشرية ، وليدافع المسلمون عن روح الاسلام في مجتمعاتهم ، فهم لن يستطيعوا ان يقوموا برسالتهم في هداية البشرية المتطلعة الى ضياء جديد لن يأتي لها الا من قبل الاسلام ، الا اذا أقاموا أنفسهم على الاسلام عقيدة ومنهج حياة .

وليس في المدنية الغربية شيء يحتاجه المسلمون الا هذا العلم الطبيعي التجريبي الذي هو ملك للعقل البشري عامة ، والذي ساهم المسلمون في بناء لبناته الاولى ، حين أقاموا المنهج العلمي التجريبي . أما اجتماعيات الغرب ، فليس المسلمون في حاجة اليها ، عندهم منهجهم الاصيل . أما ميتافيزيقيا الغرب فهي من نتاج العقل البشري القاصر ، وقد أعطى المسلمون منهجاً ميتافيزيقياً كاملاً ليسوا بعده في حاجة الى مناهج في هذا الباب .

ومن الحق ان يقال ان الاسلام لم يبن أهراماً ولا هيكلا ولا تمثالاً ، ولكنه بنى النفوس والعقول فقد أقامت هذه الهياكل أمم كانت خاضعة للعبودية والظلم ، ولكن جاء الاسلام ليقيم دولة الفكر ويجعل الامر كله لله .

ونحن اذا بحثنا في الثورات الكبرى التي قامت في مختلف أنحاء العالم ، والتي هدمت المعابد واعتقلت رجال الدين لم نجد أصولها ولا بواعثها الا الثورة على تلك القيود التي فرضها الاكليروس والكهنوت بغير الحق .

ان الاسلام هو الذي حرر الروح الاوربية الغربية بعـــد ألف سنة من الاستعباد والإذلال اللذين كبلتها بهما قوى باسم الدين، وكان الاسلام في الاندلس هو منطلق النور والضـــوء الى أوربا . يقول جيمس بريستد : ان العصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في اوربا ، وان اعتزال المسلمين في أسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية .

ومن الحق ان يقال ان الاسلام هو الذي أقام عقيدة التوحيد في مواجهة الوثنية والتعدد ، وأقام فكرة إباحة زينة الحياة في مواجهة الرهبان ، وأقام الصلة المباشرة مع الله في مواجهة وصاية رجال الدين وأقام منهج التكامل في مواجهة الانشطارية ، وأقام مسؤولية المجتمع ازاء فقرائه وضعفائه في مواجهة قتل الفقراء والضعفاء ، وأقام الإخاء الانساني في مواجهة العنصرية ، وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد في مواجهة الفردية المتعصبة والجماعة الظالمة ، وأحل الله البيع في مواجهة الربا ، وأعلن ان الله رب العالمين في مواجهة الإله الخاص ، وأكد اليوم الآخر والجزاء في مواجهـــة الدهرية ، وأعلن منهج الثبات والحركة معاً في مواجهة نظرية التطور المطلق ، وأعلن ثبات الاخلاق في مواجهة نسبية الأخلاق الباطلة ، وقدم ديناً لا يصدم العقل في مواجهة الأسرار والأساطير والخوارق ، وألغى عبودية الانسان ، وحرره من عبودية الحضـــارات ، وأعلن حقوق المرأة إزاء ظلمها الفادح ، وألغى العصبية القبلية وأحل بديلاً منها أخوة العقيدة ، وأعلن التكامل والترابط بين عالمي الإنسان الداخلي والخارجي وبين عالم الغيب والشهادة .

وأوحى الى معتنقيه شعور العزة وخلصهم من كل تكلف او اصطناع ، ودعا الى الفطرة وأنكر التقليد ، ودعا الى العودة الى الحق متى استبان وجه

الصواب ، ودعا الى ثبات الهدف وتعدد الوسائل ، وأعلن ثبات الجوهر وتغير الصورة .

ومن أبرز معالم قوته قدرته على إعادة صياغة نفسه ، وكشف الأغشية التي تحاول إخفاء جوهره ، ورد المذاهب والنظريات التي تتعارض مع منهجــه .

والاسلام يشق طريقه في العجز منذ أكثر من مائة عام ، فهو ليس متطلعاً بالقدرة التي تدفعه اليه حوافزه وقواه ، وان القوى الخارجية تحول دون انطلاقه الى غايته واحتلال ارادته لتحقيق قيام مجتمعه . وقد طبــع الاسلام حياة المسلمين وسيظل يطبعها، وهو لن يسقط أمام التبشير الأدبي ، لأنه متجدد النظرة ، ثابت الدعائم ، وما يزال القرآن قائماً بالحق .

وانه ليعطي البشرية اليوم ، ولسوف يعطيها في الغــد ، وكل الدلائل تكشف عن انه ينطلق الى غايتـــه لتحقيق رسالته بأقرب مما يظن المراقبون .

وفي المقارنة التي عقدتها موسوعة تاريخ البشرية عن دراسة الاديان في القرن العشرين تقول الموسوعة عن الاسلام : كان الاسلام في القرن العشرين متشابكاً تشابكاً لا فكاك فيه مع التطورات الاجتماعية والسياسية لهذا العصر ، ولما كان الاسلام ديناً يشمل عند اتباعه القانون وأسلوب الحياة ، فقد كان عليه ان يكون عنصراً من عناصر حركات تحرر الشعوب الاسلامية من حكم غير المسلمين ، ونشر التغييرات الكبرى في القرن العشرين في المجال السياسي ، فالإحياء الاسلامي جزء لا يتجزأ من الثورة السياسية

والاقتصادية بين الشعوب الاسلامية ، وقدم الاسلام مصدراً روحياً للقومية ثقافياً وسياسياً ، فمنح الجهاد ضد السيطرة الغربية بعض خصائص الحرب المقدسة ، وفي الاسلام من حيث هو مرشد للسلوك السياسي نجـــد ان اصراره التام على المساواة بين المؤمنين تتمشى مع الاتجاهات الديمقراطية الحـــديثة .

(٥)

ان الاسلام منذ صيغته قد شكل نفســـه تشكيلا مستقلا واضحاً ، وسرعان ما برز لونه المميز على خريطة العالم : عالم مستقل له طابعه المفرد ومنهجه المتكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان والاخلاق .

ومنذ ذلك اليوم أصبح المسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يحيدوا عنها أبداً، تهوي اليها قلوبهم وعقولهم بالإيمان والفكر ، ولم يكن لهم بعدها وإلى اليوم وإلى الأبد قبلة أخرى ، وما تزال الكعبـــة وستظل مركز الدائرة في أرض الاسلام .

وقد ألهب تطبيق الاسلام مشاعر الناس حتى من كان لهم منهج مخالف . يقول أوجست كونت : لا يسعني عندما أنظر الى فريق من المسلمين وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكاثفة والسكون والإيمان العذب يخيمان فوق رؤوسهم إلا ان أكبر عظمة هذا الدين الذي عرف كيف يصقل الأذهان ويهذب النفوس ويشرق القلوب ويقوم الاخلاق ويقضي على تمرد الروح ويحوله الى خشوع عميْق وتواضع ملؤه الخضوع .

ولا ريب ان هذا المعنى يتصل بالدور الضخم الذي قام به محمد صلى الله عليه وسلم في بناء هذه الأمة على القرآن . فهو ما زال وسيظل القدوة المثلى والأسوة الحسنة التي انتزعت من أكثر الناس تعصباً تقديراً واعترافاً .

يقول فيليب حتي : لم يسجل التاريخ ان رجلا واحداً سوى النبي محمد كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة ـ هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة ، لا يمكن ان تنفصم الواحدة منها عن الاخرى ، وكانت الى حد ما متوافقة يشد بعضها ازر بعض ، وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمناً حتى اذا ذهبت تعد الناس في العالم اليوم وجدت ان السابع او الثامن منهم يدعو نفسه مسلماً[١] .

وهكذا يصدق القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو في تقدير المنصفين القائد الاول للفكر الانساني الذي وقف ينادي بأن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وانهما لا تنخسفان لأحد .

وقد سيطر الاسلام على الانسانية أكثر مما سيطر الفكر الفلسفي العقلي ، سيطر على الفكر والعقل والروح ، وقدم الهداية للبشرية كلها ، وأقام دعائم حضارة الغد .

---

(١) الواقع ان في هذا التقدير انتقاص كبير ذلك ان تعداد المسلمين اليوم بلغ أكثر من سبعمائة مليون مسلم ، وهو ما يوازي ان كل خمسة من الناس بينهم مسلم .

وقد عجز الباحثون عن تعليـــل سر ذلك الانتشار العظيم الساحق للاسلام في مطالعه ، وسرّ هذا الثبات العظيم للاسلام أينما حل ، وسر هذه الوحدة التي أقامها معتنقوه والتي ما تزال القوى الغاضبة تضربها بشدة منذ قرن من الزمان دون ان تفل وحدتها .

وصدق تريتون اذ يقول : ان التفسير المادي يفشل فشلا ذريعاً في ان يعلل وحدة العرب وغلبهم على غيرهم واستقامة حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين الا أن ينظروا الى العلة الصحيحة لهـــذه الظاهرة الفريدة فيروا انها تقع في هذا الشيء الجديد : ألا وهو الاســـلام .

رأوا ان الاسلام قوة هائلة فيه حيوية دافعة الى العمران وسبيل الحضارة وهو الطريق الى جمع الكلمة ، ونشر الاسلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب .

ومن هنا تعرف أيضاً ما هي القوة التي كانت ولا تزال تحول دون انحراف عقيدة الاسلام ، والسقوط في هوّة التقليد او التأويل او التبعة او الخروج عن المنابع الاولى .

وقد صدق عمر بن الخطاب حين دعانا الى النظر في التاريخ القـــديم السابق للاسلام لنعرف الفوارق والخلافات حين قال : « انما تنقضي عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية » .

نعم : ان مفتاح ذلك كله هو ان الاسلام لا يزال يعد مهمة الوحي قائمة بما قدمت من كتاب ودين ، وما تزال أسوة الرسول قائمة أمام المسلمين

تطبيقاً لهذا الدين ، ولا يقر الاسلام مطلقاً ان العقل البشري أصبح قادراً وحده على فهم الحياة او ان الانسانية قد أصبحت قادرة على ان تتجاوز رسالة السماء المنزلة بالحق في أصولها الاصيلة .

أنور الجنـــــدي
عضو المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية
القاهرة

المراجع

محمد عبد الله دراز : الدين : بحوث محمد عبده لدراسة تاريخ الاديان .

أحمد شلبي : مقارنة الاديان .

أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

محمد عبده : الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .

محمد المبارك : الفكر الاسلامي الحديث .

عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة .

محمد ابو زهرة : محاضرات في النصرانية .

علي سامي النشار : نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة .

وذلك بالاضافة الى المراجع الواردة في هوامش الكتاب .

هذا الكتاب

علم مقارنة الأديان علم قديم : كان المسلمون اول من تناولوه في انصاف ووضعوا قواعده في أمانة ، وكشفوا به حقائق الأمور في سماحة بالغة . فقد تناول ابو الريحان البيروني . وابن حزم . والشهرستاني وغيرهم مقارنات الأديان وفق منهج علمي قائم على العدل والانصاف ، وعرض أقوال المخالفين بكل حرية ، وعرضوا للنحل على نحو متميز من الوضوح والسماحة ، دون تجاوز الحق . وان أي مراجعة لكتاب الأطباء لابن ابي أصيبعة ـ وطبقات الحكماء لابن القفطي . وطبقات الأدباء لياقوت ـ والوافي بالوفيات للصفدي ـ وتاريخ حكماء الاسلام للبيهقي . تجد نماذج لهذا التسامح . فقد ترجم المؤلفون المسلمون للنصارى . واليهود والمجوس . وكأنهم ابناء ملة واحدة ـ وكتب البيروني عن أديان الهند في القرن الخامس من الهجرة . فلم يمس عاطفة أحد من أهلها .

